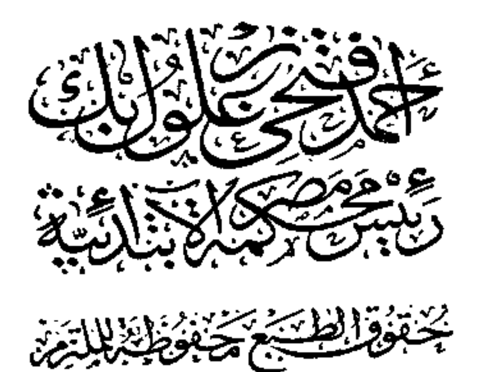


تأليف

ادمون ديمولان

ترجمة من اللغة الفرنساوية



محمد علي كامل
صاحب مكتبة الترقي ومطبعتها بشارع عبد العزيز بمصر

طبع بمطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٣١٧ – ١٨٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الامين وعلى آله واصحابه والتابعين

ظهر بفرنسا في شهر افريل سنة ١٨٩٧ ميلادية كتاب الفه موسيو ادمون ديمولان وسماه سر تقدم الانكليز السكسونيين بحث فيه بحثاً دقيقاً عن احوال الامة الفرنساوية وقارن بين التربية فيها وفي المانيا وبينها في انكلتره واستدل على ضعف امته بفساد التربية فيها واستشهد على فضل الامم الانكليزية السكسونية بتربيتهم ونشأتهم وما القوه من العادات والاخلاق وغرضه من بيانه هذا حث الامة الفرنساوية على العدول عن تقاليدها في التربية والتعليم وادخال الاصلاح في المدارس حتى تؤدي الغرض المقصود منها وهو تخريج رجال قادرين على العمل الصحيح غير معتمدين الاّ على انفسهم ولا يطلبون سعادتهم الا من كدهم واجتهادهم

والمؤلف رجل ظل السنين الطوال في عزلة لا يكاد يشعر به احد من قومه وانشأ مجلة شهرية سماها (العلم الاجتماعي) مضى عليها الى يوم نشر الكتاب اثنتا عشرة سنة ولم يكن لها من الشهرة اكثر مما لغيرها من المجلات العلمية ولكنهُ كان في عزلته يركب الصعاب في البحث عن احوال امته ويطيل

النظر في اسباب تأخرهـا عن الامم الانكليزية السكسونية ويجمع مواد كتابه من كل شاردة يعز نوالها ويسعى وراء الادلة التي يؤيد بها رأيه من النظر في الحوادث ونتائجها والعادات وآثارها والاخلاق وما يترتب عليها

وقسم كتابه الى ثلاثة ابواب بحث في الباب الاول منها عن نظام المدارس عند امته والامتين الاخيرتين واعرب عن نتائج ذلك النظام في كل امة منها. وقارن في الثاني بين الفرنساوي والانكليزي السكسوني في معيشتهما الخصوصية فتكلم عن المسكن والملبس والصنائع والحرف والزواج والمواليد والوفيات وتأثير ذلك كله في الامة من حيث الثروة العمومية والزراعة والصناعة والتجارة. وخصص الباب الثالث للكلام عليهما في حياتهما العمومية فقارن بين اهل السياسة في البلدين وفرق بين مجلسي النواب فيهما وافاض في بيان مزايا الحرف المستقلة والصنائع الفنية كما اطال في ذكر مضار اهل الحرف الادبية كالاطباء والمحامين ووكلاء الدعاوي والموثقين واهل الصحافة وارباب الجرائد اذا كان الصوت صوتهم في سياسة الامة واجهز على مذهب الاشتراكيين بساطع البرهان واقوى الحجج وفند اقوال اصحابه تفنيداً يخضع له المكابرون وخاض في الكلام على معنى الوطن والوطنية فردهما الى معناهما الصحيح بعد ان بين المعاني الفاسدة التي اخطأ غلاة الوطنية في فهمها من هاتين الكلمتين ودل على الفرق الموجود بين امته وبين الامم الانكليزية السكسونية في ادارك معنى التكافل والتعاون من بعض الافراد لبعضهم وارشد الى احسن احوال الاجتماع لتحصيل السعادة في هذه الدار وهذا الفصل الاخير كله حكم بليغة ودرر ثمينة وختم الكتاب بالكلام على الدين

وتأثيره في النفوس وفعله في سعادة الامم بصلاحه وشقائها بفساده وتخلص الى ذكر الحوادث الجديدة التي اخذت تبدو في الامة الفرنساوية مما يدل على انها سائرة نحو التقدم شاخصة الى التحول من حالة سيئة الى حالة راضية

ويمر القارئ على الكتاب من اوله الى اخره فلا يجد فيه دليلاً خطابياً او حجة غير معترف بها لأنَّ المؤلف اردف كل قول بدليله المنتزع من الحوادث الصادقة والمشاهدات الصحيحة مما لا يدع مجالاً للشك او محلاً للاعتراض

فلما فرغ من تأليفه ورمى به بين القراء من قومه كان كشعلة من النار اصابت وقوداً جافا فالتهمته لساعتها وسرى لهيبها في جميع الاندية والبلدان غير ان الناس لم يشتغلوا باطفائها بل كان كل يذكيها ويصليها لانها نار هدى وسلام

وحقيقة ما نشر الكتاب حتى اشتهر وعظم شأنه وتهافت الناس على تلاوته واقبل الجموع على مطالعته وقامت له قيامة المدرسين واشتغل بالبحث في ابوابه كبراء الكتاب والمدققين وتلقفته الجرائد فشرحته وذيلته وقرظته وانهالت على صاحبه المراسلات تترى من كل ناحية يسأله اصحابها اين المدارس التي يشير اليها والسبيل الى تربية ابنائهم على غير تربية آبائهم ولم يمض الا القليل من الايام حتى ترجم الكتاب الى لغات عديدة فقرأه الانكليز والالمانيون والاسبانيون والبولونيون وها نحن اليوم نزفه الى قراء العربية يتهادى في احاسن معانيه ورفيع مبانيه

هذا كتاب لم يترك منقصة في تربية الامة الفرنساوية الا اذاعها ولا خلقاً سيئاً او عادة سافلة الا ندد بها لذلك اشتد وقعه في قلوبهم وضربوا

بايديهم على جيوبهم ولكنهم مع ذلك لم يلوموا المؤلف بل عظموه ولم يعنفوه بل احترموه وعرفوا انهُ مخلص يحب امته ويطلب لها النفع والفخار فما منهم الا من اكرم مثوى الكتاب ورأى فيهِ تذكرة لاولي الالباب واجلس صاحبه حيث يجلس الحكماء واحله حيث تحل العظماء وسألوه ان يكون قائد حركة التعليم والهدى بهم الى الطريق المستقيم فجاءه ارباب الغنى واليسار يقدمون لهُ الاموال ويمدونه بالنفس والنفيس وامتاز من بينهم ثلاثة عشر رجلاً من سراة القوم عقدوا معهُ شركة واشتروا على مسافة ساعتين من مدينة باريس قصراً مشيداً وحديقة انيقة وارضاً فسيحة تبلغ الاربعة والعشرين فداناً واستخدموا المهندسين وارباب الصنائع والحرف في اعداد القصر مدرسة والبستان ميدان تمرين والغيط موضعاً للتجارب والاختبار فقام كل واحد بما عهد اليهِ واعلن عن افتتاح المدرسة في شهر اكتوبر سنة ١٨٩٩ للطالبين

والف موسيو ديمولان كتاباً اخر سماه (التربية الجديدة) ظهر في السنة الماضية ذكر فيهِ ما كان من امر كتابه الذي تقدمه للقراء وضمنه نظام المدرسة الجديدة وبين الفرق بين التعليم الذي يقصده وبين التعليم الذي يجري عليهِ قومه وجاء فيهِ على ذكر بعض الرسائل التي كتبت اليهِ من جميع الطبقات وكل الجهات واهداه الى صديقه موسيو (جول لومتر) عالم من ارباب الافهام وكاتب نابغة بين اهل الاقلام قدر كتاب سر تقدم الانكليز حق قدره وساعد كثيراً بخطبه وقلمه على اذاعته ونشره

ولاجل ان يعلم القراء ما كان للكتاب من التأثير نلخص بعض شذرات

مما نشرته الجرائد وبعض الرسائل التي كتبت الى المؤلف

قال موسيو (جورج رودوناخ) في جريدة (باتريوت دي بروكسيل)» (ظهر كتاب في فرنسا عظم اشتهاره وكان لهُ تأثير كبير في تلك البلاد عنوانه سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه موسيو ادمون ديمولان وقد اشتهر هذا المؤلف بكتابه دفعة واحدة فانا عرفناه منذ زمان مكباً على العمل بصبر وسكون وحضرنا مجالسه عند (لابلى) مؤسس العلم الاجتماعي وكان اكبر تلامذته وهو الذي كان يحيي مجلسه باحاديثه ويفيد الحاضرين بمعارفه وينسيهم الوقت بما يحكي من الحوادث وما يشرح من الحقائق فلما رحل استاذه عن هذه الدار انزوى هذا الرجل ونسيه اكثر العارفين بهِ وصار اسمه لا يرد على الالسنة الا ضمن الحديث حتى اننا كنا نتساءل عنهُ ونقول لعل ديمولان لم يك من الناجحين مع ما ظهر منهُ اولاً من غزارة المادة وعظيم العرفان. وبينما الناس يتناسونه واذا بهِ قد ظهر ظهور القمر في الليلة الظلماء بكتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين الكتاب الذي امتحن فيهِ المؤلف وجدان الامة الفرنساوية فجاء يبرهن على ان زمان السكر بالزهو قد انقضى وقام العلماء والكتاب يدلون على مواقع الضعف ويشعرون الامة بما اصبحت في حاجة اليهِ ولم يأتِ موسيو ديمولان في مقابلته بين الفرنساويين وبين الانكليز السكسونيين الا بالوقائع الثابتة والمشاهدات الصحيحة واختار المقابلة بين الماديات فليس كتابه كتاب مذهب يريد نشره ولكن كتاب افكار تؤيدها الحوادث والمشاهدات فالارقام فيهِ ناطقة بلسان فصيح والاحصاء ينتج النتيجة من نفسه ويدل على الاصلاح

الذي ينبغي) اه

وقال موسيو (درومون) في جريدة (ليبر بارول)

كثيراً ما سألني بعض الشبان اي كتاب يقرأون واني اجيبهم الآن عليكم بكتاب من الكتب الرئيسية اختبر فيهِ مؤلفه حالة الامة اختباراً دقيقاً اقرأوا كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين فقد بحث فيهِ موسيو ادمون ديمولان عن مزاج الامة الانكليزية وبين اسباب انتشارهـا العجيب في الدنيا ودل على علة سيادتها بين الامم تلك الامة القوية القادرة التي تلجيء اكبر مبغضيها الى الاعجاب بها والاعتراف بفضلها) اه

وقال موسيو (ديلاهى) في تلك الجريدة ايضاً

(اني فرغت من قراءة كتاب موسيو ديمولان ووعدت نفسي بقراءته مرة ثانية لانهُ جمع شيئاً كثيراً ولكني لا انتظر تلك الفرصة لانشر ما وجدته فيهِ من المادة الغزيرة والعلم الكثير وليس لنا نحن اصحاب الجرائد من الخدم الا ان نقرأ كتاباً يكون مؤلفه قد اعمل الفكرة في فصوله قبل ان يكتبها وهو نادر في هذه الايام ثم ننشره بين الناس

(يوجد في احدى زوايا باريس اربعة شبان او خمسة لا تفتر لهم همة عن البحث والتنقيب ولا يعرفون الملل من العمل مهما كان شاقاً قد افادوا وحدهم في العشر سنين الاخيرة اكثر مما افاد ذلك القطيع الذي يتألف من اعضاء مجلس النواب ومجلس الاعيان ولهم مجلة شهرية لا يعرفها ولا بالاسم الا القليل النادر من ذلك القطيع مع انها كنز اعظم فائدة من مجموعات تلك المجالس التي غصت بمذاكراتها وخطبها تحت حكم الجمهورية الثالثة) الى ان

قال (ان كان في ديمولان شيء يوجب الاعجاب فهو حسن مقصده وسلامة ذوقه رجل ما قصد الا استخلاص الحقيقة مما غشيها من الالفاظ والجمل والاوهام التي اعتاد الناس عليها وقد توصل بحسن اسلوبه الى احياء حقائق كانت نسياً منسياً . ملأ كتابه علماً واسنده الى الوقائع الصحيحة واعمل الفكرة قبل ان يكتب وكل الناس معترف بانهُ مصيب في تخلصه الى السؤال عن سبب سقوط فرنسا وجوابه بانهُ سوء التربية . وليست المسئلة الاجتماعية الا مسئلة التربية فكما تكون الآباء تكون الابناء وكما تكون الابناء تكون الرجال وكما تكون الرجال تكون الامة وموسيو ديمولان لا ينكر هذه الحقيقة ولكنهُ اراد الدلالة عليها ببيان معنى التربية الاجتماعية الصحيحة وقد دل بمقارنته بين الامتين الفرنساوية والانكليزية السكسونية في التربية والمعيشة البيتية وقوة الانتشار والمعيشة العمومية والسياسة على ان من البديهيات ما ينساه الناس ويجهلونهُ جهلاً كلياً

(واجمل فصل في الكتاب على ما ارى هو الذي عقده لبيان احسن الحالات لنوال السعادة وهو الذي يحلو لي النقل عنهُ) ثم اخذ الكاتب ينقل عن ذلك الفصل ما حوى من الحكم

ولما انتشرت هاتان الجملتان في تلك الجريدة تهافت قراؤها على مطالعة الكتاب ونقلت جرائد الارياف ما كتب الفاضلان وعلقت عليه من الشروح والاقوال ما لا يحصى وكلها تمجد الكتاب وتعظم الذي اهداه

وقالت جريدة (لاريبوبليك فرانسيز)

(جاء كتاب ذلك المؤلف العظيم الشأن بمسئلة شغلت الافكار في

هذه الايام ألا وهي السر في انتشار الامة الانكليزية السكسونية ذلك الانتشار العجيب. ولقد كان الناس يشعرون بوجود تلك الافضلية الا ان موسيو ديمولان اتى لها بالبراهين العقلية والحجج العلمية) اه

وكتبت جريدة (الكوكارد) مقالة طويلة ختمتها بقولها (ينبغي لصادقي الوطنية ان يطيلوا النظر في هذا الكتاب وان يشكروا موسيو ديمولان على هديته) اه

وقالت جريدة (لو بتي باريزيان) بعد الفراغ من الكلام على فصل التربية (تلك افكار حقة صحيحة يجب الالتفات اليها بالنظر الى حالتنا الحاضرة)

وقالت جريدة (لوبو پل فرانسيه) (ذلك كتاب يثير الخاطر وان كان كله جدًّا وهو لذيذ وان كان قاسياً) اه

ونشر موسيو (باريزيو) جملاً في يوم واحد في جرائد (لاپيه) و (لو پيي) و (سوڤرنتيه ناسيونال) و (لوليبرال) و (لوكونستيتسيونيل) و (ليتندار) اجمعت على مدح المؤلف ووصف الكتاب بانهُ (مفيد مؤيد بالشواهد ربما حملنا على التحلي باخلاق الامة الانكليزية السكسونية) اه

ونشر موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طنانة في جريدة (ايكو دي پاري) منها (هذا كتاب شديد الوقع لولا ان قراءته واجبة على كل رب عائلة وكل مشتغل بالتربية والتعليم) ثم ختمها بقوله (ان كتاباً حوى تلك المسائل كلها لجدير بالاذاعة والاشتهار فكلنا في حاجة الى معرفة سر تقدم الانكليز السكسونيين والا صدق فينا قول (پرودون) (اوروبا حبلى بثورة اجتماعية ولكنني اخشى ان تموت قبل ان تضع حملها) اه

وقال موسيو (فرنسيسك سارسي) في تلك الجريدة مختماً كلامه على الفصل المتعلق بالمقارنة بين تشكيل مجلس النواب الفرنساوي ومجلس النواب الانكليزي ما نصه (ذلك الكتاب مفيد جداً لما حواه من الافكار الجديدة او التي وضعت في قالب جديد وللناس فائدة كبرى في معرفة ما اشتمل عليهِ من الحقائق فان المؤلف عالم حكيم) اه

وبعد ايام عاد الكاتب المشار اليهِ الى الكلام على ذلك الكتاب في جريدة (رابيل) وبدأ مقالته بهذه الجملة (لقد هاج كتاب موسيو ديمولان عامل الهوس في نفسي وقد تكلمت عليهِ قبلاً ولا بد من العود اليهِ لانني لا اعرف كتاباً احسن منهُ في الغرض المقصود لمؤلفه) اه

ولم يكتب احد كلمة ضد الكتاب الا واحداً من النواب ومع ذلك فانهُ اعترف بافضلية الانكليز السكسونيين والالمانيين وعلل ذلك بشدة الاقدام وكبر الهمة ولعله من اولئك الثلاثة والاربعين نائباً الذين قال فيهم موسيو ديمولان انهُ لم يجد لهم طائفة او حرفة يلحقهم بها (١)

ولم يمضِ الشهر الثاني على نشر الكتاب الا وقد طبق صيته الخافقين وتناولته الايدي في المشرقين وكتبت عنهُ الجرائد الالمانية والتليانية والانكليزية والامريكية وغيرها بلهجة تمجد الكاتب وتمدح الكتاب

ولما نشر موسيو ديمولان كتابه الثاني (التربية الجديدة) صدره بكثير من الرسائل التي وردت عليهِ اثر انتشار كتابه الاول ومن الفائدة ان نقتطف البعض منها

---

(١) راجع جدول تشكيل مجلس النواب في فرنسا

كتب اليهِ صاحب معمل صناعي في مديرية (سين ايواز)

(انا رجل من اهل الصناعة وقد انتهزت فرصة السفر فطالعت كتابكم ولا حاجة بي ان اذكر لكم مقدار استفادتي منهُ الا انهُ القى الحيرة في امري من جهة اني صانع ووالد ابنين في العاشرة والحادية عشرة من عمرهما وانا اكتب اليكم هذا الخطاب تحت تأثير الاعجاب بالفصل المتعلق بنظام التربية في المدارس الانكليزية . أتوجد مدارس في فرنسا على هذا النحو قد جمعت العلم والعمل والرياضة والمعيشة البيتية حتى اسارع الى وضع ابنيَّ فيها الى ان يشتدا فارسلهما الى احدى المدارس الانكليزية) اه

وكتب اليهِ صاحب معمل في (هيرولت)

(لما طالعت كتابكم عقدت العزيمة على ارسال ابني الى احدى المدارس التي وصفتموها وهو الآن في الثانية عشرة وقد سافرت لاشاهد مدرسة (بيدال) بنفسي فاعجبني نظام التعليم فيها وكان ذلك من مؤكدات رغبتي في ارسال ابني الى انكلتره . نعم سيكون الامر صعباً علينا وبالاخص على والدته لاننا نسكن في جنوب فرنسا ولا يتيسر لنا ان نراهُ الا في المسامحات الكبيرة غير ان تربيته اعز وابقى) اه

وكتبت اليهِ سيدة من (تولوز)

(لعلكم لا تعجبون من ان احدى الوالدات تكتب اليكم لتسألكم بعض المعلومات عن المدارس التي وصفتموها وجعلتم كل مشتغل بمستقبل ابنائه يعرف قدرها ومزاياها فكل من امعن النظر في الفوائد التي تنجم عن التعليم فيها يندب عدم وجود مثلها في البلاد الفرنساوية . لي ولدان ولكن

يعوزهما الاقدام والهمة الذاتية التي هي شرط النجاح في هذه الايام وهما صغيران وتربيتنا التي استولت على زمام الاطفال واستغرقت كل اوقاتهم لا تترك لهما وقتاً يكون لهما فيهِ فكر ذاتي او تصور شخصي ولا تؤدي الى الغرض الذي اقصدهُ فيهما ولو اني اثق بمدرسة (بيدال) من الجهة الدينية لما تأخرت عن ارسال ابنيَّ اليها وارجو سيدي عفواً اذا اكثرت من السؤال فانتم الذين شوقتموني الى الاستفهام اذ كشفتم القناع للآباء والامهات الفرنساويين عن سبل وطرائق يجب على الكثير منهم ان يسلكوها وكثير يود سلوكها) اه

وكتبت اليهِ سيدة

(ابنائي ثلاثة وانا اشتغل بتربيتهم كل الاشتغال واني لحزونة لمخالفة التربية التي يتلقونها في المدرسة لافكاري على خط مستقيم . ترى الطفل مشغولاً على الدوام بالامور العقلية فلا يكاد يتفرغ هنيهة لامور الحياة العملية وعلى التحقيق ليس لهُ من وقته يسير يمكنهُ من الرياضة والتمرينات الجسمية التي تقوّم الجسم وتشد الاعصاب لهذا اتشوف الى أخبار التعليم واتتبع خطا تمديل طريقته بكل اهتمام

(ولقد يتولاني القنوط عند ما اشاهد ابني الاول الذي بلغ الثانية عشرة من عمره متخمشاً لا يقدر على مساعدتي في اي امر عملي قليل الهمة ضعيف الارادة ولكني أُاثّم في ذلك المدرسة والواجبات الكثيرة التي تطلب من الاطفال وقد دللتموني بكتابكم على انهُ يجب عليَّ ايضاً ان اعد نفسي من الآثمين اذ صحيح اني ووالده كلما اردنا الخوض في موضوع مهم او في

عمل من الاعمال المفيدة ننتظر حتى لا يكون الاولاد معنا ولو اتفق لاحدهم انهُ اشترك معنا في الحديث او تطرف الى الخوض في كيفية معيشتنا او تطاول فسألنا عن امر لم يدركهُ فيها رددناه في الحال على عقبه بالفاظ كهذه : ليس هذا مما يعنيك ـ اشتغل بواجباتك ـ من كان في سنك فلا يعول عليه ـ اخرس

(وقد اجتهدت في تلقين ابنائي المبدأ الآتي : ان الاطفال يضايقون الناس فيجب عليهم اذا كانوا في غير بيتهم ان يكونوا بحيث لا يشعر بوجودهم احد من الحاضرين . وقد كافأتني احدى صديقاتي على اجتهادي بهذه الجملة انّ ابناءك لعلى تهذيب عظيم

(سيدي لقد هديتني ببعض اسطر من كتابك الى انني ضللت السبيل وذكرتني بذلك القول الذي لست اذكر اين قرأته (اذا عاملت ابنك معاملة الرجال لا يلبث ان يصير رجلاً) وعلى العموم اسلم معك ان الامهات الفرنساويات عقبة عظيمة امام الافكار التي قمتم انتم وموسيو (بونڤالو) بنشرها وان بناتهن لا يصلحن زوجات للمستعمرين والزوجة الحقيقية التي اعني وجودها في القرن المتمم للعشرين هي التي تكون صديقة زوجها وشريكته ورفيقته وهي التي لا تقتصر على كونها والدة ابنائها المحترمة بل تكون اليفتهم ومرجع سرهم قد عرفت الحياة واختبرت كل امورها لا لتوافق على كل امر بل لتفهم كل شيء ولن يجب علينا ان ننسج على منوال تلك الرومانية التي قيل فيها (اقامت في بيتها وبرمت مغزل صوفها) اه

هذا ولم تقتصر حركة الافكار التي احدثها هذا الكتاب على الجرائد

والرسائل بل تعدت بعد انتشاره ايضاً الى المشتغلين بالتعليم وظهرت في خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة ان نأتي على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهي اكبر الجرائد الفرنساوية وانفذها رأياً

(قرأنا خطب توزيع المكافآت في هذا العام والذي استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعاً من غير موعد بينهم في الارشادات والنصائح التي القوها على التلامذة. فلم نرَ هذه المرة في خطبهم ما جرت بهِ العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعهُ منهم من الجمل الطويلة والقول الموشَّى في الادب وقواعده ولكنهم اجمعوا تقريباً على الخطابة في موضوع العمل والحث عليهِ وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتزاحم

(هذا موسيو (رنى ميلمي) مبعوثنا في تونس قد هنأ نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية في التعليم التي ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم اي اهمال

(وهذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى ان اول واجب في التربية هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح

(وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التي ترجع الى ان الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضي المخاطرة والمجازفة

(واولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يحادثون شبيبتنا فيما وراء المستعمرات من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة اليد مما يؤدي ايضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلي شأنه ويشد ازره

(وعلى هذا فقد ظهر اليوم في الافكار رد فعل الماضي وانعطفت الاميال الى التمثل بالانكليز وهي حركة من شأنها ان تدخل الفرح في قلوب محبي الوطن فعلينا ان نقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرح في النفوس وان نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاء) اه

وخطب موسيو بني دي جولفيل في مدرسة (كوندورسي)

(يجب عليكم في مساعدة الضعفاء ان تكونوا اقوياء فقولوا ولا تخشوا احداً ان التكافل في الوجود نوعان صحيح وفاسد. طيب وردئ. اما الاول فهو ان يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوهُ واعملوا بهِ جهدكم. واما الثاني فهو ان ينتظر الواحد كل شيء من غيره وهو تكافل لا خير فيهِ ولا قيمة لهُ وان كان لهُ احزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه. ولا يعولن الواحد منكم في نفع نفسه على غيره بل ليكن اعتماده اولاً على نفسه وهمته وارادته وصبره وجلده ومثابرته على العمل بذاته وعودوا انفسكم على الارادة) اه

وقابل موسيو (فاجت) في مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين الحرف الادبية وبرهن على ان الاولى ليست اقل فضلاً ولا شرفاً من الثانية

الا ان الكاتب الذي اهتزت لقلمه الافكار وانحازت لصوته الاميال وتم بقوله النصر لكتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

(جول لومتر) وهو الذي اهداه المؤلف كتابه الثاني (التربية الجديدة) قال في جريدة الفيجارو وهي ايضاً من اهم الجرائد الفرنساوية وأكثرها انتشارًا

(ما اصعب كتاب موسيو ديمولان على النفوس. ولكن يجب ان يقرأهُ الناس ويشربوا ذلك الكأس الذي ملئ بالحسرات . ان الذي يقوله موسيو (ديمولان) كنا نعرفه او نشعر بهِ ولكنهُ حدد المطلب وجمع بين شتاته جمعاً محكماً. والذي يستخلص من هذا الكتاب الذي يقنع القراء بقدر ما يحزنهم هو افضلية الامة الانكليزية السكسونية من حيث احوالها الاجتماعية وسياستها وتجارتها وماليتها وآدابها واخلاقها مقابل ضعفنا ومسكنتنا وعدمنا في الوجود لان افضلية هزلياتنا وافضلية طهاتنا لن تنجينا من الوهدة التي نحن فيها. ولقد يجوز ان تكون افضليتنا الفنية لا فائدة فيها

(ومن سوء الحظ لا يمكننا القول بان الزمان قلب فاليوم مر وغدا حلو لاننا امة اتكالية كل واحد من افرادها يعتمد على البقية والانكليز السكسونيون امة استقلالية لا يعتمد الواحد من قومها الا على نفسه والنتيجة من هذا خطر علينا)

ثم اخذ الكاتب يسرد افكار المؤلف ويؤيد استنتاجاته الى ان قال

(ذلك هو ما يجده القراء مفصلاً ومبرهناً عليهِ باقوى الحجج في كتاب موسيو ديمولان مضافاً الى كثير غيره كله حق وكله لا يوجب العزاء ولا يؤدي الى السلوان)

وبعد ان جارى المؤلف في مقدمة الكتاب واتى على ذكر انتشار الامة الانكليزية السكسونية ختم مقالته بما يأتي :

(ليس لنا الا ان نحصل ما فاتنا من الفضائل التي كثرت في امة الانكليز السكسونيين فنساعد على نمو الهمة الشخصية ونعوّد اهلنا على الاعتماد على انفسهم وعلى ذلك الاقدام والعزيمة والاهتمام

(يلزمنا آباء يعتقدون كل الاعتقاد انه لا يجب عليهم لابنائهم الا التربية بشرط ان تكون حقيقية قويمة

(يلزمنا شبان يعتقدون كل الاعتقاد انهم هم الذين عليهم لانفسهم تحصيل رزقهم بانفسهم في الحياة الدنيا

(يلزمنا شبان يعقدون الخناصر على ان يطلبوا من الزواج رفيقاً لا مهراً جزيلاً

(يلزمنا حكومة ترجع اختصاصها الى الحد الادنى وتقلل عمالها الى الحد الادنى وترد بذلك الشبان الى المهن المستقلة التي تقتضي الهمة الذاتية والاقدام والعمل

(يلزمنا حالة اجتماع يكون فيها الموظف والسياسي ومن لا عمل لهُ اقل اعتباراً من الزراع والصناع والتجار

(يلزمنا ان نلغي دروس اللغات الميتة من مدارسنا الابتدائية وان نلغي جمعية المعارف ذاتها ان لم تلغ جمعيات العلوم وان نلغي مدرسة الهندسة وجميع مدارس الحكومة وان نلغي طريقة الانتخاب التي يتساوى فيها صوت العظيم بالحقير والجاهل بالعالم والزراع باهل البطالة والكسل وان نلغي ثلاثة ارباع الموظفين وان نلغي ذلك النظام الاداري الذي اسستهُ الثورة وايدته الامبراطورية الاولى

(اني لا ارى ضرراً من الغاء هذا كله وان كنت اراه صعباً

(يلزمنا اقتصاد الاموال التي نصرفها على الجيوش فانها تجلب علينا الخراب والدمار والغاء الخدمة العسكرية التي تأخذ من حياة شباننا ثلاث سنين ولا تحي روح الهمة فيهم الا يسيراً وان نكتفي كما تكتفي انكلتره بجيش لا يزيد عدده على مائة الف او الولايات المتحدة بجند لا يزيد عن ستة وعشرين الفاً

(يلزمنا ان نلغي تلك الحاجة المادية الى الدفاع عن الوطن والطموح الى الاخذ بالثار من قاهرينا

(يلزمنا ان ننسى انكسارنا الذي اضعفنا وجعلنا نخجل في كل آن

(يلزمنا ان نبدل نفوسنا

(يا قوم هل تعرفون وسيلة نوجد بها الهمة والارادة من حيث فقدتا ونجعل اللاتيني او السلتي الضعيف انكليزياً سكسونياً من الجبارين

(وبعد هذا فعليكم بما يسرّي الهم عنكم لعل صاحب الكتاب الذي اشتد وقعه قد بالغ وغالى

(ياقوم لا ينفعكم اعتقادكم بانكم امة خير تطلب الخير للناس وبان الانكليز السكسونيين امة اختصاص وخداع وبان الدولة الالمانية انما تعيش من فوائد نصرها عليكم

(يا قوم لا ينفعكم غير اصلاح حالكم فاعملوا ان كنتم في الترقي راغبين) اهـ

ثم كتب ذلك العالم الشهير رسالة اخرى وكانت الاولى قد اجهزت

على الطبعة الاولى من الكتاب ويقول صاحب التزامه انهُ اضطر الى طبع الثانية على عجل فقد كان يطلب منهُ في اليوم الواحد ما يزيد على مائة نسخة ورددت جميع الجرائد صدى هاتين المقالتين ونشرتهما جرائد الاقاليم كلها على التقريب ولكل واحدة منها قول يشجع على اقتناء هذا الكتاب ويؤيد ما اشتمل عليهِ من النصائح والمبادي

هذا هو الكتاب الذي نهدي اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد عموماً والى المصريين خصوصاً لمطابقة الوقائع التي دونت فيهِ عن الامة الفرنساوية لِمَا هو حاصل في بلادنا ولاتفاق البلدين في كثير من العادات والاخلاق والافكار التي عني المؤلف ببيان جهات النقص فيها اللهمَّ الا ان الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا

ووجه الشبه هذا هو الذي اخترناه سبباً في طلب الاذن من المؤلف واليك نص ما بعثنا بهِ اليهِ بعد الديباجة

لما قرأت كتابكم النفيس (سر تقدم الانكليز السكسونيين) اثر عندي بما رأيته من الشبه الكلي بين امتي وامتكم فاخلاقنا اخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم ان العيوب عندنا كبيرة جداً . ولا شك في انهُ سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الامة الفرنساوية لذلك رأيت ان نقله الى اللغة العربية يفيد اهل بلادي أفهل تسمحون لي بترجمته

وقد تفضل حضرته فاجابني على طلبي في ٤ يوليه سنة ١٨٩٨ بما يأتي

(اخذت خطابكم بعد عودتي من غيبة قصيرة وقد سررت جداً من حسن ظنكم بكتابي وفي اعتقادي ان بلدكم تستفيد من تلك الافكار مثل بلدي فانا اصرح لكم بكمال الارتياح ان تترجموه الى اللغة العربية)

ويحتاج سر تقدم الانكليز السكسونيين في مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى اسباب ما نحن فيهِ من التأخر والانحطاط

ومن المقرر ان ميلنا الى مطالعة المؤلفات التي من هذا القبيل ضعيف حتى في هذه الايام وان المشتغلين بنشرها اشق العاملين فان الواحد منهم قد ينتهب اوقات العمل فيها من سويعات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب ما لا تقدر قيمته ثم لا يستعيض عن تعبه بلذة ان الناس يقرأون ما اهدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين

لكن الذي لا يأخذ الامور بظواهرها بل يطلب الحقيقة اني وجدت يعلم ان انزواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة وملهم من العلم بما يجري في الوجود من تقدم الامم بترقي المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئاً عن بغضهم للعلم او نفورهم من القائمين بنشره وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشئ عن الضعف العام الذي الم بروح الشرقي منذ اجيال طويلة حتى امات ملكة حب الاستطلاع وجعل النظر في احوال الامة خصوصاً واحوال الامم عموماً قاصراً على ما يحس احساساً مادياً فلا يتحرك الفكر الا من جانب الشعور الجسماني على ان تحركه انما يكون لمجرد التوجع والتحسر او لمجرد الابتهاج والفرح الوقتي ثم لا يلبث ان يرجع الى

السبات العميق فيذهل عن امته وعن نفسه ويصبح كما امسى بل اقل عزماً واكثرهما

ذلك ما اصاب الامم الشرقية واستحكم في عقولنا حتى عم الفتور وصار كأنهُ حالة فطرية فحسبناه خلقاً من اخلاقنا وعددنا من يخرج عن حالتنا هذه مبتعداً عن المنهج القويم ومارقاً عن تقاليد الامة وعاداتها ومهيناً لها فيما ترى التمسك بهِ من موجبات كمالها. خصوصاً اذا جاءنا بما يكشف القناع عن المصائب المتولدة من ذلك الخمول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيهِ من الانزواء ونددّ بما اعتقد - كما هو الصحيح - انهُ اصل الشقاء ومجلبة العناء من اخلاق تخالف الغرض من الحياة وطباع تبعد باصحابها عن محجة النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال . تلك عادة المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان اقرب الى الغضب دفعاً لمؤثر يؤلمه وانتقاماً من نصوح يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد القدرة على نفي اسباب التأثر ويصير المخاطب كمن شد وثاقه وانهالت عليهِ السياط فلا هو قادر على تحمل آلامها ولا هو يجد من وثاقه فكاكاً فيكتفي بالصياح والاكثار من النواح وتمتلئ نفسه بالحقد على ذلك المسيء اليهِ في نظره فيبيت نفوراً منهُ لا يسمع لهُ قولاً ولا يعي عنهُ فعلاً

هذا هو السبب في الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت على اقتناء التافه من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون والروايات والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تعليل واضح لكثرة انتشار كتب المجون والهزيان وقلة كتب العلوم الصحيحة فان الاولى لا تطلب

شيئاً من همة القراء ولا تشغل محلاً من مدركتهم ولا يتكلفون اكثر من النظر الى الاحرف ليحصلوا منها صورة في الذهن تضحكهم او يدركوا واقعة تعجبهم ثم ينقضي الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقي مقفل عليه . ولان الثانية تقتضي امعان النظر وتستوقف الفكر وتنساب في النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل او ينبهه الى الواجب عليه . فان كان من اهل الهمم الساقطة ـ وهو الغالب ـ وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى احس من نفسه العجز عن القيام به اسرع الى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما اوقد النار واحرق الكتاب كما فعل بعضهم في العام الماضي بترجمة كتاب الاسلام ظناً بان احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي انغمس فيه

تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى اسوأ منها وقد احدثت عندنا من انحلال الاخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه في جميع مشاعر الامة وتقاليدها .

هذه المجتمعات اصبحت معدومة في منازلنا حتى بين اهل الحرفة الواحدة بل صار هؤلاء اشد الناس نفوراً بعضهم من بعض فجهل كل واحد سبيل اخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم ان يفوز بيننا فوزاً مبيناً . نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة في هذه الايام ولكنها حول الكؤوس والاكواب او في ميادين الملاهي والالعاب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها في كل يوم الا سافر

فلان وعاد فلان ونشكر فلاناً ونحذر فلاناً وهكذا وكله راجع الى ذلك الحال الذي استولى على الامة فجعلها لا تقبل الا ما يوافق الكسل ويلائم عدم الحركة في كل شيء . اما ما كان في تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة او ينبه على رذيلة او يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد

لكن على قدر فقدان الشعور العام في الامة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغي السعي في حملها على الرغبة فيه

ومن الحقائق ان الامة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها الا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الامراض التي تنهك قواها وتحط من عزيمتها

ولا يتيسر للامة ان تتخلص من آلامها وتبرأ من امراضها الا اذا عرفت اسبابها واحاطت بموجبات الضعف فيها

فاول واجب على من يطلب مصلحة امته ان يبين لها مواضع الضعف الملم بها حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء

وليس من ينكر اننا متأخرون عن امم الغرب واننا امامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا ان نفوز ببغيتنا ما دمنا ودامت على هذا الحال

نحن ضعاف في كل شيء تقوم به حياة الامم متأخرون في كل شيء عليه مدار السعادة

ضعاف في الزراعة وهي الاس المتين الذي تقوم به حياة الامم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصّل عيش يومه ولا حول لامة لا تجد ما تقتات منه وبالزراعة تأمن الامة غائلة الشقاء المادي فتتمكن من النهوض الى

شيئاً من همة القراء ولا تشغل محلاً من مدركتهم ولا يتكلفون اكثر من النظر الى الاحرف ليحصلوا منها صورة في الذهن تضحكهم او يدركوا واقعة تعجبهم ثم ينقضي الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقي مقفل عليه . ولان الثانية تقتضي امعان النظر وتستوقف الفكر وتنساب في النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل او ينبهه الى الواجب عليه . فان كان من اهل الهمم الساقطة ـ وهو الغالب ـ وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى احس من نفسه العجز عن القيام به اسرع الى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما اوقد النار واحرق الكتاب كما فعل بعضهم في العام الماضي بترجمة كتاب الاسلام ظناً بان احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي انغمس فيه

تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى اسوأ منها وقد احدثت عندنا من انحلال الاخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه في جميع مشاعر الامة وتقاليدها

هذه المجتمعات اصبحت معدومة في منازلنا حتى بين اهل الحرفة الواحدة بل صار هؤلاء اشد الناس نفوراً بعضهم من بعض فجهل كل واحد سبيل اخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم ان يفوز بيننا فوزاً مبيناً . نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة في هذه الايام ولكنها حول الكؤوس والاكواب او في ميادين الملاهي والالعاب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها في كل يوم الا سافر

فلان وعاد فلان ونشكر فلاناً ونحذر فلاناً وهكذا وهذا راجع الى ذلك الحال الذي استولى على الامة فجعلها لا تقبل الا ما يوافق الكسل ويلائم عدم الحركة في كل شيء . اما ما كان في تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة او ينبه على رذيلة او يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد

لكن على قدر فقدان الشعور العام في الامة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغي السعي في حملها على الرغبة فيه

ومن الحقائق ان الامة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها الا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الامراض التي تنهك قواها وتحط من عزيمتها

ولا يتيسر للامة ان تتخلص من آلامها وتبرأ من امراضها الا اذا عرفت اسبابها واحاطت بموجبات الضعف فيها

فاول واجب على من يطلب مصلحة امته ان يبين لها مواضع الضعف الملم بها حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء

وليس من ينكر اننا متأخرون عن امم الغرب واننا امامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا ان نفوز ببغيتنا ما دمنا ودامت على هذا الحال

نحن ضعاف في كل شيء تقوم به حياة الامم متأخرون في كل شيء عليه مدار السعادة

ضعاف في الزراعة وهي الاس المتين الذي تقوم به حياة الامم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصّل عيش يومه ولا حول لامة لا تجد ما تقتات منه . وبالزراعة تأمن الامة غائلة الشقاء المادي فتتمكن من النهوض الى

الحياة الادبية وطلب الكمال . ونحن لا نعرف حتى اليوم من اصولها غير شق الارض بقطعة من حديد مركبة في كتلة من الخشب يجرها ثوران ورمي البذور كما كان يرميها اباؤنا ثم انتظار الريح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش . واهل الغرب يستحدثون لاصلاح الاراضي كل يوم جديداً ويخترعون من الآلات ما تتضاعف بهِ الهمم وتشتد بهِ الايدي ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الافراد من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها وغير ذلك مما جعلهم يستغلون الصخر ويستنبتون الجبال . والزراعة عندنا حليفة الانحطاط فالفلاَّح هو ذلك المسكين الذي اقتفى اثر ابيه القديم في عمله ولم يجدد بعده طريقة ولا صنفاً فاكتسى اردأ الملابس وتغذى بأخس المأكولات وقضى حياته في ادنى المساكن . وهو ابو الجهالة المحقر المرذول فلا نزال نقول عن انفسنا اذا اردنا ان نبالغ في ذم احدنا بالجهل انه (فلاَّح)

ضعاف في الصناعة لاننا اهملناها وجهلنا طرائقها فاصبحنا وليس منا الا الفعلة والحمالون ومنفذوا ارادة الاجنبي . نشقى ليسعد ونموت ليحيي هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التي اقيمت بين بيوتنا كلها للاجنبي واذا زرتها وجدتها تنقسم الى اقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوبة وفي كل قسم رئيس من الافرنج والكل بعد ذلك مصريون . هذه المباني الشاهقة والقصور الشامخة شيدت كلها بيد المصريين لكنهم كانوا في تشييدها من الاجراء يعملون بمشيئة الاجنبي ولفائدة الاجنبي

ادخل بيت عظيم من عظمائنا او بيت شيخ من علمائنا او بيت راهب من

وهبانا او بيت حقير من اجرائنا ثم اعدد ما فيه من انواع الاثاث والامتعة وانظر الى بنائه وما يتركب منه ووزع كل شيء على صانعه وابحث عن يد المصري فيه لا تجدها الا في قطع الاحجار ورصها وما بقي كله من آنية طعام وموائد واخشاب واطالس وحرائر وبسط وحديد ومقاعد ومصابيح واكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ وكل شيء صنع الاجنبي

ضعاف في التجارة فلا نعرف منها غير ان الرجل منا يشتري الصفقة من المخزن الكبير ويجلس بها في حانوته الصغير حيث يفتحه متأخراً ويقفله قبل المساء ويتحادث مع جاره طول النهار واذا جاءه طالب اجلسه مكانه وبالغ في مؤانسته واكرامه بما ينقضي به الوقت والرجل ما اشترى والتاجر ما استفاد . وهو يحسب من التجار ذوي المكانة والاعتبار مع انه لا يعرف اين تصنع بضاعته ولا من الذي جلبها اليه ولا ثمن مادتها الاولى ولله الآخرة والاولى . لذلك ضرب الاجنبي على ابواب التجارة واحاطها بسور من علمه وهمته فاستأثر بصادراتها واختص بوارداتها وانشأ الشركات توسعاً فيها واستخدم الوطنيين سماسرة لا يكسبون من كدهم الا اليسير

ضعاف في العلم اللهمّ الا علم مداره جهل حقائق الاشياء في الوجود اما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الانسان مع ربه والباقي منه اخرجناه عن معناه الصحيح وحكمنا عليه بالاعدام وشهرنا المشتغلين به حتى امتنا روح التقدم واطفأنا مصابيح العرفان في الاذهان . اين منا المؤرخ والنباتي والطبيب والكيماوي والمهندس والطبيعي والاديب والمنطقي واللغوي وعالم الاخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة وغير هؤلاء . ثم

نحن لا نعدم نفراً منهم ولكنهم قليلون بدليل انه لو كان عندنا منهم عدد يكفينا لما وُجِدَ الاجنبي بيننا على هذه الكثرة التي نشاهدها لانه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح

ضعاف في العزيمة فلا يبدأ الواحد منا في عمل الا وقد ادركه الملل واحاط به الفشل فترك عمله وتقهقر فرحاً بسلامته واذا قام احد منا بمشروع يقتضي المعونة ليت دعوته من كل مكان حتى اذا آن أوان الشروع في العمل هرب كل واحد من ناحية واصبح صاحبه يندب الوقت الذي قد اضاعه فيه بل ربما وجد في نفسه ارتياحاً ايضاً لانه كان قد عرضها لامر يجر اليه ضرًا بل ان تلبية النداء اصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان ففاتت بذلك روح الطلب واستولى الخمول على كل الطبقات وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات

ضعاف في الالفة والمودة فكل يوم ترى الاصحاب اعداء والاصدقاء متنافرين واهل العلم متباغضين متحاسدين

ضعاف في النخوة والشعور الملي والجامعة القومية فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه الزمان وامثاله ينظرون اليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكبته أو آسفين من بعيد بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته والاصاغر يشمتون جهلاً او انتقاماً وما درى العظماء انَّ ذل الواحد منهم ذل لهم اجمعين ولا حسبت الطبقات النازلة ان زوال الطبقات العالية من الامة بمثابة زوال الروح من الجسم لانها سياج الاخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الامة في حياتها وشعورها ولا حياة لقوم لا يشعرون

ضعاف في الخيرات فما اثقل طلب الاحسان على اغنيائنا والموسرين

ضعاف في طلب حقوقنا فالرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

ضعاف في اداء الواجب علينا فكل من اقام في عمل يهرب منه . ان كان رئيساً استعمل الرئاسة في البطالة واتخذها شعاراً لعدم العمل ورمى احماله على مرؤسيه وان كان مرؤساً طفق يندد بالرئيس ويقول كان يجب عليه ان يعمل كذا وكذا ولقد اخطأ في كذا وكذا وعاقبوني لاني قمت بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون

ضعاف في الاعتبار بالحوادث فنحن ننسى كل شيء وقد يكون النسيان حاصلاً في زمن التذكير لذلك نقع في الخطأ بعينه كل يوم

ضعاف في حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس على بيوت دمرت واملاك تفر من ايدي وارثيها فتتلقفها ايد عرفت مكان الضعف منا وتنبأت بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان

ضعاف في التحصيل فالرجل يولد ويتربى ويهرم ويموت وقلما تراه قد حافظ على ما كان في يده والنادر هو الذي يزيد عليه شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى اصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهي التي نطالبها بحفظ حياتنا وخصوبة ارضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا . هي التي نطلب منها ان تربي الابناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة وتنفي اسباب البطالة وتحفظ الاخلاق وتلم شعث العائلات وتجمع اشتات القلوب . هي التي نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا

وسيرتنا ورد هجمات المزاحمين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا . فاذا تأخرنا في عمل من تلك الاعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة واتهمناها بحب الاثرة والقينا عليها تبعة خمولنا كلها

لا ريب اننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل فانما الحكومة وازع لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته وشأن الحكومات في الامم تأييد النظام وحفظ الامن واقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضاً على ما يضمن حرية التجارة ويشجع اهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة وعلى قدر ما تسمح به الممكنات . وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه الا الامر العام مما يدخل تحته جميع الناس ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه

وعلى الامة بعد ذلك ان تستفيد من هذا النظام وتنتهز فرصة الامن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها وتطلب الكمال في زراعتها وصناعتها وتجارتها وفي نشر المعارف واحياء العلوم وفي اداء الواجبات والمحافظة على الحقوق وهذا هو الذي اهملناه حتى اضعناه

تركنا الزراعة في انحطاطها والصناعة في تأخرها والتجارة في كسادها وصار كل الذي نطلبه من التعليم لابنائنا وظيفة في الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش جرياً على سنة الاباء وما درينا ان الزمان يتقلب واحوال المعيشة تتبدل وان وظائف الحكومة اصبحت آخر الحرف كسباً واشدها تقييداً لحرية العمل واقلها مشجعاً على الهمة والاقدام لانحصار مزاياها في ذلك الراتب الزهيد الذي لا يفي في الحقيقة بجميع حاجات الانسان في

حياته بعد ان كانت مصدر الثروة وموضع الراحة والامل ومظهر الابهة والفخار وعنوان الشرف والاعتبار

ولما قفل باب التوظف خصوصاً في وجه المطلة والذين اضاعوا وقتهم في اللهو واللعب ظن الناس كلهم ان ابواب الرزق كلها اقفلت في وجوههم وظهرت في الوجود نشأة جديدة تراها في الغدو والرواح مجتمعة في القهاوي ومنتشرة في الطرقات وهي اعلم الناس بطرق التخريب واسرعهم الى الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ما جمع الآباء . واصبحت الشبيبة اقل استعداداً الى العمل الذي يعود على الامة بالخير وينهض بها الى التقدم والترقي

هكذا انصرفنا عن مصالحنا واضعنا الوقت فيما لا يفيد حتى احدقت بنا المصائب وضاقت علينا ارضنا

مصائبنا جهل بما احتجنا اليه واهمال لما يعول في حياة الامم عليه وتمسك باهداب احلام قد اشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياهبها الا من عقولنا وبرهنت على بطلانها الا في خيالنا فكان من وراء اصرارنا على التعلق بهذا الخيال ان تربع الاجنبي بين ربوعنا وانفرد بمصالح دارنا وصرنا نتردد عليه لنخدمه وهو يتردد في قبولنا لكثرة ما اهملنا انفسنا وقلة ما اهتممنا بصوالحنا وطول غيبة الصواب عنا

بذلك ازددنا ضعفاً على ضعف فاصبحت شؤوننا في ايدٍ غير ايدينا وذهبت اموالنا الى غير اهلينا ممن لا يشفق علينا ولا لوم عليه لانه استفادها بجده من خمولنا واكتسبها بكده مما اضعنا واستخدمنا في منافعه جزاء ما اهملنا منافعنا . ولانه رجل ثقفته العلوم وهذبته التربية الصحيحة فانمت فيه

الادراك واستنارت بصيرته وقويت ارادته واشتدت عزيمته وعلم ان الحياة لا تقوم الا بالمثابرة على العمل والسعي المستمر في طلب الكمال ومن سنن الله في خلقه ان يسود العلم على الجهل وان تعلو القوة على الضعف وان يبدد النور الظلمات . وعلم ذلك الرجل نور انبعثت اشعته ووراء عزيمته تضيء جوانب الجهل فمالت من الغرب الى الشرق وانكشف الستار عن رجلين احدهما عالم مقدام ومدرك همام عزيز الجانب بهمته رفيع الشأن بفطنته والثاني جاهل قد استولى الجبن عليه فاستكان لحكم الزمان وان تحت اثقال الخمول

هذا هو الداء الذي نتألم منه وتلك هي الامراض التي تنهك جسم امتنا وبديهي ان معرفة الدواء صارت سهلة على القراء

دواؤنا التربية وسلامتنا في نشر المعارف والعلوم فعلينا بها بما بقي فينا من الشعور وما ترك لنا من الاختيار في العمل قبل ان يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام . نعم لا انكر ان النداء بوجوب التربية والتعليم يشعر بان المنادي بعيد عنهما ومثل هذا النداء لا يروق للذين تمكنت من قلوبهم الاثرة وحب الذات وصار احب الناس اليهم من يهش لهم ويبش في وجوههم وان كان اقلهم رحمة بهم وحنانا عليهم — وكانا ذاك الرجل — لكن الذي يسعى وراء الحقيقة ويطلب النفع لقومه مضطر الى التخفيف من تلك العزة الباطلة والاقلاع عن حب ذاته وعدم الاسراع الى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطائه ويميز بين ضاره ونافعه

وحب الاثرة هذا هو الذي جعل كتاب حضرة صديقي الفاضل قاسم بك امين (تحرير المرأة) الذي نشره في الشهر الماضي لا يروق في عين بعض

القرآء لانه يدعوهم الى ترك عادة تأصلت في النفوس وعدت من الاعتقادات ونسبت غلطاً الى الشريعة السمحآء وليست منها في شيء من الاشيآء ، مع ان المؤلف جمع في كتابه من شوارد الافكار ورفيع الاقوال ما يعجب به كل محب لخير الامة طالب لنفعها ولكنه برهن على ان علة تأخرنا سوء حال النسآء وعدم تربيتهنّ وتمدي الرجال على حقوقهنّ فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت اليه

ولعل سر تقدم الانكليز السكسونيين لا يسلم من مثل هذا الانتقاد ولكنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى

غرضي من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الافكار الى حالتنا التي نحن فيها ومقارنتها بحالة الامة الفرنساوية لنوقن بعد علمنا بما هي عليه من التقدم والعمران وبما بلغته من الدرجات الرفيعة في العلم والحضارة والعرفان انها اذا احتاجت وهي على تلك الاحوال الى اصلاح شؤونها لتضارع غيرها من الامم فنحن احوج منها الى التعليم واشد افتقاراً الى التربية واعوز الناس الى الاشتغال بما ينفعنا في هذه الحياة . كما اني اقصد الفات الاذهان الى ان الزمان يمر بالاقوال والامة لا تحيي الا بصالح الاعمال وانا اولى الامم بالجد في تحصيل سعادتنا فبقدر التأخر ينبغي شد العزائم وتقوية الهمم وادامة السهر في العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا

كذلك اريد ان تميل الافكار الى اطالة النظر في احوال الامة الانكليزية التي تحتل البلاد والى ان عمال الاحتلال هم قوم من ذلك الجنس الذي الف هذا الكتاب لبيان السر في تقدمه وسيادته في الوجود .

وهم ما داموا في بلادنا يجب علينا ان نقارن بين احوالهم واحوالنا وعاداتهم وعاداتنا ومعارفهم ومعارفنا وهمتهم وهمتنا وحركتهم وحركتنا واقتدارهم واقتدارنا وكفاءتهم وكفاءتنا وحولهم وحولنا وثروتهم وثروتنا . يجب علينا ان نقارن بين هـذا كله وبين ذلك كله لاننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم في جميع امورنا حتى اذا صح نظرنا وعرفنا الامر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيله من غير تبصر وروية اهتدينا الى واجبنا القومي وعلمنا ان كان مجرد القول يجدينا نفعاً وهل الاجدر بنا دوام الاسترسال مع الاماني التي لا مرجع لها من عملنا وكدنا ام اطالة التفكير في الحوادث التي تجري علينا لتميز الصالح لنا من الضار بنا ولنقصد باب النجاة فندخل منه ولا نبتغي عنه من ذلك الخيال بديلاً

غرضي من ترجمة هـذا الكتاب ان يكون مرآة يرى القراء فيها امتين عظيمتين ودولتين فخيمتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت احداهما الاخرى فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر في اسباب تلك الافضلية وقام العقلاء فيها وارباب الاقلام يخبرونها باسباب ضعفها ويرشدونها الى سبل الاصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل اجابت الدعوة شاكرة مرشديها وثارت مذعورة في طلب الكمال والتشبه بجارتها . واخلق بنا ان نتعظ باعظم مثل ونتمثل بعد بيننا وبينه في العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والاقدام ما بين الارض والسماء . ثم نأسف على زمن قضيناه في التمني وننفض عنا غبار الاوهام ونلتمس اصلاح شؤوننا بانفسنا ولا نحجم عن سلوك طريق الكد والعمل فهو الذي فيه الحياة ودونه الموت الصحيح

غرضي من ترجمة هـذا الكتاب لقومي هو غرض المؤلف من نشره على قومه لذلك يجمل بي ان استعير في البيان عبارته حيث يقول .

(ان الحياة ليست لعباً ولهواً وانمـا هي مغالبة دائمة ضد المتاعب والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة في كل آن ولن تنالوا النصر في هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على انفسكم لا على غيركم اذ كل ما يمكن لاهليكم واصـدقائكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم ان يساعدوكم بهِ اقل في الحقيقة بكثير ممـا يمكنكم ان تساعدوا به انفسكم بانفسكم اذا عولتم عليها ولم ترجعوا في اموركم الا اليها)

هذا غاية الحكمة ومنتهى الرأي الصواب فاتبعوه ان كنتم للسعادة طالبين

وانمـا رجل الدنيـا وواحدهـا   من لا يعول في الدنيا على رجل

مصر في اول صفر سنة ١٣١٧ — ١٠ يونية سنة ١٨٩٩   احمد فتحي زغلول بك

مقدمة المؤلّف

للانكليز السكسونيين افضلية لا شك فيها لان كل انسان يشعر بها ويقدرها قدرها ومن اكبر الدلائل عليها ما يجدهُ كل واحد عند ملاقاة الانكليزي من التهيب والحذر والغبطة احياناً

نحن لا نكاد نخطو خطوة في العالم الا وجدنا الانكليزي امامنا ولا نرمي بنظرنا الى املاك قديمة الا رأينا العلم الانكليزي يخفق عليها وقد احتل الانكليزي السكسوني الاماكن التي كانت لنا في امريكا الشمالية من كندا الى لويزيان وفي الهند وفي موريس التي كانت جزيرة فرنساوية قديمة وفي مصر وهو الآن يشرف على امريكا بكندا والولايات المتحدة وعلى افريقيا بمصر ورأس الرجا الصالح وعلى اسيا بالهند وبرمانيا وعلى الاوقيانوس باوستراليا وزيلاندا الجديدة وعلى اوروبا وعلى العالم باجمعه بمتاجرهِ وصنائعهِ وسياستهِ والخريطة التي رسمناها في اول هذا الكتاب تدل بأجلى بيان على ما لهذه الامة من القوة على الانتشار فيخيل انها تريد ان تقوم مقام المملكة الرومانية في سياسة الدنيا

لغير الانكليز من الامم مستعمرات كفرنسا والمانيا وايطاليا واسبانيا الا انها مستعمرات تنحصر منافعها على الخصوص في الموظفين فنرى سلطتها العسكرية ممتدة في تلك الاقاليم ولكنها لا تأهلها ولا تغير من احوالها ولا تعود على الاقامة فيها كما هو شأن الانكليزي السكسوني　وللروسيا والصين

املاك شاسعة الا ان غالبها خراب وقد لا يدخلها التمدن الا بعد زمن طويل . اما الامم الانكليزية السكسونية فانهـا بلغت ذروة التمدن الفعال الذي يترقى على الدوام وينبسط في جميع الارجآء فلا يكاد ذلك الجنس ينزل بمكان مهما كان من الارض الا بدلهُ وادخل فيهِ بسرعة عجيبة اقصى ما وصلت اليهِ الامم الغربية من التقدم والترقي وقد تفوقنا في ذلك غالبـاً تلك الامم الحديثة حتى انها تسمينا بالدنيا القديمة تسمية تشعر باحتقارها لنا ونحن في الواقع نظهر بجانبها من القدمآء . انظر الى ما فعلناهُ في كاليدونيـا الجديدة واملاكنا في الاوقيانوس وانظر الى ما فعلوهُ في اوستراليا وزيلانده الجديدة وقابل بين ما فعلهُ الاسبانيون والبرتغاليون في امريكا الجنوبية وبين ما فعلهُ الانكليزي السكسوني في امريكا الشمالية تجد الليل والنهار

ولنـا على هذه الافضلية دليل قاطع في الاحصائيـات الرسمية التي تنشرها شركة قنال السويس فقد كان عدد المراكب التي مرت في القنـال مدة سنة واحدة كما يأتي :

مراكب فرنساوية ١٦٠

مراكب المانية ٢٦٠

مراكب انجليزية ٢٢٦٣

وعندي انهُ لا يكفي بيان هذه الافضلية والندآء بها على منابر النواب او صفحات الجرائد واظهـار الغيظ مشيرين بقبضة اليـد الى الانكليزي كما تفعلهُ القواعد من النسآء الغضابى بل الواجب ان ننظر الى الامر من حيث ضرورة الاستعداد لهُ كباحث يرتاض الحقائق بتـأن وامعان حتى

يصل الى معرفة اسبابها لان حاجتنا هي في الواقع اكتشاف السر في انتشار تلك الامة وتقدمها في المدنية والعمران لنهتدي بذلك الى معرفة الوسائل التي ادت اليهِ

والغرض من هذا الكتاب هو البحث عن تلك الاسباب لاني ارى ان حياتنا ومستقبل ابنائنا متوقفان عليهِ

مقدمة الطبعة الثانية

قول

﴿ فيما يدّعي من افضلية الالمانيين ﴾

ابدأُ بشكر الصحافة والقراء على حسن قبولهم هذا الكتاب الذي انتهت الطبعة الاولى منه في بضعة ايام وغرضي في هذه الطبعة الجديدة ان اجيب مقدماً على اعتراض عساهُ يخطر بالبال وهو من المعلوم ان التجارة الالمانية عظمت منذ خمس عشرة سنة حتى احجمت امامها التجارة الفرنساوية في جميع الجهات واضاعت جميع المراكز التي كانت تشغلها واحداً فواحداً وقد يخطر ببال المتأمل في هذا التقدم التجاري انهُ ربما يخشى منه ايضاً على تقدم الامم الانكليزية السكسونية في التجارة

ويكفي للاجابة على ذلك ان نوضح الفرق بين الاسباب التي توجب قوة الانكليز السكسونيين وكنه هذه القوة وبين علة قوة الالمانيين . واني

اقتصر هنا على بيان مقدمات هذه المسئلة وتوضيح عناصرها واشير على كثير من الشبان الذين حضروا درسنا في العلم الاجتماعي ان يتوجهوا في هذا الصيف الى المانيا ليشاهدوا حالة تلك البلاد بانفسهم

تكثر الجبال في القسم الجنوبي من المانيا كما تكثر الرمال والمستنقعات والجدب في الشمال ولذلك كان اهلها على الدوام من الفقراء المتعودين على التدبير في حاجاتهم والبساطة في معيشتهم والاكتفاء بالاجر القليل ففضيلة البساطة المشهورة عن الالمانيين هي فضيلة الجأتهم اليها طبيعة بلادهم وذلك مما يضعف من شأنها ولقلة اجور الفعلة وقلة حاجات تلك الامة انحصرت المصنوعات الالمانية بحكم الطبيعة دائماً في الاشياء المستعملة عند العموم ذات القيمة الزهيدة وهي حالة تستلزم في الحقيقة تأخر امتها الا انها صارت الآن مزية عند الالمانيين لسبب خارجي على انها لن تدوم ابداً . وبيانهُ ان اتساع نطاق وسائل النقل سهل الوصول الى البلاد الجديدة او المتأخرة في التمدن ومكن من الاختلاط بالامم البسيطة او الهمجية فكثر عدد الذين يشترون البضائع العادية الرخيصة ووجدت الامة الالمانية سوقاً جديدة لبيع سلعها واستفادت من ذلك على قدر اموال تجارها واقتدارهم في الصناعة والبيع والشراء ولكنها فائدة صغيرة لقلة راس مال كل تاجر على حدتهِ وضعفهِ منفرداً . وطلباً للزيادة مال التجار الى عقد الشركات فجاءت لهم عوناً على نشر متاجرهم وتوسيع نطاقها وتوفر المال لديهم فاقاموا الاسواق الكبيرة لعرض متاجرهم ومعرفة الانواع التي يكثر الطلب فيها

وهذا عمل نستفيد منهُ علماً لدلالتهِ على ان الشركات تسد جزءا

عظيماً من النقص الذي ينشأ عن طبيعة الاماكن والعمل والتربية التي تزيد في الشخص قوة الميل الى الاشتراك اكثر مما تهيئهُ الى العمل بنفسه كما سنبينهُ في هذا الكتاب . الا ان الشركات لا تزيل النقص وان خففتهُ ولذلك فهي لا تفيد الالمانيين الا من حيث تسهيل العمل دون ان تحدث فيهم ما احتاج اليهِ كل فرد من القدرة الشخصية التي تمكنهُ من التقدم في الصناعة والتجارة بنفسهِ ولنا على ذلك ما جآء في رسالة نشرت حديثاً في المانيا عن تجارة تلك الامة في بلاد الترنسفال وبعث سفيرنا المركيز دي نواي بنسخة منها الى وزير التجارة مما يدل على تأخر التاجر الالماني منفرداً عن التاجر الانكليزي السكسوني كذلك . قال كاتب الرسالة (يحتاج التاجر الالماني الى مساعدة حكومتهِ والا احاط بهِ الفشل كما اصابهُ في منافستهِ مع الانكليزي اولاً فالالماني يخرج الى العمل برأس مال صغير ثم هو على ما بهِ من الاقدام قليل الصبر غالباً (ولعلهُ قال قليل الوسائل لان الالماني صبور (فلا ينتظر النجاح بل تنحل عزيمته اذا خاب مرة في مساعيهِ اما الانكليزي فانهُ يعلم ان النجاح معقود باطراف المثابرة (ولديهِ من الوسائل ما يساعدهُ على الانتظار (وفي الالمانيين عيب خاص يحبط مساعيهم غالباً في (الترنسفال) وهو جهلهم بحركة الاسواق فياتون ببضائع لا طلب لها يضاف الى ذلك عدم اعتنائهم بربط المتاجر وتغليفها (وهذا يدلك على مقدار تمكنهم في علم الاقتصاد المشهور عنهم قديماً (وجهلهم بطارق التسفير وعدم التفاتهم الى اختلاط الاجناس في اسواق تلك البلاد . ومن اسباب عدم نجاح التجارة الالمانية اختيار العمال ممن لا خبرة لهم بالتجارة وحاجات البلاد

التي يسلون فيها ثم عدم اطلاق صراحهم في العمل كما ينبغي)

ويعلم القارئ من اقوال صاحب الرسالة وهو الماني ان الالمانيين وان توصلوا بالشركات الى توسيع نطاق تجارتهم حتى خيل انهم يهددون تلك القوة العظيمة التي امتاز بها الانكليز في التجارة والصناعة لا يتيسر لهم ان يلحقوا ضرراً صحيحاً بهؤلاء

ذلك لأن طريقة الانكليزي السكسوني في التجارة والصناعة تختلف عن طريقة نظيره . فالانكليز السكسونيون انما استولوا على الاسواق في الدنيا بانفسهم وجدهم الشخصي من غير مشاركة غيرهم لهم في العمل ولا مساعدة الحكومة وبالجملة فانهم توصلوا الى ذلك بواسطة احوالهم الاجتماعية التي الفنا هذا الكتاب في بيانها . وبديهي ان افضلية الرجل الذي يأتي بنفسهِ من الاعمال ما لم يأتهِ غيرهُ مع الاستعانة فيهِ الا ناقصاً لا تحتمل الشك ولا تحتاج الى الدليل وهذا هو حال الانكليز السكسونيين بالنظر الى غيرهم ومهما اجتهد الالمانيون وبالغوا في نشر متاجرهم في اسواق الدنيا فانهم لن يسبقوهم بل تبقى لهم تلك الافضلية لان الفضل الذاتي اثبت قدماً من الفضل المكتسب وكل انكليزي تاجر كبير بنفسهِ وصانع عظيم بعملهِ فلا خوف عليهم من صناع لا قوة لهم الا مجتمعين ومن تجار لا حول لهم الا مشتركين

ثم انهُ يجب على التجار ان ينوعوا تجارتهم وعلى الصناع ان يتفننوا في صناعتهم حتى تكون المتاجر والمصنوعات موافقة لرغائب الناس وطلبات الشرائين بحسب الزمان والمكان في كل آن ومعلوم انهُ يصعب على الشركات

التجارية والصناعية مهما قوي نظامها ان تتكيف بحسب الظروف لما يوجد بينها وبين بعضها عادة من تخالف المنافع وحصول المنافسة فالخلف لازم لطبيعة الشركات وهو السببُ في اختلالها وهنا يثبت ان العمل قد يخالف المعقول وان كان سديداً

ان الشركات الصناعية لا يمكنها ان تقاوم هذه البيوتات الانكليزية السكسونية لاجتماع ازمتها في قبضة رجل واحد او رهط من الرجال متحدين في المنافع ذي راس مال طائل ولهم من الدراية ما يفوق الوصف مما هو طبيعي في تلك الامة التي يسهل عليها ان تدور مع احوال التجارة كلما رأت ان الكسب قد وقف لتتجه في طريق جديد . وبرهانهُ انهُ لما احس الانكليز بغارة التجارة الالمانية صاحت جرائدهم باصوات التحذير كما هو الواجب على كل حارس اشد تيقظاً من حراسنا وذلك يدل على شدة حذرهم وقوة التفاتهم لما عساهُ يهدد ولو من بعيد افضليتهم العظيمة في التجارة والصناعة . ولقد اخطأْنا في فهمنا ان ذلك الصوت نذير الدمار صاحوا بهِ لكي ينجو من يتمكن من النجاة ولا يجوز ان يجول هذا بخيالنا لان الفرق بين مائتين وستين مركباً المانية تمر في السنة بقنال السويس وبين الفين ومائتين واثنتين وستين مركباً انكليزية لا يخفى على من تأمل

على ان الصناعة الالمانية لم تتقدم في الاسواق على الصناعة الانكليزية كما قدمنا الا في السلع الاعتيادية ذات الثمن الزهيد ولما راى الانكليزي انهُ لا يمكنهُ صنع مثلها بمثل ثمنها في بلاده حيث الاجور مرتفعة حول نظره الى صنعها في بلاد اخرى تقل فيها حاجات الاهالي فاتخذ في تلك البلاد

بيوتاً تجارية ولا يخفى ما للانكليز من سهولة التوطن في البلاد الاجنبية وانّي اودّ ان يرتاح ضميري فتلين تجارة فرنسا وصناعتها كما لان الانكليز فيهما ويفضل الانكليزي الالماني بامرين مهمين لابد ان يتغلبا في المستقبل

الاول ان الالمانيين على العموم ما عدا سكان (هنفر ووستفالي) الذين يلحقون بجنس الانكليز السكسونيين قليلو الهمة في الزراعة فهم حضريون يفضلون الهجرة للتجارة عنها للاستعمار والزراعة فلا يتأصل نوعهم في البلاد كما يفعل الانكليزي السكسوني . ومن هنا جآء انهم كلما التقوا به يبتلعهم . هكذا يصير المهاجرون من الالمان في امريكا الشمالية سكسونيين بسرعة عجيبة فلا يتكلم الجيل الثاني منهم الا الانكليزية ويصبحون انكليزيين في عاداتهم وطباعهم حتى انهم يتعجلون في هذا التحول فيختارون من الاسمآء ما يوافق اسمآء الانكليز . وهذا هو السبب في ان الجرائد التي تصدر بالالمانية لا تثبت قدمها في الولايات المتحدة الا قليلاً لان قرآءها ينحصرون في المهاجرين الوافدين قريباً من البلاد الالمانية . وبينما طلاب المصنوعات الانكليزية يكثرون لزيادة عدد المستعمرين منهم في جميع انحآء المسكونة وانتشار جنسهم في الاصقاع كلها يقل عدد طالبي المصنوعات الالمانية لتحول الالمانيين عن الزراعة واستحالتهم الى انكليز سكسونيين طوعاً لما في هؤلآء من شدة المقاومة وقوة التغلب

وثانيهما شكل الحكومة التي وجدت في البلاد الالمانية عقب قيام الامبراطورية لانا ذكرنا فيما سبق كيف ان المانيا القديمة توصلت على فقرها بعملها واقتصادها الى بث روح الانتشار الصناعي والتجاري في هذه الازمان

وقلنا ان ذلك راجع الى ما فطرت عليه تلك الامة من المزايا الحقيقية التي بقيت كامنة فيها الى ان ساعدت الظروف على نموها نموًّا فجائيًّا وتلك الظروف هي اتساع نطاق وسائل النقل وتسهيل طرق المواصلات . فتقدم الامة الجرمانية في عصرنا هذا ناتج عن المانيا القديمة اما الامبراطورية الالمانية الجديدة فانها لا تنتج غير انتشار الجندية والادارة ومذاهب الاشتراكيين كما هو مشاهد الآن ما دامت على نظامها الحالي . ولا يخفى ان تلك النتائج لا تقترن بسعادة الامم التي توجد فيها وثروتها . الا ترى انهُ لم يكن عندنا ايام لويز الرابع عشر ونابليون غير الداءين الأَوَّلين ولقد ذهبا بنا الى اسوإِ الاحوال . وكذلك كان شأن البلاد الاندلسية ايام الملك شارلكان وفيليب الثاني

ومن لوازم تلك النظامات في اول الامر انها تمثل الامة بمظهر القوة السياسية والاجتماعية لانها تجمع بسرعة جميع العناصر الحية التي تكوَّنت شيئاً فشيئاً تحت ظل النظامات السابقة في قبضة رجل واحد . وذلك هو الزمن المجيد الذي كان للبروسيا اخيراً كما كانت عليهِ الاندلس وبلادنا في الازمان الغابرة . غير ان اجتماع قوى الامة الحية في يد واحدة يؤدي مع الزمن الى ضعفها كلها وتعطيل منفعتها فتنحل وتصير عقيمة وحينئذٍ يستولي الدمار والانحطاط على الامة . واذا استمرت الامبراطورية الالمانية في الطريق التي وصلت منها (والظاهر انها تستمر) فانها لا تنجو من نتائجها وعلى الالمانيين ان يعجلوا الاستفادة من فضائلهم الاولى فينشروا تجارتهم ويكفوا عن ملامنا على تأخرنا فانما نحن السابقون وهم بنا لاحقون . والخلاصة ان

الامة الانكليزية السكسونية تعظم وتتقدم بما لافرادها من الاعمال المفيدة المتجددة على الدوام وبما لها من حكومة نفسها بنفسها والامة الالمانية القديمة تفقد كل يوم فضائلها الاولى التي كانت اساس قوتها الاجتماعية ولا تزال تمدها الى الآن وسببه الافراط في السلطة السياسية . وقد توخيت تمييز المانيا القديمة من المانيا الجديدة في هذه المقدمة لان كلامي في الفصل الثاني من هذا الكتاب راجع كله الى هذه الاخيرة واريد ان لا يلتبس الامر على القرآء . وسنبين في هذا الفصل كيف يسعى امبراطور المانيا كما اعترف هو بنفسه الى اعدام المانيا القديمة وايجاد المانيا الجديدة بواسطة تنظيم التعليم على مثال الامة البروسيانية

الباب الأوّل

﴿ الفرنساويون والانجليز السكسونيون في المدرسة ﴾

يظهر الفرق بين انجلترا والامم الغربية الاخرى منذ عهد المدرسة وهو فرق كبير اذا عرفناهُ سهلت علينا معرفة السبب في افضلية الانجليز السكسونيين

كل امة تنظم التربية حسب طبيعتها وعلى مقتضى اخلاقها وعوائدها ثم التربية نفسها تؤثر على الهيئة الاجتماعية وسيقف القارئ على بيان ذلك بما نقدمهُ لهُ من الشرح على التربية في فرنسا والمانيا وانجلترا وبعد ذلك

تخصص مطلباً رابعاً نبين فيه تغير الاحوال في هذه الايام ونأتي على ذكر الطريقة التي يجب ان نتبعها في تربية ابنائنا حتى يكونوا على درجة من الاستعداد تناسب الازمان الحاضرة التي اصبحت تخالف الازمان القديمة من جميع الوجوه

الفصل الأوّل

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنساوية يربي رجالاً ﴾

اذا سألت مائة شاب فرنساوي عقب خروجهم من المدرسة اي صنعة يريدون ان يشتغلوا بها اجابك ثلاثة ارباعهم انهم يتطلعون الى التوظف في الحكومة . فاغلبهم يطمع في الانتظام في الجندية او القضاء او النظارات او المديريات او المالية او السفارات او المصالح الاخرى كمصلحة القناطر والجسور والمعادن والدخان والمياه والغابات والمعارف والمكاتب العمومية ودور المحفوظات وغيرها . ولا يميل الى الصنائع الحرة في العادة منهم الا الذين لم يتمكنوا من الالتحاق باحدى المصالح الاميرية

ولما كانت الوظائف في الحكومة معدودة عمدت الى طريقة الاختيار بقدر ما لديها من الوظائف الخالية . وطرق الاختيار ثلاثة الامتحان والوسائط ومراعاة الانساب والاحساب الا ان الوسائط والانساب لا يعوّل عليهما الا نادراً والامتحان هو القاعدة العمومية : لذلك اصبح النجاح فيه الشغل

الشاغل لجميع شباننا فان مستقبلهم متوقف عليه وانحصر فكر العائلات في ايجاد الوسائل التي تمكن ابنآءها من هذا النجاح وهكذا تولدت في اذهان الفرنساويين اهمية المدارس لانها الواسطة الوحيدة التي توصل الى تلك المطامع وتجعل للانسان مركزاً في امتهِ وعني القانون بامرها الى جعل نظامها بحيث يساعد على هذا النجاح وهم معذورون لان اهالي التلامذة لا تعتبرها الا بقدر من ينجح من طلبتها في الامتحانات السنوية . والمدرسة التي يقل عدد الناجحين من متخرجيها تنحط درجتها ويهجرها التلامذة حتى صار الفوز في الامتحان علة حياة المدارس الفرنساوية

ولاسبيل الى تهيئة الطلبة للامتحان الّا بانهاك قوى المتعلم حتى يتحصل في زمن يسير على تعليم سطحي يتناول جميع العلوم المطلوبة في الامتحان

فاما قلة الزمن فلسببين . الاول ملاحظة السن المقرر قانوناً للدخول في بعض الوظائف وقد لاحظت الحكومة في تحديده تقليل عدد الطلاب الذي يزداد كل يوم وجعل الامتحان صعباً . والسبب الثاني تعجل الشبان على التوظف لكي يترقوا سريعاً قبل وصولهم السن المحدد للتقاعد

ولا شك في ان التسرع في الزمن والاكثار من المواد يجعلان التعليم سطحياً اذ كلما زاد عدد المتعلمين كثرت العلوم الواجب تعلمها وزادت صعوبة الامتحان ولم يعد في امكان الطالب مهما بلغ من العقل والذكآء ان يتقن تلقي تلك العلوم كلها واصبح يكتفي منها بتصفح اوراقها . ولو ان المعلمين انفسهم تقدموا الى الامتحان مع طلبتهم لعجزوا عن الاجابة على كثير من المسائل وخيف عليهم من الخذلان . ولوكان الغرض من هذه الطريقة ايداع

المعلومات الحقيقية في اذهان التلامذة وتربية ملكاتهم العقلية لرسخت التعاليم عندهم غير انه لا نتيجة لها ولا يقصد بها الا تشحيذ الذاكرة . لذلك قلنا ان التعليم لا يدوم الا قليلاً فلا يكاد التلميذ يجتاز الامتحان الا وقد ادركه النسيان . والناس لا يرون في هذا ضرراً لحصول الغرض المقصود اذ يكفي ان يكون الطالب مستعداً لجواز الامتحان فان وفاه حقه صار كل مرغوب بعده من الكماليات . فبه يحصل التوظف وهو منتهى الآمال : وعلى هذا يتبين لك ان الامتحان اصبح السبب الوحيد في تكليف التلامذة ما لا يطيقون. ومن اجله ايضاً وجد نظام انقطاع الابناء عن اهليهم وسكناهم بالمدارس ليلاً ونهاراً وهو النظام المعروف عندهم (بالداخلية)

وقد احتاجوا الى ذلك لاعتماد الفرنساويين في تربية ابنائهم على المدرسة توصلاً الى النجاح في الامتحان حتى ينالوا وظيفة في الحكومة . وصعوبة الامتحان على ما قدمنا تقتضي طرقاً مخصوصة في التعليم ووسائل تجهلها العائلات وان لم تجهلها فانهُ لا يتيسر لها استعمالها ولا ان تراقب العمل بها ومن جهة ثانية فانهم يخافون ان يضيع الوقت ويخشون من اشتغال ابنائهم بما يلهيهم عن الغرض المقصود ان لم يبيتوا في المدارس

ومما لا شك فيهِ ان هذا النظام ملائم لذلك الغرض كما ينبغي اي انهُ يهيئ الطلبة الى الوظائف الملكية والعسكرية . وبيانهُ ان الموظف الحقيقي هو الذي يجب عليهِ ان يتنازل عن ارادتهِ ولهذا وجب ان يتربى على الطاعة ليسهل عليهِ تنفيذ اوامر رؤسائه من غير مناقشة ولا نظر فيها لان المطلوب منهُ ان يكون آلة في يد غيره. والداخلية من اعظم البواعث على هذه التربية

لان المدرسة نظمت على نسق ثكنة عسكرية يقوم الطلبة فيها من نومهم على صوت البوق او رنة الجرس وينتقلون مصطفين بالنظام من عمل الى آخر ورياضتهم تشبه الاستعراض العسكري فهم لا يخرجون من الدرس الا في رحبات داخل البناء عالية الاسوار ويمشون فيها جماعات جماعات كانهم لا يلعبون . وليس لهم من الزمن ما يستريحون فيهِ من عناء الدرس والمطالعة . فلهم نصف ساعة في الصباح وساعة بعد طعام الظهر ونصف ساعة بعد العصر ومعدل خروجهم من المدرسة يوم واحد في الشهر ولا يتيسر للعائلات زيارة ابنائهم اكثر من مرتين في الاسبوع مدة ساعة على الاكثر في مكان مخصوص مزدحم بالموجودين بحيث يسمع بعضهم بعضاً . ومن الواضح ان هذا النظام يضعف في الشاب قوة العمل الاختياري ويوهن الهمة والاقدام كما ان من شأنهِ ايضاً ازالة ما قد يوجد بين الطلبة من تفاوت الانساب لان الدائرة التي تدور على الجميع واحدة فتجعلهم في الحقيقة آلات ممدة للعمل الذي يقصد منها . ومما يزيد في سهولة انقيادهم وحسن طاعتهم كون النظام الذي تربوا عليه لا يؤدي الى تربية الفكر والتعقل بل الطالب يتناول مسرعاً كثيراً من المواد سوآء احكم تعلمها ام لا ولا تشتغل من ملكاتهِ الا الذاكرة . فكما انه يتلقى التعليم من دون نظر فيهِ تراه ينحني من غير تردد امام الاوامر التي تصدر لهُ من رؤسائهِ في المصالح التي يوظف فيها . ولا غرابة في هذا فان مصدر ذلك التعليم وتلك الاوامر واحد في الحقيقة وهو الحكومة . وكاني بهم يقولون لهُ : ايها التلميذ ان الحكومة قد علمتك مبادئها فصرت اليوم موظفاً تتلقى اوامرها . ومرجع الصفتين واحد

كما ترى

واول من التفت الى جعل المدارس اماكن لتربية الموظفين نابوليون الاول . ففي القرن السابع عشر والثامن عشر كانت (الداخلية) نادرة ولم تعمم الا ايام الامبراطورية الاولى . فلما اسس نابوليون الاول مدارس الحكومة جعلها قاعدة عمومية لانهُ ما كان يتيسر لهُ ان يدير السلطة الكلية التي جمعها في يده الا بكثرة عدد الموظفين ووجب من ذلك الحين على الحكومة ان تلاحظ تربية الشبان الذين تضطر الى استخدامهم فمالت بالطبع الى تقرير المبادئ التي توافق مصلحتها وتعويد الطلبة عليها قبل نموّ الادراك الحقيقي فيهم حتى تتوصل بذلك الى الغرض المقصود وهو اضعاف همتهم وتعويدهم على الطاعة والاشتراك في الاحساسات والتجانس في الافكار وبالجملة فانهم ينشأون على ما من شأنهِ محو الانانية في الانسان . وقد سرت الحكومات التي جآءت بعد الامبراطورية الاولى على اختلاف اشكالها في ذلك المنهج وهو الذي تبنى عليهِ اليوم سياسة البلاد فلم ينقص عدد الموظفين ولم يضعف جمع السلطة في اليد العليا بل زاد ذلك من اول هذا القرن ونشأ عنه اتساع نطاق التعليم السطحي كما انتشر نظام الداخلية في المدارس

ذلك هو النظام الذي يتربى عليهِ السواد الاعظم من الفرنساويين رجآء الفوز في الامتحان الذي يفتح لهم باب الوظائف في الحكومة . غير ان نجاحهم ليس على قدر املهم فكلهم آمل وليس الكل موظفين . ويصبح الذين سدت ابواب الحكومة في وجوههم مضطرين الى طلب

العيش من باب آخر . وهنا يجب النظر فيما اذا كان نظام المدارس الحالي وافياً بالغرض المقصود من تربية الرجال على مبادي الارتزاق من غير الحكومة ام لا كما انهُ صار وافياً بتربية الموظفين . وهذه مسئلة كبرى ينبغي الالتفات اليها

ومن المعلوم انهُ لا يتيسر للانسان ان يحصل معيشتهُ الا اذا كان ذا ارادة وهمة وكان متعوداً على الاعتماد على نفسهِ . والنظام الذي شرحناهُ لا يساعد على تربية هذه الملكات بل انهُ يضعفها ويميتها ويعوّد العقل على انتظار المراكز المجهزة من قبل حيث لا يكلفهُ التقدم فيها الا ان يكون صبوراً لا ان يكون صاحب عمل اذ الترقي في الجيش وفي مصالح الحكومة انما يحصل بالاقدمية والاستصناع وكل الذي يجب على الطالب ان يعملهُ هو الدخول في الخدمة . ومتى استقر في وظيفتهِ يترك نفسه فينتقل بحكم العادة من وظيفة الى اخرى . ومن كان هذا شأنهُ قل ان يكون شجاع النفس ذا قلب يميل الى التعب حباً في الحياة . وينبغي ايضاً لمن يطلب الرزق بنفسهِ ان يكون شاباً لان الشبوبية تسهل للانسان اجتياز العقبات التي تصادفهُ بالطبع في بداية العمل أيّاً كان . ثم هي لازمة على كل حال لمن يريد ان يتعلم صنعة من الصنائع . وطالب التوظف في الحكومة مضطر الى البقاء بغير كسب حتى يبلغ الحادية والعشرين او الخامسة والعشرين وربما كانت الثلاثين واكثر منها . فاذا ضاع امله في الاستخدام امسى وقد سدت امامه ابواب حرف كثيرة ولات حين اعتناقها لفقد وسائلها . ثم الحِرَف في الغالب صعبة المنال قليلة النفع في اوائلها . ولا ننسَ ان الطمع يشتدّ في الانسان كلما

تقدم في العمر . وكلما زاد الطمع صعب نوال المطلوب . وهكذا يفوت الوقت وتتعاقب الاعوام وتزداد الصعوبات والمرء واقف بين الاقدام والاحجام

وليست الشبوبية بكافية وحدها بل لا بد معها من ان يكون في الشاب استمداد وميل للصناعة التي يطلبها وان يكون على معلومات تليق بها اذ لا يصير المرء من ارباب الزراعة او الصناعة او التجارة دفعة واحدة بل كلها اعمال تقتضي التدرب ولا تنال الا بالعمل واقتفاء اثر الآباء والاجداد

ونظام مدارسنا لا يهيئ الى مثل تلك الاعمال بل انهُ يبعد المتعلمين عنها لانهُ يغرس فيهم الاعتقاد بافضلية الوظائف في الحكومة . وكثير ممن لا حياة لهم الا بالزراعة او الصناعة او التجارة يندهشون عند ما يسمون ابناءهم يوم يخرجون من المدرسة يقولون انا لا نريد ان نحذو حذو آبائنا . وما للدهشة موجب فان المدرسة قد بغّضت اليهم صنائع آبائهم حتى صار الناس لا يلومون الشبان على فرارهم من المهن والصنائع الجارية مع كونها اشرف الاعمال وانفعها . ومن يرجعون منهم اليها بعد خذلانهم في الامتحان لا يعملون فيها الاعن قهر واضطرار على غير استمداد ولا ميل . فهم يدخلونها وشروط النجاح غير متوفرة لديهم

ومع ما تقدم فان نظام المدارس عندنا يهيئ المتخرجين منها الى عملين آخرين غير التوظف في الحكومة وهما الاستخدام في المصالح الحرة واعتناق الحرف الادبية . فاما كونهُ يهيئ الى الاستخدام في المصالح الحرة فظاهر لما بين مصالح الحكومة والمصالح الحرة من الشبه فان هذه لا تطلب من مستخدميها استقلالاً في العمل ولا قوة في الارادة ولا اجتهاداً اكثر من

تلك . وهي مثلها في ضمان المعيشة . والتقدم فيها محقق بطبيعة نظامها وان كان بطيئاً . فمن لم ينجح في الامتحان يركض نحو تلك المصالح حتى كثر عدد الطلاب وتعذر عليها ان تستخدمهم جميعاً . وكذلك كثر الميل الى الاحتراف بالحرف الادبية لان نظام المدارس من شأنه ان يوجد عند الطلبة معلومات عامة لكثرة عدد المواد التي يدرسونها فيخرج الطالب منها وهو على اعتقاد تام بانهُ عالم بكل شيء لانهُ مرَّ على كل شيء وفي وسعهِ ان يتكلم عنهُ او يكتب فيهِ فيصير رجلاً اديباً من اي صنف كان . على انهُ مضطر للالتجاء الى تلك الحرفة فان المدرسة لم تحسن تربيتهُ او انها جعلتهُ غير صالح لان يكون ذا صنعة مستقلة غيرها . ومما هو مشاهد للعيان ان نظام التعليم عندنا يربي اذهان الذين يحترفون بتلك المهنة على كيفية مخصوصة وهي ضعفهم في البحث فلا يكاد الواحد منهم يجيد النظر في مسئلة الا قليلاً . لكنهم من ذوي الاقتدار التام في التخيلات والحكم بالاستقراء الناقص مما يقرب الى الخطإ اكثر منهُ الى الصواب . ومن احسن ما يستدل بهِ على ذلك مطالعة (جريدة المطبوعات) التي تنشر كل يوم ما يؤلف من الكتب الادبية في فرنسا اذ يتبين ان المؤلفات التي تقتضي وقتاً وعناءً تقل يوماً فيوماً . والذي يؤلف منها هو في الغالب نقل من كتب متعددة على شكل كتب دائرة العلوم لا مؤلفات شخصية وضعها صاحبها بعد اطالة الفكر وامعان النظر . بل تلك رسائل مطولة سهلة التناول . والغرض منها جمع عدة مسائل بكيفية تسهل الوقوف عليها ولم يعد يوجد في فرنسا من مؤلفي الكتب الشخصية وقرائها الا عدد يسير . ومن هنا جاء ان ملتزمي طبع الكتب يحجمون عن

طلبها اذا زادت عن مجلد واحد او ما يقرب منهُ . وليلاحظ ان هذا الضعف وعدم القدرة على درس المسائل كما ينبغي ليس ناشئاً من طبيعة الامة الفرنساوية بدليل الفرق بين مؤلفات القرنين السابقين واول القرن الحالي وبين المؤلفات التي ظهرت منذ اربعين سنة . بل مرجع هذا الضعف صيرورة التعليم سطحياً في المدارس لعلة الامتحان . ومتى تعوَّد الفكر على الاخذ بظواهر الاشيآء . وان لا يطالع الانسان الا في كتب صغيرة . وان يكون سريع الفهم لا قويم الحكم . وان يكثر من الاحاطة بعدد كبير من المسائل في اقرب وقت تشبهاً بواضعيها من غير تأمل استحال عليهِ ان يجيد البحث لصيرورتهِ غير قادر عليهِ . ويزداد هذا الضعف بمقدار زمن ذلك التعليم السطحي . واشدهُ عند طلبة المدارس العالية فهم يفضلون غيرهم بقوة الذاكرة وسرعة الخاطر وسهولة فهم المراد وهي الملكات التي عني بتربيتها فيهم وكانت سبباً لنجاحهم في الامتحان . الا ان عجزهم يظهر اذا طلب منهم ان يعملوا عملاً من وظائف تلك الملكات التي ارتفعت صورةً وانحطت حقيقةً والخلاصة ان وظيفة المدارس عندنا في هذه الايام قد انحصرت في تربية الموظفين ولم تعد صالحة لغيرها وبعدت الشقة بينها وبين ما يجب لتربية رجال حقيقيين

الفصل الثاني

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الالمانية يربي رجالاً ﴾

من نكد الطالع انهُ لا يدوم لنا موضع رجاء . كانما روح خبيثة سلطت على كل عمل نرجو الفلاح منه . وقد حان الحين على المدارس

مضى علينا زمن لم ندخر ثميناً الا بذلناهُ في سبيلها حتى بلغ اعتناؤنا بها درجة العبادة . والسبب في هذا الاهتمام انهُ لما انتصر علينا الالمانيون ظننا ان علة انتصارهم تقدم مدارسهم فاكثرنا من مواد التعليم وزدنا عدد المدارس وبذلنا النفيس حتى اصبحت اماكن التعليم قصوراً عالية وعم الاهتمام جميع افراد الامة . ثم صيرنا التعليم مجاناً ثم اجبارياً على جميع الناس ، فدخل المدرسة ابن الفلاح وابن الحضري ومقتنا كل من ارتاب في نفعها . وكانت الافكار متجهة الى تقليد الالمانيين في كل شيء فاخذنا عنهم نظامهم العسكري وجاريناهم في اساليب التعليم وطرق التربية وعلم اصول اللغات الذي اشتهروا فيه بتعمقهم وسفسطتهم اعتقاداً منا بانهُ لا تقوم لنا قائمة الا اذا تعلم اطفالنا متون اللغة اللاتينية . هكذا كان رأي المدرسين وفي اثرهم جميع الفرنساويين

ولم يمضِ زمن طويل حتى انقلب هذا الاعتقاد وقال اهلوهُ انهم كانوا في رأيهم مخطئين واجمعوا في البلدين على عدم فائدته كما كانوا على استحسانهِ من قبل مجمعين

أما عندنا فبدأ المتأملون يهمسون برأيهم فلما وضح الامر جهروا بان

المدارس لم تأتِ بالفائدة التي كانت تنتظر منها . وان الاكثار من موادالتعليم قد اوجب ضعف المعلومات . وان عدد الناجحين في الامتحان يميل كل يوم الى النقصان . واستشهدوا بالوقائع والارقام . وقال المتطرفون ان توسيع نطاق المدارس كان سبباً في كثرة من لا صناعة لهم ومن لا قدرة فيهم على العمل . وان في ذلك خطراً عظيماً . وصدرت هذه الاقوال في مبدإِ الامر عن قوم لا علاقة لهم بجماعة المعلمين ورجال الحكومة فلم يلتفت احد اليها وظنها الناس تحاملاً على المعلمين . وما كان الا قليل حتى قام رجال التعليم في فرنسا ومنهم الرؤساء العظام كوزراء المعارف ورفعوا اصواتهم بتلك الشكوى وصاح بعضهم في صحن مدرسة السربون[1] انهُ لا بد من ادخال الاصلاح على نظام التعليم . وان الحال يقتضي التعجيل بلا مهل . ولولا ان الالمانيين كانوا يضجون في برلين عاصمة بلادهم بمثل هذه الشكوى لظن الناس ان صراخنا من قبيل ما عرفنا بهِ من حب التغيير وسرعة الانتقال بين حدي التفريط والافراط . وناهيك بان صاحب الشكوى الالمانية هو الامبراطورنفسه . وكانت النتيجة ان اتفق البلدان على الجهر بان نظام المدرسة لم يأتِ بما كان ينتظر منهُ بعد ان كانا يطنطنان بانهُ لا فضل فوق فضله

ولافادة القرآء نذكر لهم خطاب امبراطور المانيا[2] ليعرفوا السبب في شكواه ويقفوا على الذي يريدهُ من المدارس في بلاده وطريقة التعليم التي يميل اليها ويتبينوا ان كان في الامكان تحقيق امانيه

---

١ هي اكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم　٢ هو خطاب القاهُ الامبراطور غليوم الثاني على جمعية المعارف الالمانية منذ سنتين

خص الامبراطور القسم الأول من خطابهِ بشرح هذه الجملة (ان المدارس لم تعطنا ما كنا نرجوه منها) ومن رأيهِ ان المدرسة لم تنجح في التعليم نفسه اي في ايجاد المعارف في الاذهان . قال (ما كنت في احتياج لاصدار الامر الذي تفضل حضرة الوزير بذكرهِ لولا ان المدارس لم تصل الى الدرجة اللائقة بها . وليعلم عني اني ما قصدت بالشدة واحداً من الناس . ولكن فكري موجه الى نظام التعليم نفسه واقول ان المدرسة لم تأتِ بما كنا ننتظره منها. وسببهُ الخطأ في امور كثيرة) ثم اخذ يندد بالتعليم وبالمواد التي يجري فيها والطريقة المتبعة وبدأ بفن تعلم اللغات الذي كانوا يبنون عليهِ آمالا كبيرة معتقدين انهُ سيصير علماً يكون من اكبر الاسباب في تضلع الطلبة من علوم الادب فقال (ان الامر المهم الذي يجب الالتفات اليهِ هو ان مدرسي اللغات وجهوا جل اهتمامهم الى مادة التعليم والى التعليم نفسه منذ سنة ١٨٧٠ لكنهم لم يلتفتوا الى تربية الاخلاق والنفوس على ما يحتاج اليه في هذه الاوقات وانك يا حضرة المستشار هنزيتر واسألك العفو فيما اقول (من علماء اللغات ذوي الخيال . غير اني ارى الامر وصل الى حد لا يجوز ان يتعداه)

ويرى القارئ من ذلك ان الامبراطور شديد على النظام اشتداده على موضوع التعليم وهو اللغة اللاتينية التي اعتبرت الى الآن اساساً لكل تعليم فان الالمانيين يفتخرون بعلماء تلك اللغة منهم افتخارهم بعلماء اللغات الاخرى وقد آن اوان انصرافهم عن هذا الخيال قال ملكهم (يكثر الناس ايها السادة من الاعتراض فيقولون ان اللاتينية لازمة لتعويد المرء على مطالعة اللغات

الإجنبية الى غير ذلك من الاقوال . على اني ايها السادة كنت ايضاً اتعلم اللاتينية واعرف كيف كان يكتب التلميذ درسه فيها . كان الواحد منا ينال الدرجة الرابعة في درسهِ الالماني وهي الدرجة المتوسطة في الغالب وينال الدرجة الثانية في اللغة اللاتينية وهي درجة عال . ولوكان الامر بيدي لعاقبته بدل المدح والثناء . اذ من الواضح انهُ ليس هو الذي كتب درسه اللاتيني بنفسهِ بل انهُ لم يوجد واحد في الاثني عشر كتب درسهُ بغير معين. ومع ذلك كانت كلها ملحوظة بعين القبول والرضاء . هكذا كان يتعلم الشباب تلك اللغة على انهُ لما كنا في المدرسة الابتدائية ما كان الواحد منا ينال الدرجة المتوسطة في كتابتهِ على (مينا برنهلم) او على (ليسنج)[1] الا بالمشقة والعناء لهذا اقول تباً للدرس اللاتيني انهُ يضايقنا ويضيع علينا وقتنا)

ثم انتقل الى الكلام على خيبة التعليم من الجهة العملية اعني من جهة تكوين الرجال واعدادهم للنجاح . وهو اهم قسم في خطابهِ . وعلى كل حال فانه توسع فيهِ كثيراً . وكان ناظر المعارف شرح في خطابهِ الافتتاحي فكرة الامبراطور وبحث فيما اذا كانت ينبغي للامة الالمانية (ان تبقى امة تفكر وتصورات تبحث عن راحتها في مخيلتها مع ما حصل من التغير في حالة البروسيا والمانيا) وقال بان ذلك لم يعد في الامكان (اذ قد اتجهت انظار الامة الى الخارج بل ومالت الى الاستعمار) . وهو قول واضح لا ابهام فيهِ يدل على ان الغرض مساعدة انتشار الامة الالمانية واعدادها الى مشاركة الامم الاوروباوية في الاستيلاء على العالم . لذلك اشار الوزير الى وجوبه

١ اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفي سنة ١٧٨١

العدول عن طريقة التعليم في المدارس العالية المتبعة الآن . واشتد الامبراطور في الكلام على كيفية التعليم فقال (الاحظ اولاً ان الغرض من كلامي توجيه الافكار خاصة الى طريقة التعليم والتربية التي يجب علينا اتباعها في تهذيب شبيبتنا حتى تكون مطابقة للضرورات الحالية التي اوجدنا فيها مركزنا بين الامم وقادرة على احتمال متاعب التزاحم في الحياة) ها قد نطق الامبراطور بما كان مكنوناً . يريد اعداد الالمانيين الى التزاحم في الحياة وجعلهم رجال عمل قادرين على التحصيل ومقاومة مزاحميهم من الامم الاجنبية في البلاد الخارجية . وقد اخفقت مساعي المدارس في هذا الموضوع لانهُ لا يخرج منها الاّ قومٌ لا حرفة لهم او لا اهلية فيهم او انهم لا يقدرون على غير الاشتغال بتحرير الجرائد . ومنهم من انهك الدرس قواه فصار اعشى وامسى ضعيف القلب فاتر العزم في اي عمل يحتاج اليه . ذلك ما صرّح بهِ الامبراطور في كلامه قال مبتدئاً بتكليف التلامذة في التعليم فوق طاقتهم مما اضعف ابدانهم وحط من قوّة الارادة فيهم ما يأتي (واذا رجعنا الى اوقات التعليم رأينا من الضروري تغيير ساعات العمل الذي يكلف بهِ التلميذ في بيتهِ اذ يذكر حضرة المستشار (هينز بيتر) ان شكوى العائلات وعدم رضاهم عن الطريقة المتبعة الآن موجودان منذ كنت انا بمدرسة (كاسيل) الابتدائية . وان تلك الشكوى بلغت مسامع الحكومة فامرت بتحقيقها وتبين منها انهُ كان يجب على كل تلميذ ان يقدم لناظر مدرسته في كل صباح شهادة بمقدار الساعات التي قضاها في تحضير دروس اليوم الثاني بمنزله . اما انا فكنت اشتغل سبع ساعات كما يشهد بهِ حضرة المستشار

يضاف اليها ست ساعات في المدرسة وساعتان في الاكل والباقي من اليوم معلوم) وهو في الحقيقة تكليف شديد لم ينجُ الامبراطور من اضراره الاّ باستعمال طرق لا تتيسر لجميع الناس كما قال (ولولا اني كنت اركب جوادي وانطلق حرّاً في غير تلك الاوقات لما عرفت شيئاً من احوال الدنيا)

نعم ركوب الخيل يخفف ضرر الافراط في الدرس ولكنهُ لا يكفي لمعرفة احوال الدنيا . ومهما كان في قوله من مواضع الانتقاد فانهُ اصاب منشأ الضرر وحث على وجوب ملافاته فقال (وارى من الواجب مداواة هذا الداء فقد بلغ السيل الزبى ايها السادة ولا قبل لنا على ترك الحال كما هي اذ تجاوزنا الحد الذي ينبغي لنا الوقوف عنده واتت المدارس بما فوق طاقة البشر وتخرج منها من المتنورين ما زاد على المطلوب زيادة لا تحتملها الامة ولا تطيقها الافراد) هذا كلام يخالف رأي الذين يزنون عظمة الامم وقوتها بقدر عدد المتنورين من رجالها . قال الامبراطور (وقد اصاب البرنس بسمارك في قوله ان لنا من حائزي الشهادات صعاليك . لانّ السواد الاعظم ممن رشحهم الجوع وعلى الخصوص حضرات ارباب الجرائد هم من متخرجي المدارس الذين لم يفلحوا) . اما قوله (ممن رشحهم الجوع) فجاف واما قوله (لم ينجحوا) فصواب من بعض الوجوه قال (وفي هذا من الخطر ما لا يخفى لان هذا الافراط الذي بلغ حده قد جعل بلادنا شبيهة بارض غصت بالمياه فلم تعد تحتمل السقاية من جديد . لذلك لن اسمح من الآن بزيادة عدد المدارس العالية الاّ اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة اما الآن فعندنا منها عدد يكفينا) . وهذا القول ايضاً يخالف رأي الذين يزنون

عظمة الامم وقوتها بقدر عدد مدارسها . ومما هو جدير بالنظر ان الذي يقيم هذه القيامة على المدارس ليس متبرماً ولا جهولاً خرج من غابات جرمانيا. بل هو ثمرة من ثمار اكبر تقدم وصلت اليهِ المدارس في الدنيا وناشىء في البلاد الالمانية التي اشتهرت بالاجتهاد والتمكن من العلوم والتمعق فيها

ردّد الامبراطور الكلام في آخر خطابه على مضار طريقة التعليم الحالية باجسام التلامذة فقال (وما الذي نرجوهُ من رجل لا يرى الاشياء بعينيه فقد قلّ الابصار بين تلامذة المدارس حتى بلغ الاعشون منهم اربعاً وسبعين في كل مائة . ومع ان غرف التدريس في مدرسة كاسيل مذ كنت فيها كانت نقية الهوآء اجابة لرغبة والدتي ولم يزد عددنا على واحد وعشرين تلميذاً كان منا ثمانية عشر يلبسون العيون الصناعية (نظارات) وقد تولاني الفزع من ذلك واوكد لكم ان كثيراً من العائلات قدمت عرائض لا تحصى شاكية من تلك الحال وراجية توجيه انظاري اليها . ولما كان امر ذلك راجعاً اليّ لاني ابو الوطن فمن الواجب عليّ ان اعلن للناس بان تلك الحالة لن تدوم . ايها السادة لا ينبغي ان ينظر الناس الى الدنيا بعيون من الزجاج بل بأعينهم الطبيعية . وانا اعدكم باني ساوجه الافكار نحو ما ذكر)

والذي يتلخص من ذلك كله ان المدارس لم تنجح في التعليم العملي كما حبطت مساعيها من الجهة العلمية

ثم انها لم تأتِ بالمراد ايضاً من جهة ثالثة وهي الجهة السياسية وهي اهم الجهات التي تلام على النقص فيها . اذ لا يخفى انهُ كان ينتظر من المدارس توجيه افكار الشبان الى الخطة السياسية المطلوبة . وهذا الامل هو الذي

مال بالاحزاب عموماً والحكومات خصوصاً الى رئاسة المدارس والقبض على زمام التعليم فيها لاعتقاد الكل يقيناً انها انجح الوسائل في الوصول الى الغرض المقصود فلا يختلف في ذلك اثنان . تلك هي العلة في اشتداد الخصام بين الاحزاب على المدارس وطرق التعليم فيها وما يجب تعليمه حتى صارت في البلدين فرنسا والمانيا من أهم الوسائل التي تستعمل للفوز في الانتخابات . وقد كثر اختلاف الاحزاب على قوانينها حتى سنت كل بلد قانوناً مخصوصاً تحرت فيه حكومتها تأييد النظام الذي يوافق مصلحتها فأصبحت في يد الحكومة تقلبها كيف تشاء ولعب الامبراطور بالمدارس الالمانية كما لعبنا بالمدارس الفرنساوية من غير معارض ولا منازع

ومن المستغربات بعد هذا ان يقول الامبراطور نفسه اليوم ان المدارس لم تأتِ بما كان ينتظرهُ منها سياسياً وهو اعلم من غيره بما يقول

ولقد بدأ رجال السياسة عندنا يقولون مثل ذلك القول لان عدداً غير قليل من الاغلبية وهو الاكثر فطنة وذكاء يجاهرون بانهم لم يستفيدوا من المدارس ما كانوا يرجون ويشيرون بالعدول عنها ويلاحظون بان عدد الذين نفروا منهم بسبب القوانين التي سنوها لها اكثر من الذين استمالوهم بواسطتها

ثم افصح الامبراطور عن الذي كان يرجوه من المدارس سياسياً فقال (ولو اتت المدارس بالفائدة المقصودة منها لقاومت احزاب الجمهورية . اقول هذا عن خبر وعلم لاني كنت في المدارس وعالم بما يجرى فيها) وقوله هذا يطابق قول الفئة القليلة في مجلس النواب الفرنساوي بالتمام ايام كان الامر بيدها في البلاد ويطابق ايضاً قول الاغلبية الحاضرة لانها كانت ترى وجوب

الاستظهار على الحزبين الملوكي والديني بواسطة المدارس وهذه المطابقة تدل على ان الافكار واحدة في الجهتين وصيغ القول متحدة والغرض واحد هو اتخاذ المدارس سلماً للتسلط السياسي . ولنرجع الى خطاب الامبراطور لنتبين حقيقة مراده قال (كان من الواجب على المدارس ان تلتفت الى المطلوب منها كما ينبغي فتنشر في الامة تعليماً يجعل الشبان الذين من سني اي الذين قاربوا الثلاثين على صفات تسهل لهم ان يهيئوا من انفسهم ما انا محتاج اليهِ من المعدات والوسائل في خدمة الدولة فاتمكن من الاشراف على حركة البلاد في وقت قريب) . والحق يقال ان الملك لم يسلك في خطابهِ سبيل الابهام بل قولهُ واضح صريح . يريد ان تعد لهُ المدارس عمالاً واعواناً يتمكن بهم من الاستيلاء على زمام الحركة في بلادهِ . هذا هو رأيهُ في التعليم . وهذا هو الشأن الذي يريد ان يكون للمدارس . وليس لنا ان نبحث فيما اذا كان رأيهُ مقبولاً عند المدرسين والعائلات في تلك البلاد . ثم اشار الى ان المدارس لم تقم بالواجب فقال (ولم تأتِ المدارس بما ذكر وليس من زمن نجحت فيه مدارسنا في جميع ادوار حياتنا الوطنية وساعدت على تقدمنا الا سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ففي ذلك الحين كانت المدارس البروسيانية والمكاتب مودع فكر الوحدة الالمانية ثم سرى هذا الفكر منها في جميع الناس وشخص الكل الى غرض واحد هو اعادة الامبراطورية الالمانية واسترداد بلاد الالزاس واللورين . غير ان تلك الحركة بطلت من سنة ١٨٧١ لما اعيدت الامبراطورية ونلنا ما كنا نرجوهُ فوقفنا عندهُ وكان من اللازم علينا الآن ان نعلم الشبان طريق المحافظة على ما

كسبنا. ولكننا لم نعمل شيئاً بل اخذت الافكار منذ حين تتحول عن هذا المبدأ . اقول هذا لاني في مركز يمكنني من النظر فيه وقد اشتغلت به وعلمت انهُ ناشيء عن التربية) . ثم بحث الامبراطور عن السبب في ذلك وقال انهُ ناشيء من طرق التعليم وموادهِ وشدد النكير كما تقدم ذكرهُ على احزاب اللغات وبالاخص اللغة اللاتينية فوجه قوارص الكلام الى المدرسين الذين يقولون بان وظيفة المدرسة انما هي تدريب العقول واردف تعنيفهُ بقولهِ (وليس من الممكن ان يستمر العمل على هذا المنوال) ولو التفتنا الى انه الامبراطور امير بروسياني ساد على قومهِ بقوة السلاح وان امة البروسيا لم تتوصل الى ابتلاع المانيا كلها وتنظيم القوة العسكرية التي بيدها الامر في (برلين) بواسطة ذلك التدريب العقلي وانهُ لا يكفيها وحده في حفظ ما نالتهُ حكمنا بان الامبراطور مصيب في قوله وسلمنا لهُ اعتبارهُ تدريب العقول آلة ضعيفة في الحكم والسيادة وجاريناهُ في ان المدارس لم تعطهِ ما كان يرجوهُ منها سياسياً كما خابت من الجهتين العلمية والعملية

وعلى هذا يكون الاخفاق في المدارس حاصلاً من جميع الوجوه ولا بد من اصلاح هذه الحال فالامبراطور مصمم على ذلك ومن الواجب ان تنثني جميع الارادات امام ارادته لانه الملك

فاما رأيهُ في اصلاح التعليم من الجهة العلمية فبسيط يرجع الى ابطال اللغة اللاتينية من جميع المدارس الا الخصوصية وهي التي لا يميل الى الاكثار منها لقولهِ (لن اسمح من الآن بزيادة عدد المدارس العالية الا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة اما الآن فعندنا منها عدد يكفينا) والمدرسة

المخصوصية هي التي يتعلم فيها ابناء الطبقة العالية في الامة او المدرسون . ورغبتهُ في ابطال اللغة اللاتينية صريحة لا تقبل التأويل كما دل عليه بقوله (تباً للدرس اللاتيني انهُ يضايقنا ويضيع علينا وقتنا ومن الواجب ان نبحث التعليم عن اساس غير هذا الاساس الذي عاش عدة قرون لانهُ انما كان يفيد في تعليم القسس والرهبان ايام القرون الوسطى مع قليل من اللغة اليونانية)

وليس من غرضنا ان نطيل القول في اللغة اللاتينية وكونها لازمة في المدارس ام لا وفي استحسان الطريقة المتبعة في تعليمها او تقبيحها وكونها لا تنتج فائدة كبرى وانهم افرطوا فيها الى حد يستغرق من الزمن ما يزيد على الحد الذي ينبغي . ونكتفي هنا بان نلاحظ للقراء ان الاصلاح الذي يقصده الامبراطور سلبي مرجعه حذف شيء موجود في المدارس الآن

واما رأيه في الاصلاح من الجهة العملية فعلى خلاف ما تقدم وهو الذي وجه اليه كل اهتمامه لانه يريد تربية الشبان على المبادئ التي تمكنهم من احتمال متاعب التزاحم في الحياة وتساعد على انتشار الامة الالمانية في انحاء المسكونة وتعينها على ان تسبق في ذلك الامم المنتشرة في الدنيا . وبالجملة فانه يريد تربية العقل على العمل والاجتهاد حتى يكون المتخرج من المدارس عالماً بما يجري في الوجود . وقد تقدم ان الامبراطور آسف لكونه لم يصل الى معرفة ذلك الا وهو راكب جواده

اما الطريقة التي يراها لازمة للوصول الى غايته فما لا يخطر على بال احد . ومثله في رأيه مثل رجل يحاول تعليم الطفل المشي فيشد ساقيه شداً متيناً . او كالذي يريد ان يطلع تلميذه على مشاهد الكون كلها فيحبسه في

مكان ضيق مسدود المنافذ بحيث لا تبصر عيناه من خارجه شيئاً . فلا فرق بين هذين المعلمين في تعليمهما وبين الامبراطور فيما يريدهُ من النظام لمدارسه وهو من المستغربات . لكن حتى اكون صادقاً فيما اقول اذكر للقراء نص عبارتهِ في هذا المطلب قال (يجب ان تكون اللغة الالمانية هي الاساس لجميع التعاليم الاخرى . ومتى نجح التلامذة في امتحانها التحريري كان ذلك دليلاً على ذكائهم ومقدار استعدادهم . اما تعلم اللغة اللاتينية فانهُ يضيع علينا من الوقت ما نحن محتاجون اليهِ في تعليم اللغة الالمانية)

وليلاحظ ان الامبراطور لا يريد بهذا تعليم الالمانيين لغتهم الالمانية فقط بل هو يريد ان لا يتعلم الالمانيون شيئاً الا ما كان المانياً حتى لا يدخل بينهم شيء اجنبي من اي نوع كان . قال (ولقد يفرحني ان لو استعملنا كلمة المانية للدلالة على مداولاتنا هذه بشأن المدارس بدل الكلمة الفرنساوية التي نستعملها الآن فلنقتصر على اللفظ الالماني الذي يدل عليها) ولقد يحمل هذا العداء حتى في الالفاظ على شدة وطنية الامبراطور

ثم انهُ افصح عن غرضهِ من المدارس بقولهِ (اني اريد ان يعرف الالمانيون تاريخ بلدنا وخططها وقصصها معرفة حقيقية اذ يجب علينا ان نبتدىء بمعرفة الدار التي نسكنها) والدار التي يعنيها ليست البلاد الالمانية المعروفة منذ القدم بل هي الدار التي شادها ملوك البروسيا وضموا اليها طوعاً اوكرهاً جميع الامة الالمانية . وعليهِ فالتاريخ الذي يشير اليهِ هو تاريخ الزمن الذي نهضت فيهِ الامة البروسيانية فادخلت تحت سلطتها رويداً رويداً جميع البلاد الالمانية حتى يتيسر للشبان الذين يتلقونه ان يتربوا منذ

نعومة اظفارهم على محبة النظام الحالي والاعجاب بهِ . هذا هو مراد الامبراطور كما صرح بهِ في قولهِ (لما كنت في المدرسة ما كان التلامذة يذكرون (المنتخب الكبير) الا كالخيال ولم يكن لحرب السبع سنين ذكر في درس التاريخ كما اهمل حرب سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨١٥ مع ان معرفتهُ لازمة لكل شاب الماني . ولولا الدروس الخصوصية خارج المدرسة لما عرفت من ذلك شيئاً) الى ان قال (مع ان في تعليم ذلك اهمية عظمى ولا موجب للتضليل على شباننا بتوجيه الملام على حكومتنا والاعجاب بما عند الاجنبي)

هذا غاية في الصراحة فليحرزهُ السامعون . يريد الامبراطور ان لا تشتغل افكار امتهِ باجنبي عنها فلا تعرف ما يجري في البلاد الاخرى وان تصير معجبة بالحوادث التي اوجدت وحدة المانيا اذ هي الامر المهم . وبهذا التضييق على الافكار ينقطع التنديد بالحكومة وتتغير افكار الشبان في الزمن الحاضر الى احسن منها كما يشاء الامبراطور . ولا شبهة في ان افكارهم تتغير اذا لم يتعلموا من التاريخ الا ما اختص بشجاعة البروسيا لان في ذلك ابعاداً لهم عن الاشتغال بالمانيا القديمة وماضيها الطويل . ولكي لا تبقى شبهة في مراد الامبراطور من التربية العملية قال (ايها السادة اني في حاجة الى الجند فلا بد لي من نسل قوي قادر على خدمة البلاد ولهذا ينبغي ادخال نظام المدارس الحربية في المدارس العالية) ولعمري ان هذه التربية لا تجعل الشبيبة الالمانية قادرة على احتمال الحياة الحقيقية وكسب عيشها اليومي حيث لا موجب للقتال ولا محل للنزال بل الغرض الارتزاق

وما ذلك النظام هو الذي يربي الرجال ويهيئهم الى الاعمال المفيدة ويولد فيهم قوة الارادة التي تناسب حركة الترقي الشديدة في عصرنا هذا. وكيف تكبر عزائمهم وهم لم يتعلموا غير النظام الالماني حيث يسود النظام العسكري في المدارس. انما الواجب تثقيف عقولهم وتوسيع نطاق تهذيبهم وتدريبهم على جميع الاعمال النافعة التي تساعد الامة على نشر سيادتها الاجتماعية لا العسكرية حتى تسبق غيرها من الامم التي لم تبلغ شأوها في التقدم. ولكنهم يريدون ان يضعوا فوق اعينها عيوناً لا تمكنها من النظر في احوال الامم الماضية ولا في حركة الامم الحاضرة الا ما كان المانيا . فلا ترى من هذا المشهد العظيم المفيد الا تاريخ البروسيا وهو يسير ولا تعرف للفوز معنى الا ما كان بحد المرهفات وافواه المدافع لا الذي يكتسب بالجد والمثابرة والهمة والارادة . وكأني بالامبراطور يريد ان يجعل جميع الامة الالمانية في حالة بعض فقراء الهند الذين يقضون حياتهم في مشاهدة ما دون بطونهم معتقدين انهم ينالون بذلك تمام السعادة . اذ هو يريد ان لا تعرف امته غير طرف واحد من هذا العالم الشاسع وان يحجب عنها كل شيء سوى ذلك

وانا نترك الفصل في امكان تحقق هذا الخيال الى الامة الالمانية نفسها غير انا نستفيد منهُ لنعرف موضع النقص عندنا وما منا من يجهل اعجابنا بانفسنا واعتقادنا بان امتنا اكبر الامم وفي مقدمتها حضارة وتمدناً وان كل شيء لدينا اصلهُ الثورة الفرنساوية . ثم ننقل هذا الاعتقاد الى ابنائنا غير شاعرين باستمرار الزمان في تقدمهِ من دون اشتراكنا في حركتهِ

ثبت اذن ان الاصلاح الذي يشير اليهِ الامبراطور عقيم الفائدة من

الجهة العلمية قليل النفع من الجهة العملية فلنبحث عن فائدته من الجهة السياسية علنا نراهُ يؤدي الى الغرض المقصود والا لذهبت اماني الامبراطور ادراج الرياح خصوصاً اذا لوحظ انهُ لا يقصد من سعيهِ كلهِ في الحقيقة ونفس الامر الا المنفعة السياسية او ما يتصورهُ كذلك بدليل قولهِ (ومن الواجب علينا الآن ان نعلم الشبان طريق المحافظة على ما احرزناهُ ولكننا لم نعمل شيئاً من هذه الجهة بل انا اشاهد منذ حين في الامة شخوصاً الى الميل عنهُ)

وعلى هذا يكون غرض الامبراطور من ذلك النظام هو التغلب على هذا الميل الذي يخشاهُ . ولكن امانيهُ لا يمكن تحقيقها الا اذا كانت المدارس كما يريدها . وهي ليست كذلك لان غاية ما يريد استحداثهُ هو الزيادة فيما جرت عليهِ امتهُ من قبلهِ تحت رعاية اسلافهِ وبامرهم . وهم ايضاً كانوا يقصدون الغاية التي يرمي اليها وهي اكبار شأن الدولة البروسيانية واعلاء كلمتها وقد جرب ذلك بنفسهِ

لذلك ندد رجال المدارس في برلين على خطابهِ واجمعوا على اظهار اسفهم واستيائهم من اللوم الذي وجههُ اليهم وقالوا (انهم كانوا يعتبرون على الدوام ان اقدس واجب عليهم هو غرس محبة الوحدة الالمانية في قلوب تلامذتهم واعدادهم لحفظ النظام الاجتماعي الحاضر ومقاومة اهل الثورة ومن يسعى بالفساد) ومع كون هذه الطريقة لم تجد نفعاً باعتراف الامبراطور نفسه نراهُ يميل الى تعزيزها والزيادة فيها : ولن ينال ما يرجوهُ منها بل من المحتمل القريب جداً انها تؤدي الى عكس ما يتمنى لانها تزيد في ضعف

اهلية الأواسط من الناس وفي عدم قدرتهم على تحصيل عيشهم من الصنائع الحرة . فتضعف فيهم قوة التزاحم في الحياة والانتشار في الخارج ومباراة غيرهم من الامم التي سبقتهم في معرفة مقتضى احوال المجتمع الانساني . ومعلوم ان المدارس التي يريد الامبراطور تنظيم طرق التعليم فيها هي التي يدخلها ابناء الاواسط في المانيا . اما عدم اهلية تلك الطبقة من الناس في الامة الالمانية فقد برهن عليهِ موسيو (بوانسار) في الجزء التاسع من مجلة (العلم الاجتماعي) صحيفة ٤٦٨ تحت عنوان (الالمانيون خارج بلادهم وطموح الحكومة الامبراطورية الى الاستعمار) وابان ان اهل الطبقة المذكورة يفضلون الوظائف العسكرية والادارية والحرف الادبية على الصنائع الحرة المفيدة اي التي تستفيد منها الامة والافراد كسباً كبيراً . فاذا زيد ايضاً في ضعف تلك الطبقة من هذه الجهة زاد الضنك وعظم اشتداد الحال اذ ليس في قدرة الحكومة الالمانية ان تتكفل بمعيشة جميع الذين يخرجون من مدارسها بعد ان ابعدهم ذلك النظام عن وسائل الكسب الحقيقية فتضيق دونهم ثكنات العساكر ومصالح الحكومة مهما تشعبت فروعها . ثم هم يرجعون طبعاً باللوم عليها وينسبون خيبتهم اليها . تلك سنة الامم لا يشذ عنها ولا ينفر من حكومتها الا الخائبون . وحينئذٍ يزداد النفور ويشتد حرج النفوس الذي تظهر علاماتهُ الآن للامبراطور

وفيما تقدم اكبر برهان على فساد نظام الحكومات التي يتولى الملك فيها النيابة عن الافراد في جميع الاعمال حتى التي هي من خصائصهم . واعظم عمل تختص به الامة والافراد دون الحكومة هو التربية . وما من

مرة تولتهُ الحكومة الا ساءت العاقبة من جميع الوجوه . تلك حقيقة سيعلمها الامبراطور كما عرفها قوم سابقون

هذا وفي يقيني ان الامبراطور يستغرب كثيراً اذا قرأ ما تقدم من كلامي لما هو عليهِ او ما علم عنهُ من اعتقاده بان النظام الذي يريد ادخالهُ في المدارس هو الذي يفتح للامة الالمانية باب التقدم الذي اتجهت نحوهُ الامم في هذا العصر وانهُ هو النظام الذي يليق بمستقبل الايام . ولا يحسبني القارئ مبالغاً فيما اسندهُ اليهِ فهذا ختام خطابهِ قال (نحن في زمن انتقال الامم من حالة الى اخرى وفي استقبال قرن جديد . وقد كان من خصوصيات القياصرة اسلافي على الدوام ان يسبقوا الى معرفة تقلب الزمان ويتبصروا الحوادث المقبلة وينهضوا في مقدمة الكل رغبة في توجيه حركة الامة نحو الغرض الجديد . واني قد عرفت مصير الافكار الجديدة وادركت الغاية التي يرمي اليها هذا القرن المنصرم . لذلك حولت عزمتي كما فعلت ايام اشتغالي بالنظامات العمومية الى تربية الشبيبة الالمانية على نظام جديد يفتح امامها ابواباً لا بد لنا من الدخول منها لنصل الى التقدم المقصود لاننا اذا لم نفعل ذلك اليوم الجأتنا الضرورات اليهِ بعد عشرين عاماً)

ومن المدهشات ان ينطق بهذا اللسان ملك عرفناهُ يقف بالتعليم في المدارس عند معرفة الوقائع الحربية التي انتصر اسلافهُ فيها ويقضي على التربية العلمية الحقيقية قضاءهُ المبرم ويجعل جميع الاجيال المستقبلة من امة كبيرة غير قادرة على احتمال ذلك التزاحم في الحياة الذي طنطن بذكره واطنب في الكلام عليه

على انهُ لا موجب للدهشة لان القائل رجل بروسياني وبلاد البروسيا قسم صغير من المانيا وقد تكاد تكون كامم المشرق فهي آخر امة دخلت في عداد الدول الاوروباوية العظمى كما في اصطلاح السياسيين . وما صارت امة كبيرة الا بعد جميع الامم الاخرى . فهي اشبه برجل ولد متأخراً عن اقرانه بربع ساعة وليس في امكانه ان يستعيض عن هذا التأخير . فالبروسيا متأخرة عن غيرها من امم الغرب بقرنين كاملين . ولا يزال اهل نهر (سيرى) على بعض العوائد التي كانت مألوفة ايام الملك (فيليب) الثاني و (لويز) الرابع عشر كأنهم لم يشعروا بان الارض قد ضمت اجسام اولئك الملوك الفخام من زمن مديد فبادوا وبادت حكومتهم وانطوت سياستهم . كما انهم لا يزالون يعدون ما مضى مستقبلاً يرجونهُ

وحيث ان البحث دائر على المستقبل والتزاحم في الحياة ومساعدة الامة الالمانية على الانتشار في الخارج والمنافسة مع الامم التي تستولي على الدنيا فمن المفيد ان نعرف الطريقة التي اتخذتها تلك الامم في تربية ابنائها واعدادهم لهذا الحرب الجميل حتى تكون لها الارجحية في جميع البلاد على على غيرها . وسيرى القرآء ان السبيلين مختلفان

وبينما انا اكتب هذه السطور اذ دخل عليّ احد الاصدقاء زائراً وهو رجل لهُ ولد يريد ان يربيه تربية تمكنهُ من التزاحم في الحياة وكسب عيشه بنفسه فلا يود لهُ ان يكون موظفاً في احدى مصالح الحكومة وهو نادر عندنا . والخلاصة انهُ يريد ان يربي ابنهُ تربية عملية ارادة صحيحة لا كما يريد الامبراطور . وهي التربية التي يستحسنها كل انسان ولا يعمل بها

الا القليل . وكان لهذه الغاية تحصل على نظامات عدد من المدارس الاجنبية فاعجبهُ واحد منها وهو الذي قدمهُ اليّ . فلما تصفحتهُ رأيت من الفائدة تلخيصهُ للقرآء مستعيناً في ذلك بما علمتهُ بنفسي عن المدرسة المتعلق بها

المدرسة انكليزية انشأها صاحبها لتعليم الشبان طرق الارتزاق في غير بلادهم والتمكن من اجرآء تلك الاعمال الزراعية التي مهدت للامم الانكليزية السكسونية سبل الاستيلاء على العالم شيئاً فشيئاً وجعلتها تفضل من سواها . وهي توافق غرض الامبراطور الا انها لا تنسج في التعليم على منوالهِ

واما النظام المذكور فهو رسالة صغيرة يطالع القارئ في اولها قولين حكيمين احدهما عن (جون ستيوارت ميل) وهو (مما لا شبهة فيهِ الآن بالنظر الى احوال الامم الحاضرة ان الاستعمار هو انجح الوسائل في استعمال الاموال المدخرة في خزائن الامم الغنية القديمة) والثاني عن (فوستر) وهو (تزداد حاجة الناس الى الهجرة كل يوم ولا فرق في ذلك بين الغني والفقير)

ويتبين منهُ ان الغرض من المدرسة تتميم ما نقص من التعليم في المدارس الاخرى للشبان الذين يحتاجون الى تربية خصوصية . ولا يغيب عنا ان التربية في المدارس الانكليزية على العموم هي تربية عملية كما ينبغي . وان التزاحم في الحياة الذي قرأناهُ في خطاب الامبراطور هو الغاية من تلك التربية . وان بين رؤساء المدرسة وجميع المستعمرات الانكليزية مراسلات يقفون بواسطتها على ما يحتاج اليهِ التلامذة في المستقبل فلا يقدمون على امر الا وهم بهِ عالمون . وقد افادت تلك التربية كثيراً من متخرجي المدرسة

فساعدتهم على تحصيل رزقهم في البلاد الاخرى . ثم بين واضع الرسالة موقع المدرسة والحقهُ برسم بنائها تتميماً للفائدة . وهي موجودة في الريف وكان ذكر ذلك من قبيل تحصيل الحاصل لولا ان جمعية الزراعة العلمية الفرنساوية تسكن في وسط مدينة باريس الجميلة . وبناؤها قائم على مرتفع يحيط بهِ البحر واحد الانهار من جهة ويمتد من الجانب الآخر سهل منزرع . وهذان شرطان يعوّدان التلامذة على الهجرة والاستعمار وتحمل اتعابهما اكثر من جمعهم في المدارس بالمدن الالمانية . وذلك السهل منقسم الى اجزاء تسهيلاً لتجربة طرق الزراعة وغرس جميع المزروعات على اختلاف انواعها . فهذا قسم العزبة . ثم قسم الالبان . فمكان تربية الطيور المنزلية . فالمعامل . ومخازن المراكب . وغيرها . ولكي يحافظ التلامذة على دينهم بني لهم معبدان على مقربة من المدرسة

اما موضوع التعليم فيدل على ان المدرسة عملية محضة وانه لا اشتغال لاصحابها بالسياسة بل هم منصرفون الى تسليح التلامذة بجميع المعارف العملية التي يحتاج اليها . وان اعظم مكان في المدرسة مخصص لتطبيق العلم على العمل لا كما هو حاصل في جمعيتنا العلمية الزراعيه . وان الغرض من تدريس العلوم هو شرح ما يشتغل بهِ التلامذة من الاعمال ولدى المدرسة عدد من اهل الزراعة والصناع لتعليم طرق الاستعمار . وان اهم عمل هو الزراعة . لذلك يأتي التلامذة بانفسهم جميع اعمالها وعندهم من آلاتها ما كل صنعهُ . وباستعمالها تعرف قوة كل واحد منهم . وهنالك دوحة تبلغ اربعين الف متر مربع تزرع فيها الفواكه المختلفة الانواع والخضر باجناسها

وتشاهد فيها التجارب لانماء الزرع بقدر ما يصل اليه الامكان . ولهم اعتناء خصوصي بتربية النحل لما فيه من الفوائد في المستعمرات اذ يخرج منه العسل والشمع وهما سلعتان نادرتان في تلك الجهات وقيمتهما عالية . وفي هذا السهل قسم تغرس فيه انواع الاشجار ويتعلم التلامذة كيفية تغذيتها وطرق تربيتها وهو عمل لازم لمن يريد استيطان (كندا) او (استراليا) ولهم عناية لا مزيد عليها بتربية الماشية لضرورتها في اغلب المستعمرات لانه يبدأ عادة في الاستعمار بتربية المواشي . فعندهم سبعون حصاناً ومهراً من احسن الانواع وكلها من الخيل المستعملة في المستعمرات ثم انواع من الاثوار والغنم والخنزير والطيور . ويتعلم التلامذة طبائعها وفائدة كل نوع منها ويقضون طول السنة في اختبار احوالها وتنويع استعمالها مع المكلفين بخدمتها . وفي معمل اللبن خمسون بقرة من اجود نوع . والمعمل على احسن طرز تشاهد فيه انواع طريقة صنع اللبن وما يخرج منه بحسب البلادين الباردة والحارة وفي المدرسة مدرسون للطب البيطري حتى لا يحتاج المستعمر في غربته الى غيره لتمريض ماشيته . ويتلو العلم تطبيقه على العمل . ويقضون وقتاً كل يوم في ركوب الخيل وان لم يكونوا في حاجة مثل امبراطور المانيا الى هذه الرياضة ليقفوا على مجرى الاحوال في الدنيا . وانما هم يعلمون ان الخيل احسن واسطة للمواصلة في البلاد الجديدة وانها احسن طريقة لتفقد الاملاك الواسعة . كذلك لهم وقت لتعلم فن مساحة الاراضي واخذ موازينها وطرق اصلاحها وريها وصرف المياه الفضلة عنها . ولتمام استقلال كل واحد منهم تراهم فوق ذلك يتعلمون بعض الصنائع العادية فاتخذت المدرسة معامل

عدة . هذا للبناية وطرق الحديد وفيه تصنع آلات الزراعة كلها واصلاح ما فسد منها وتطبيق الخيول . وذاك معمل التجارة وصنع العربات واصلاحها وصناعة الخشب واقامة المساكن والبيوت منه . وذلك معمل البراذع والسروج . والتلامذة يتعلمون كل ذلك كما يتعلمون العوم في البحر والسباحة في النهر والتجذيف والملاحة وصنع القناطر القائمة واتخاذ الرواسي وغير ذلك . وفي المدرسة احد رجال خفر السواحل منوط بحفظ المراكب وتعليم التلامذة ما يتعلق بها حتى انه يعلمهم كيف يجمعون بين طرفي الحبلين من دون ان يعقدوها . ولقد يلذ لي هذا البيان لانه يدل على شدة التفاتهم الى ما يحتاجه الانسان عملاً واعتنائهم بتعليمه كل شيء وتعريفه بانه لا شيء غير مفيد

ويجب عليهم ان يعرفوا طرفاً من فن الطب على قدر ما يحتاج اليه في المستشفيات النقالة المعروفة بشركة (صان جان) وجمعية مساعدة الغرقى وكيف يربط العضو المكسور والمرضوض ويرد المخلوع ويوقف النزيف وتضمد الجروح وتعالج الحروق وغير ذلك من العوارض الاعتيادية حتى يكونوا على علم بتمريض انفسهم ومعالجة غيرهم

ولقد توسع صاحب المدرسة في شرح ما بيناه من الاعمال الزراعية والعملية لكونها الشاغل المهم فيها ولان الغرض منها تربية رجال يعملون في الخارج لا تعليم اناس يتربعون في مقاعد المصالح . لذلك جعل الكلام على القسم العلمي في آخر الكراسة واختصر فيه لانه كما قدمنا عبارة عن شرح ما يشتغل به التلامذة من الاعمال . فلا يطلبون العلم وحده الا ساعتين اثنتين

في اليوم (وليس في هذا افراط كما ترى) يلقي فيهما ناظر المدرسة ومعلموها دروساً في علم الزراعة وعلم طبقات الارض والمعادن والنباتات وفن الغابات والمساحة والعمارة والطب البيطري وغير ذلك . ثم يتلى عليهم من الكتب الواردة من حكومات المستعمرات ما تهم معرفته

ويجد المطالع في آخر الكراسة خمساً وعشرين صورة تمثل مباني المدرسة والطلبة يشتغلون فيها بالاعمال التي سردناها . واني لآسف على عدم تمكني من نقلها في هذا الكتاب لان صورة اولئك الطلبة وهم يعملون بتلك المدرسة تلقي في النفس شعوراً بانهم من امة ذات همة واقدام ميالة الى العمل الحقيقي قد تعودت احتمال المتاعب فلا تخشى العناء . فهي تعمل بجد في عمل جد لا يعتمد الانسان فيه الا على نفسه بعد الله

ومما يزيد الفائدة من مشاهدة اولئك الشبان انهم ليسوا من الفقراء الذين قد لفظتهم الايام فالتجأوا الى الهجرة بدافع الفقر . ولكنهم كما جاء في الرسالة نفسها ابناء عائلات غنية او تقرب من الغنى اعني من اواسط الناس الذين يريد امبراطور المانيا ادخال الاصلاح بينهم . على ان اجرة التعليم في تلك المدرسة كافية في اثبات ذلك لانها الفان ومائتان وخمسون فرنك في السنة الى ان يبلغ الطالب سبع عشرة سنة . والفان وسبعمائة فرنك الى عشرين سنة . وثلاثة آلاف ومائة وخمسون فرنك الى ما زاد عن ذلك . وقد كان في قدرة اولئك الشبان ان يطلبوا الرزق في بلدهم بلا تعب ولا عناء غير انهم لم يرضوا لانفسهم مثل هذا العيش بل فضلوا عليه ما يقتضي الكد واستعدوا الى مغالبة الصعاب فطوحوا بانفسهم في المستعمرات ونزحوا الى

البلد الاقصى

وللرسالة ملحق يدل على ان اولئك الشبان انما يعتمدون على انفسهم دون سواها وهي خطب كبار القوم الذين حضروا حفلة توزيع الجوائز في السنة الماضية بتلك المدرسة التي هي من مبتكرات الهمم الشخصية كما هو الشأن في اغلب المنشئات الانكليزية . وقد جعل اولئك الكبراء هذه المدرسة تحت حمايتهم واكثرهم من الذين اشتغلوا بالاستعمار او المشتغلين به الى الآن . ويجد القارئ في خطبهم تحذيراً للشبان من الصعوبات التي هم قادمون عليها وتنبيهاً لهم الى وجوب مغالبتها بقوتهم الذاتية . ومن الغريب ان قولهم هذا لا يثني من همم اولئك الطلبة بل انه يزيد فيهم روح الغيرة . ذلك لان تصور الصعوبة يثير عزيمة الاقوياء كما يثبط همة الضعفاء . ومن كلام اللورد (كونسفرد) اليهم ما يأتي (يجب عليكم ان تقسوا على انفسكم فان امامكم من المتاعب ما لا بد لكم من التغلب عليه وربما هلك زرعكم وماتت ماشيتكم فلا تخل عزائمكم امام المصيبة بل قوموا كما يقوم الشجاع وغالبوا تلك الحوادث واسعوا في تعويض ما خسرتم) . ذلك حقا هو التزاحم في الحياة . وكأني بهذا القول نشيد تترنم به الجموع يوم تقوم الامة سائرة نحو افتتاح العالم لا كفتح البروسيا . وقال السير (جراهام بري) وهو الوكيل العام في مستعمرة فيكتوريا (انكم تجدون في جميع انحاء المسكونة ارضاً يخفق عليها العلم البريطاني . فلكم ان تسيروا من اقاليم كندا الباردة الى نواحي افريقيا الحارة او الى بلاد اوستراليا . وحيثما وجدتم ترون العلم الذي يقاوم الحروب وعواصف الرياح منذ الف عام .

واليوم يومكم . فافقهوا الخطة التي يجب عليكم اتباعها . وتبينوا ما اردتم من الاعمال قبل الشروع فيها. واتخذوا لكم في ذلك سبيلاً معروفاً . ولا تترددوا في امركم بل كونوا شجعاناً ذوي اقدام وجد واحتمال . على اني لا اظن ان شاباً انكليزياً تقعد به الحاجة وامامه مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الابواب اليه ومعول نجاحه فيها عليه . لست الآن شاباً مثلكم فقد مضى اربعون عاماً من يوم ان سافرت وما كنت املك من المزايا ما انتم تملكون . كنت غريباً قليل المال لا خبرة لي بالمسائل الفنية ولا صديق في البلاد التي قصدتها . ومع ذلك قد وصلت الى رتبة الوزير الاول في تلك المستعمرة وترأست ثلاث مرات على سلطة التشريع فيها)

هذا واذا ذكر القارئ ان ذلك التعليم ليس قاصراً على شبان مدرسة واحدة بل هو عام في الامة بتمامها . والغرض منه الاستعداد لذلك التزاحم في الحياة . وعلم ان الذي ينتشر في الخارج هو تلك الامة بتمامها صاحبة تلك التربية القوية الفعالة . تجلت امامه الاحوال كما ينبغي . وعلم لمن المستقبل ولمن الدنيا . واختار لابنائه التربية الانجليزية السكسونية لا التربية الالمانية ان أراد أن يدرأ عنهم طوارق الايام . وكيف يتأتى ان يعيش الشاب الالماني بجانب ذلك الرجل الجبار الذي تربى تلك التربية التي شرحناها وهو انما تلقى في احدى المدارس الالمانية تعليماً قاصراً على تمجيد الحكومة البروسيانية والجندية البروسيانية . فلا يعرف من تخطيط الارض الا البروسيا . ولا من التاريخ الا البروسيا او تاريخ ملوكها . ولا يعرف شيئاً من جيالة الدنيا الخارجية لاحتجابه عنها . ولا كيف تكون مزاولة الاعمال الحرة .

ثم التقي به فجأة بعد هـذا في احدى الاقاصي ٠ كأني بك ايهـا القارئ وقد عرفت اي الرجلين اعدا للمستقبل الذي قضت به حالة الدنيا الجديدة على الامم القديمة وايهما يكون ذا الهمة في الاعمال العظيمة التي لم تعد من خصائص الملوك بل من لوازم الامم كما قال امبراطور المانيا

ها قد بينت لك نظامين احدهما صـادر من اقوى ملك ٠ وينتسب الثاني الى بعض الافراد ٠ ولعل الملك العظيم لم يفطن الى ان احسن طريق في تشجيع الامة وتحريضها على العمل الذاتي انما هو ان ينسحب الملك لان الهمة الشخصية تبتدئ حيث ينتهي تداخل الحكومات

الفصل الثالث

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الانجليزية يربي رجالاً ﴾

لو اردنا تلخيص المسئلة الاجتماعية في صيغة صغيرة لقلنـا ان مرجعها التربيـة اذ المراد بحل المسئلة الاجتماعيـة هو تعويد الشخص على حب الاحوال الجديدة في العالم ٠ وكلها تطلب ان يصير المرء قادراً على الارتزاق بنفسه لان الوسائل القديمة التي اعتاد الناس على استعمالها صارت غير مفيدة ولا وافية بالمراد ٠ ولا شبهة في اننـا صائرون الى زمن يتم فيه التغير الذي تبدو لنا اشاراته سواء كان فيه سعادة لنا او شقاء ٠ وليس الحرج الذي نشعر به آتياً الا من التناقض بين وسائل تربيتنا المؤسسة على طريقة تقادم عهدها وبين ما تقتضيه ظروف الحياة الجديدة . فانا لانزال نربي رجالاً لا يصلحون

الا لجمعية قد انقضى نحبها . ومن الصعب ان نعدل عن تلك التربية • ولست ادري ان كان القرآء يشعرون بما اقول بالنظر لانفسهم • غير اني شاعر به في نفسي فاحس اني رجلان . رجل درس علم الاجتماع ورأى ما يجب فعله • ورجل حبس في دائرة تربيته الاولى ورزح تحت اثقال ماضيه فهو غير قادر على العمل بمقتضى علم الاول وان اتى عملاً فهو صعب وناقص . كأن رأسي دخلت في نظام التربية الاستقلالية التي تقوّي الهمة الذاتية وظل جسمي محجوراً عليه في نظام التربية الاتكالية التي تضغط عليه • ومن هنا جاز علينا قول (فيرجل) الشهير (ان من الصعب ان يتحول الانسان عن تربيته الاولى) . ذلك لان الامم قسمان : فنها من تربت على الاتكال وهو عبارة عن ميل افرادها الى الاعتماد على الهيئة او الحزب من عائلة وعشيرة وقبيلة وحكومة وغيرها لا على انفسهم • واكبر مثال لتلك الامم هو الشرق • ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية اي ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجمعية • واعظم مثال فيها هي الامم الانكليزية السكسونية

الا ان ما صار صعباً علينا وغير ممكن في السن الذي وصلنا اليه ليس كذلك بالنظر الى ابنائنا لانهم لا يزالون كالعود الاخضر يسهل تقويمه • والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر • واذ قد حكم علينا بالاقامة على شاطئ النهر وجب ان نمد اليهم يد المساعدة كي يعبروه • ذلك هو اكبر الاعمال بالنظر للآباء في هذه الاوقات فمن لم يفعله فقد اهمل اول واجب عليه • ولا بد ان يعاقب على اهماله في ابنائه • اما انا فقد عقدت النية على ادائه

بالنسبة لابنائي . ولهذا انتهزت فرصة وجودي المرة الاخيرة ببلاد الانكليز واختبرت احوال التربية هنالك من جهتها العملية . وها انا اعرض نتيجة اختباري على اخواني آباء العائلات الفرنساويين لعلهم يستفيدون منه كما افادني

يجتهد الانكليز اكثر منا في اصلاح تربية شبانهم على الدوام مع ان التربية الانكليزية توافق حالة الحياة الحاضرة اكثر من تربيتنا . والنجاح فيها عندهم اكثر من النجاح عندنا . لذلك ترى فيهم رجالاً اكبر همة واقدر في الاعتماد على انفسهم وهم متقدمون علينا في التمشي مع تقلبات العصر الجديدة فيشعرون اكثر منا بوجوب الاستعداد لما تقتضيه . وهي تقتضي على الخصوص تربية شبان قادرين على الارتزاق بانفسهم مهما صعبت متاعب الحياة وتنوعت ظروفها . ومن اجل هذا كان منهم رجال ذوو عمل وعزيمة لا موظفون او ادبيون لا يعرفون من الحياة الا ما تعلموه في الكتاب وهو في الواقع شيء يسير . اما الثمرة التي يطلبها الانكليز فانها توافق كل الموافقة ظروف التقلبات الاجتماعية في عصرنا هذا . وتلك الثمرة هي الرجال

دار الحديث ذات يوم في (ادمبرج) بيني وبين احد المعلمين في مدرسة (دونديه) على التعليم في انجلترا فقال لي (غداً سيخطب رجل لعلك تستفيد منه في مدرسة (صوميدميتنج) وهو مؤسس مدرسة في داخلية البلاد ومديرها واسمه الدكتور (سيسل ريدي) وقد اندهشت في اليوم الثاني لما تعارفنا ببعضنا . فعهدي بنظار المدارس والمعلمين عندنا ان لهم زيًا مخصوصاً : ينمقون لباسهم . ويختارون الالوان الداكنة . ويفضلون الرداء

الطويل حتى تلوح عليهم علائم الاحتفال والترفع كرجل مقتنع بانه ذو سلطة روحية يريد ان يظهرها . يمشون ببطء متجهمين . ويكثرون في حديثهم من القواعد والجمل التي تليق بتربية عقل الشبان ولبهم . وقد بلغت منهم الانفة منتهاها . لكني وجدت الرجل الذي قبض على يدي بشدة على خلاف ذلك بالمرة . فهو اشبه برجل يزاول الاعمال الشاقة . طويل القامة نحيف الجسم . قوي العضلات . تركيب يوافق جميع الاعمال التي تقتضي سرعة الحركة واللين والاقدام . بلباس يوافق تلك الصفات كأنه سائح انجليزي . فقد ارتدى ثوباً (سترة) صغيرة من الجوخ رمادي اللون في وسطها حزام . ثم سراويل قصيرة . وشراباً طويلاً ينثني تحت الركبة . وحذاء متيناً . وعلى رأسه قلنوسة صغيرة . وقد وصفته لان هيئته تمثل المدرسة التي ساشرح حالها للقرآء . فالرجل مثال العمل بالتمام

ولما كان اليوم الموعود وهو يوم السبت حيث الدروس معطلة ركبت مع الدكتور (ريدي) في احدى العربات المخصصة لنزهة اعضاء تلك المدرسة . وقضى مسافة الطريق ووقتاً كبيراً من النهار يشرح لي حالتها ونظامها ويجيبني على ما كنت اسأل عنه ويسألني عما يريد . ومما قاله لي (ان التعليم الحالي لم يعد موافقاً لظروف الحياة العصرية فانه يربي رجالاً هم اليق بالماضي منهم بالزمن الحاضر . واكثر شباننا يقتلون قسماً كبيراً من وقتهم في درس اللغات المندثرة ولن يستعملها النزر اليسير منهم في حياته الا قليلاً . وعلى العكس من ذلك يكادون ان يمروا كالخيال في تعلم اللغات العصرية والعلوم الطبيعية . ثم يمضون على جهل تام بجميع ما تجب معرفته

في الحياة الحقيقية اريد استعمال الاشياء والوقوف على منفعتها في الهيئة الاجتماعية . كذلك تحتاج العابنا الى الاصلاح كما يجب اصلاح طرق الشغل فان الافراط في العمل حاصل كالافراط في الدرس . غير ان الاصلاح صعب لخضوع مدارسنا الى تأثير المدارس الكلية التي تأخذ طلبتها من تلامذتنا . وتلك المدارس الكلية غير متمكنة من نفسها شأن جميع المجتمعات القديمة . كأنّ عاملاً خفياً يحوم فوق رؤس نظارها ومعلميها ولا اراه الا تمسكهم بالتقاليد القديمة والعوائد السابقة وهي اشد قوة من القوة نفسها) ولما سألته وكيف حينئذ يتأتى لمدرستكم ان تغير هذا التعليم اجابني (ان غرضنا هو الوصول الى تربية جميع الملكات الانسانية على نسبة واحدة اذ يجب ان يصير الطفل رجلاً كاملاً حتى يكون قادراً على الوصول الى الغرض المقصود من الحياة . لذلك ينبغي ان لا تكون المدرسة وسطاً صناعياً لا يخالط فيه الطالب الحياة الا بالكتاب . بل ينبغي ان تكون وسطاً عملياً يقرب بين الطفل وبين طبيعة الاشياء وحقيقتها بقدر الامكان . فلا يتعلم العلم وحده بل يصطحب العلم بالعمل اذ هما امران يجب ان يكونا متلازمين في المدرسة كتلازمهما في الخارج حتى اذا خرج الشاب في الحياة لا يخيل له انه يدخل في عالم جديد لم يتأهب اليه . وحتى لا يصبح في حيرة لا يدري اين قبلة الاعمال . ذلك لان الانسان ليس عقلاً مجرداً عن المادة بل هو عقل يلازمه الجسم . فيجب ان تعم التربية همته وارادته وقوته المادية ومهارته اليدوية وخفته في حركاته) وكلما اوغل الدكتور ريدي في حديثه ازددت الماماً بالغرض الذي قصده من مدرسته . غير اني لم اقف عليه تماماً

لذلك طلبت منه ان يبين لي كيف يشتغل الطلبة في يومهم ساعة فساعة . ولما احرزت جوابه ووعيت بيانه وضح لي المراد وادركت حقيقة نظام تلك المدرسة وساذكره فيما بعد . ثم انتهى بنا المسير الى كنيسة (دونفرملين) وخرجنا منها الى منزل احد الموسرين لتناول الشاي اسمه موسيو (هنري بيفردج) وهو من قراء مجلتنا (العلم الاجتماعي) ومن المواظبين على سماع درسنا منذ ثلاث سنين وقد رغب اليّ ان اقيم عنده الى موعد شروعي في القاء خطبي يوم الاثنين صباحاً . فسألته اذا كان يعرف شيئاً عن مدرسة الدكتور (ريدي) فاجابني انه زارها وانه سيرسل ابنه الاول اليها بعد شهرين وعمره الآن ثلاث عشرة سنة وانه لم يكتف بزيارتها بل كتب الى كثيرين يسألهم رأيهم عن تعليم ابنائهم فيها فاجمعوا على استحسانها وفوائدها . ثم قدم اليّ رسائلهم واليك نصها

سيدي العزيز

مكث ابني سنةً ونصفاً في مدرسة (ابوتصولم) وكان عمره خمس عشرة سنة . وقد ازداد عقله فيها اكثر مما ناله في المدارس الاخرى . وترعرع جسمه . وزكت اخلاقه . وسررت جداً من نتيجة تعلمه . اما الدكتور (ريدي) فرجل قوي الاستقلال . ولد مربياً . وعندي ان طريقة التعليم في تلك المدرسة ومبادئها جيدة . وكان ابني يحبها ويميل الى اعمالها . واظن ان جميع التلامذة مثله . وهي كاملة من الجهة الادبية . وفي اعتقادى انكم لا تجدون احسن منها لتربية نجلكم

وهذا كتاب آخر

سيدي العزيز

رداً لخطاب حضرتكم المتعلق بمدرسة (ابوتصولم) اعد نفسي سعيداً باجابتكم على ما سألتم

لنا في (ابوتصولم) ولدان قد حسنت صحتهما جداً فيها . وجاءنا منهما خطاب يخبرنا بان الثلاثة الاشهر الاولى انقضت بهدو وانهما متمتعان بالراحة والهناء . وقد توفرت فيها شروط الصحة في المعيشة . ويتعلم التلامذة كفاية حاجاتهم بانفسهم . وان يكونوا على استقلال تام . وارى ان التربية الادبية في تلك المدرسة رفيعة . وان التلامذة يتحببون باعتناء . وبين المعلمين والطلبة حرية تامة في المعاملات . واتفق ان احدهم اقام عندنا فسحة العيد فاندهشنا من عدم التكليف بينه وبين انجالنا . ولهؤلاء شغف باساتذتهم . وقد تقدم نجلنا البكري تقدماً سريعاً في التعليم اما الثاني فمتأخر الا انه ذو تيقظ اكبر من ذي قبل وصار الاثنان اكثر نشاطاً . ففي المدرسة مجال فسيح لتربية الانانية الشخصية

وليس فيها تعليم ديني مخصوص فقط تتلى الصلوات في الصباح والمساء وما خلا ذلك يذهب التلامذة الى كنيسة الابرشية اذ نحن من مذهب الجماعة ويرتاح اولادنا بذهابهم الى معبدهم . وفي عزمنا ان نرسل نجلنا الثالث في تلك المدرسة لكنه لا يزال صغيراً لان عمره ثمان سنين ونصف

وهذا خطاب آخر

سيدي العزيز

اجيب حضرتكم بكل ارتياح على سؤالكم عن مدرسة (ابوتصولم)

الان ابني فيها منذ سنة . وحالته مرضية وهو يستفيد كثيراً . ولا بد انكم عرفتم شأن المدرسة من نظامها . وهي لا تهتم بالتعليم المدرسي المشهور . الا انها تعتني باللغات العصرية وبكل ما يفيد الشبان في حياتهم . ولها اهتمام عظيم بالصحة وتربية الاخلاق . واطعمتها جيدة متنوعة تخالف الاطعمة التي تقدم عادة في المدارس . والمبادئ التي ذكرت في النظام يعلمها بغاية الضبط والاحكام وجل امتاز بالعقل والاقدام . ذو ميل خصوصي الى تربية الشبان . اما عدد طلبتها فخمسون . ولذلك يعتني بكل واحد منهم على حدته . ولم امكث فيها سوى يومين غير اني اعجبت كثيراً بما شاهدته من المعيشة الراضية . ولم اجد فيها نقصاً الا عدم تعليم التوراة المقدسة ولعلك لا ترى ذلك عيباً اما موقعها فصحي قد كملت فيه وسائل الراحة ومدرسوها على جانب من الظرف والعلم الوافر لان الدكتور (ريدي) يختارهم من ذوي الاخلاق الفاضلة والفضائل الكاملة لكي يبثوا حب الخير في التلامذة وكثير منهم ماهرون في فن الموسيقى اه

فلما قرأت هذه الرسائل واخذت حظي من محادثة موسيو (بيرفردج) عولت على اختبار الامر بنفسي واليك ما وصلت اليه

افتتحت مدرسة الدكتور (ريدي) في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٩ بمدينة ابوتصولم) من اقليم (ديربيتر) وهي واقعة في الخلاء وسط حقل زراعي هو من اعظم وسائل التربية فيها وليس حولها مدن كبيرة ومع كونها قريبة العهد فان احد المتخرجين منها وهو موسيو (بادلي) انشأ مدرسة على مثالها في جنوب انجلترا باقليم (صوصكص) في مدينة (بيدال) وبين

يدي الآن مقالة نشرت في (مجلة المجلات) تحت عنوان (تجربتان) (ابوتصولم) و (بيدال) وصف فيها صاحبها هاتين المدرستين واضاف الى الوصف صوراً تمثل ما احتوتا عليه وقد توجهت الى مدرسة بيدال مرتين وشاهدت بنفسي نظام التعليم وحركة الاعمال فيها

ليس من شبه بين هتين المدرستين وبين مدارسنا الكبيرة الكثيرة المجردة عن الظواهر بل هما اشبه شيء ببيتين خلويين من بيوت الانكليز يشعر فيهما الانسان بالحياة الحقيقية لاالصناعية وعليهما سيماء البيوت العائلية لامظاهر ثكنات العسكرية او ديار السجون . يكتنفهما الهواء والضوء والخلاء والخضرة لاالرحاب الضيقة المحصورة بين المباني العالية . وهذه الهيئة الخارجية تحدث في الانسان شعوراً بان المقام هناك لذيذ اذ ليس من موجب يقتضي ان تكون المدرسة في بناء خشن ثقيل . فاذا دخل الانسان في تلك الدار طابق شعوره الواقع فغرفة الاكل عائلية صرفة ذات منظر بهيج مقبول آنيتها لطيفة ومائداتها مفروشة بالقماش الابيض واثاثها نقي مزخرف وفيها آلة طرب (بيانو) وصور وتماثيل وكراسي مما يدل على الاعتناء بالجمع بين النافع والمقبول . ومن يقابل بينها وبين عنابر الطعام القبيحة في مدارسنا يتبين له من هذه المقارنة وحدها الفرق بين طريقة التعليم في المدرستين

ومما يزيد هذا الشعور حسناً وقبولاً اشتراك المعلمين وناظر المدرسة وزوجته وبناته مع الطلبة على المائدة كأنهم جميعاً عائلة واحدة وبهذه الواسطة لا يشعر الطفل انه انتزع من الحياة الحقيقية لانه لم ينتقل الى عالم صناعي جديد بل خرج من منزل الى منزل مثله بلا تغيير . وصحيح ما جاء

في كراسة نظامها من انها (منزل كامل لا مكان يقتصر فيه على التعليم)
واذ قد عرفت الظرف فلنشرح لك المظروف وارى انه ينبغي الابتداء بذكر ساعات العمل في اليوم ثم نرجع بعد ذلك الى التفصيل

دقيقة	ساعة	
١٥	٦	قيام من النوم (وفي الشتا الساعة السابعة) وفطور خفيف
٣٠	٦	رياضة جسمية واستعمال السلاح
٤٥	٦	الدرس الاول
٣٠	٧	صلاة
٤٥	٧	فطور وهو غذآء كامل من بيض ولحم وغيره يعقبه اصلاح اماكن النوم وكل تلميذ يعد سريره بنفسه
٣٠	٨	الدرس الثاني
٤٥	١٠	طعام خفيف فان كان الوقت صحواً اشتغل التلامذة بالرياضة الجسمانية في الخلاء عارين عن الملابس بطنا وظهراً
١٥	١١	الدرس الثالث
٤٥	١٢	الحان او عوم في النهر بحسب الفصول
	١	طعام الغذآء
٣٠	١	تمرين بآلات الطرب
٤٥	١	العاب واشتغال في البستان والزراعة او رياضة بالمشي على القدم او الدراجة
	٤	اشتغال في المصانع والمعامل

٦ تناول الشاي

٣٠ ٦ غنا ومذاكرة روايات مضحكة وموسيقى ورقص وغير ذلك

٣٠ ٨ طعام العشآء ثم الصلاة

٩ نوم

واول شيء يلاحظه القارئ في هذا البيان تنوع الاعمال في ساعات النهار. ويؤخذ منه ان ادارة المدرسة تخشى تكليف الطلبة فوق جهدهم. ورغبتها في تربية جميع الملكات على السوآء. لذلك يقترن التعليم العلمي بالتعليم اليدوي والتعليم الصناعي. وينقسم الزمن بين الاعمال كما يأتي:

دقيقة	ساعة	
	٥	اشغال عقلية
٣٠	٤	تمرينات جسمية واشغال يدوية
٣٠	٢	اشغال صناعية ورياضات عادية
	٩	نوم
	٣	اكل وخلو عن العمل

فالمجموع اربع وعشرون ساعة

وليس في يوم الاحد عمل ما بل يقضيه الطلبة كما يشاؤون. وبالجملة فان اليوم ينقسم الى ثلاثة اقسام: الصباح وعمله عقلي وبعد الظهر وعمله يدوي في الغيط او المصانع والمساء وعمله الفنون والموسيقى والرياضات العادية. ولنبحث في كيفية استعمال كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة لنقف على نتائجه

اما التعليم العقلي فمداره على القواعد الآتية (تقريب المسميات من اسمائها بحيث يتعود الفكر على الانتقال من المادة الى معقولها وتربية الطلبة على استعمال ما تعلموه والرغبة في التعلم لفائده انفسهم من دون تحريض عليه بمكافأة او امتياز) ومما اشتهر في انجلترا وفي الولايات المتحدة بامريكا ان طريقة التعليم التي يحث فيها التلميذ على العمل بالمكافأة والتمييز معيبة لانها تجعل الغيرة اساس التقدم بدل تأسيسه على محبة الواجب وهي طريقة تولد في الانسان احدى الرذائل . والواجب في تربية الاطفال وجعلهم رجالاً ان يعاملوا معاملة الرجال . فيستفزهم المربي بمخاطبة وجدانهم على قدر الامكان وقد اخبرني الدكتور (ريدي) ان هذه الطريقة لا تضعف من رغبة الاطفال في العمل بل تقويها لانها ليست متعلقة بمكافأة او امتياز بل راجعة الى العمل نفسه اذ يجب ان لا يفهم الطفل ان المكافأة او الامتياز هو الغرض النهائي من التربية وان الحياة مقامرة او ارضاء لشهوة التفاخر والاعجاب

واني اخشى ان يندهش الفرنساويون من مطالعة ما تقدم لان طريقة التعليم عندنا مناقضة لتلك الطريقة على خط مستقيم . غير ان الطريقة التي شرحناها مقول بها من كثير من معلمي الانكليز الذين وصلوا في تربية الرجال الى درجة عالية . والامريكانيون على هذا الرأي ايضاً كما اخبرني به موسيو (بول بيرو) في خطاب ارسله اليّ جاء فيه ان مدير مدرسة القديس (بول) في مدينة (مينيزونا) كتب اليه ضمن رسالة ما يأتي (انا لا نعطي جوائز لتلاميذنا ولا نطلب منهم ان يكتبوا مقالات ابداً

نعم قد يتفق انهم يبحثون جميعاً في موضوع واحد غير اني عند ما ألقي عليهم نتيجة عملهم اجمل كلامي بحيث لا يتبين واحد منهم من هو احسنهم عملاً بل اقول له ان عملك هذه المرة احسن من عملك في يوم كذا او اقل منه . لأني اعتقد انه لا يليق ان يرى الطفل نفسه ارقى من غيره بل ينبغي ان يعرف انه تقدم عما كان عليه هو منذ اسبوع) ولهم في تعليم اللغات العصرية اعتناء عظيم وطريقة تخالف ما جرى عليه غيرهم . وليس من المدهشات ان اقول انا نتعلم اللغات ولكنا لا نعرفها. فمن البديهي ان طريقة التعليم عندنا سيئة ويظهر لي ان طريقة موسيو (ريدي) اضمن للوصول الى الغرض المقصود . فيبدأ في التعليم باللغة الانجليزية مدى السنتين الاولتين اي من العاشرة الى الحادية عشرة . ثم يختار الكلام في السنتين الثانيتين بالفرنساوية . ثم تستعمل اللغة الالمانية سنتين ثالثتين . ولا تقرأ اللغة اللاتينية الا بعد ذلك . وكذلك اللغة اليونانية لمن ارادها من الطلبة ومن الواضح ان هذا التعليم بتلك اللغات المختلطة لا ينتج الثمرة المقصودة الا اذا كانت الطريقة المستعملة عملية ترجع بالنظر الى اللغات الحية الى التكلم اولاً وحفظ النحو ثانية على قدر اللازم في الاستعمال . وهي طريقة جهلها مدرسو اللغات غالباً مع انها طبيعية لان الطفل يبدأ بتقليد ابويه في الكلام من غير عناء ولا التفات ويتمكن من استعماله وهو شيء غير يسير . فلي اربعة اطفال سن اكبرهم تسع سنين . وكلهم يتعلمون الالمانية على هذه الطريقة بواسطة الكلام مع احدى المربيات . واراهم يتقدمون فيها تقدماً سريعاً فانهم بعد اربعة اشهر صاروا يتكلمون بتلك اللغة في العابهم . ومن

العجيب انهم صاروا يستعملونها في خصامهم وهم اليوم يتعلمون نحوها بواسطتها كما يقرأون النحو الفرنساوي باللغة الفرنساوية . وقد اتيت بهذا المثال الحاضر بين يدي لابرهن على طريقة التعليم في المدرسة الجديدة ان كان هناك احتياج للدليل . ولكي لا ينسى التلاميذ اللغة التي تعلموها في اشتغالهم بغيرها وجب ان يتكلموها ساعات معدودة في النهار . كذلك هم يتعلمون علم الحساب فبعد ان يقرأوا القواعد يطبقونها على العمل كأن يكلفوا بصنع شيء يحتاج الى التنسيب بين اجزائه . ومن ذلك اشتغالهم بالمساحة . وتعطى اليهم مصاريف العزبة والبستان والمصنع والالعاب وادوات الكتابة والمعمل الكيماوي والرسم والمآكل وحطب التدفئة ليحسبوها ويفصلوا كل شيء عن الآخر . ومن الظاهر ان هذه الطريقة تجعل الدرس مقبولاً اذ تتبين فائدته لكل طالب . فيتعلمون من الارقام كيف يديرون حركة المنزل . ويتولون ادارة المصنع او المتجر . وهكذا يصيرون رجالاً عاملين متصفين بما تقتضيه معيشة الاجتماع

ويبنى تعليم العلوم الطبيعية على النظر الذاتي وهو سهل لان المدرسة قائمة في الخلاء فلا يتعب الطلبة في جمع العناصر من جماد ونبات وحيوان . ويتعلمون كيف يعيش الحيوان كما يتعرفون عاداته ويفرقون بين اجزائه الخارجية قبل ان يعرفوا اعضاءه الداخلية وهيكله الخفي . ويعرفون شكل النبات وتركيبه قبل معرفة اقسامه وانواعه . واسماء النجوم ومظاهرها قبل قوانين حركاتها . ويتوصلون الى ذلك كله بالرياضات التي قدمنا ذكرها . وبهذه الواسطة يصير العلم طبيعياً عندهم فيقفون عليه كما ينبغي ويقبلون

عليه اقبالاً ويدخل اذهانهم بسهولة ثم يرتسم فيها ارتساماً . ويخرج الطالب من الدرس ميالاً الى الاكثار من معلوماته حتى بعد خروجه من المدرسة لان فائدته ظاهرة لديه لا كالميل الذي يشعر به المتعلم على طريقتنا اذ يتولاه الملل غالباً

وتقرب طريقة تعليم التاريخ من الطريقة المتبعة عندنا في تعليم العلم الاجتماعي . فيجتهد المعلم في بيان الفائدة منه بتقريب العلل من معلولاتها وبيان مدلولات الوقائع لا في تعبئة الذاكرة بالحوادث والتواريخ كما يجتهد في بيان النسب بين طبيعة البلاد وسياستها وتقدم تجارتها . ويبدأ بتعلم التاريخ الانجليزي ثم بمقتطفات من التاريخ العام . فيتعلم الطلبة من تاريخ اليونان اصول الامم الحاضرة . ومن تاريخ الرومان مثال حكومة عظمت فيها السلطة وكانت من اكبر المساعدات على انتشار الامة في الخارج . ثم التعليم واحد لجميع الطلبة حتى يبلغوا الخامسة عشرة وبعد ذلك يختلف لكل واحد بحسب العمل الذي يتوخاه بعد اتمام درسه . وهم يريدون ان يكونوا مدرسين او من ارباب الحرف الادبية او موظفين او من الزراع او الصناع او التجار او المستعمرين . وكل واحد يجتهد في العلم الذي يوافق ارادته . وفي ذلك من التسهيل واللين في التعليم ما تعظم فائدته مما لا يضطر معه جميع المتعلمين الى قراءة درس واحد لايفيدهم اجمعين . وهنا يقال ان التعليم مقصود لمنفعة الطلبة لا ان الطلبة خاضعون للتعليم

وخلاصة القول يدور محور التعليم على الجمع بين العلم والعمل والغرض منه تحصيل المعارف النافعة في الحياة

ولتلقي الدروس التي بيناها ثلاثة اوقات كلها في الصباح وما بعد الظهر من النهار مخصص الى الاعمال اليدوية والرياضات الجسمية . هكذا يربى الجسم بعد العقل . ولاشك في ان الآباء من الفرنساويين يندهشون كثيراً من القسم الاخير لان تربية الجسم عندنا في غاية الاهمال فقد رأيت اخيراً تلميذاً عمره تسع سنين من طلبة مدرسة (سانيسلاس) الخارجيين يشتغل طول النهار فيها ثم يذهب الى البيت منكباً في المساء على درسه الى الساعة التاسعة او العاشرة . وهو تكليف مضر بالصحة وغير مفيد في تحصيل العلم . وسببه وهم البعض بان التلميذ يحصل من العلوم على قدر الزمن الذي يشتغل فيه

ويقضي الطلبة من الساعة الاولى والدقيقة الخامسة والاربعين الى الساعة السادسة بعد الظهر مشتغلين في البستان والزراعة والمصانع والرياضة بالمشي على القدم او الدراجة . والغرض من ذلك كما هو مذكور في الكراسة (انما التربية الجسمية والاحاطة بالاشغال الصناعية وفائدتها وتشجيع العزيمة على المشروعات وتقدير العمل الذي تمت مباشرته ليكون كل واحد عارفاً ما يأتيه بنفسه او ما يكلف بملاحظته من الاعمال . ولما كان فتور العزيمة عن العمل اللازم في الحياة ناشئاً في الغالب من ضعف الجسم وجب ان يتريض التلامذة في كل يوم على الاعمال الجسمانية والاشغال اليدوية فانها تزيد في تقوية الهمة وانعاش الجسم والتخفيف من تأثره مما هو لازم للافراط في الدروس وعدم الحركة)

وقد لاحظوا في ذلك اختيار الاعمال ذات الفائدة العملية حتى يكون

الطالب غير بعيد عن شواغل الحياة الحقيقية فيكاد ان يكون الطلبة هم، الذين بنوا مدرستهم ونظموها وهم الذين صنعوا القسم الاكبر من الاشياء التي يتمتعون بها فيها كما فعل (روبانسون) في جزيرته

كان البستان ايام افتتاح المدرسة مملوءا من الحشايش الرديئة . والعزبة مفعمة بالانقاض . فاصلح الطلبة كل شيء . ثم احدثوا الطرق . ونظموا المصارف . وطلوا الحواجز بالقطران . ودهنوا الاخشاب والمحلات بالالوان. واتخذوا ميداناً فسيحاً للالعاب . وصنعوا كثيراً من اثاث البيت بما تعلموه في المصانع من انواع التجارة . واتفق ان رجلاً من رجال العزبة مرض ثلاثة ايام فقام الطلبة باعماله وملاحظة الماشية . ومال بعضهم الى اقتناء جواد فاشتروه من السوق وعلمهم المتقدمون عنهم ركوبه وقيادته

ويزداد العمل مدة الصيف في البستان والعزبة كما تتغير الالعاب . ولا يلهي التلامذة باخذ صور الاشياء بواسطة الآلة (فوتوغرافية) او بالرياضة على الدراجة الا في اوقات الفراغ . وقد شاهدت من صنعهم مائدة ودولاباً وآلة للنزول في جوف الماء وبيتاً للبط وآخر للحمام ومظلة كبيرة من الخشب (عنبر) ومركبين تامتين وثالثة غير تامة وغير ذلك

وبينما انا اكتب هذه السطور ورد علي كتاب من موسيو (يفردج) يخبرني بانه ذهب بابنه الى المدرسة ويحكي ما رآه فيها فاقتطفت من كتابه ما يأتي (لما وصلت الى المدرسة وجدت عدداً من الاطفال مشتغلين بطلاء آلة لعب صنعوها بانفسهم في السنة الماضية . وقد شرعت المدرسة في اقامة قنطرة على النهر المجاور لها وعرضه من ثلاثين متراً الى اربعين قوائمها من

البناء حتى تصير متينة وسيقوم التلامذة بجميع تلك الاعمال . وشاهدت وادياً صغيراً مغروساً بالاشجار يمتد من ارض المزارع الى مباني المدرسة الموجودة على مرتفع عظيم يعلو عن النهر بمائة قدم تقريباً . وفي وسط ذلك الوادي غدير صغير من الماء قد اتخذ التلامذة فيه حياضاً صغيرة جمعوا بينها بطرق ضيقة وقاموا بجميع ما استوجبته من الاعمال . ولم يستعينوا ببنّاء الا في حالة الضرورة المطلقة . وعولت المدرسة على توسيع بنائها حتى يسع مائة تلميذ وهو اكبر عدد يرى الدكتور (ريدي) امكان قبوله ليتمكن من ادارته كما ينبغي . وقد شرع التلامذة تمهيداً لذلك في مقاس الارض وتخطيط البناء . ويوجد على مقربة من المدرسة معمل كيماوي ومصنع للنجارة يشتغل فيهما الطلبة تحت ادارة موسيو (هيرنومان) الذي رأيتموه في (ايذنبورج) باعمال متنوعة لانفسهم وللمدرسة . ومن نيتهم في الثلاثة اشهر القابلة ان يعلموا التلامذة صناعة الخشب على طريقة (لويد) التي شاهدتموها مدة وجودكم هنا . وليس في داخل المكان شيء من الزخارف التافهة غير ان اساس الغرف قد استجمع موجبات الراحة كلها ثم اني شاهدت على وجوه الطلبة وهم يتناولون طعام الضحى علائم الهناء والعيشة الراضية فاجتمعوا حول ست موائد صغيرة يرأس كل واحدة منها احد المعلمين وانشدوا دعاء الطعام بهمة واشتياق ورأيت بينهم وبين معلميهم حرية تامة واطمئناناً كاملاً ومن عادة هؤلاء ان يمشوا مع الطلبة وقت التريض ويعاملوهم كانهم اخوة اكبر سناً لا باعتبار انفسهم قوماً ممتازين وهم يتحرون على الدوام استعمال الالفاظ المألوفة عندهم وقد ينطقون احياناً

بما يألفه الطلبة عادة من كلمات العامة ولا فرق بينهم وبينهم الا رداء يلبسونه علامة على انهم من العلماء . وللدكتور (ريدي) شغف بتعويد التلامذة على الاشغال الخارجية لذلك ينتدبهم في مهمات جسيمة كأن يرسلهم الى البيوت المالية ليأتوا له بالنقود منها وغير ذلك وظاهر ان غرض موسيو (ريدي من هذه الاعمال الجارية والاشغال اليدوية ليس قاصراً على تعليم الطلبة ما لا يكتسبونه بالدرس والمطالعة بل يتناول تربية اجسامهم وتقويم صحتهم واعدادهم الى التغلب على متاعب الحياة . وله اعتناء في الوقوف بنفسه على ما يحصلونه من ذلك كله فمن كلامه ما يأتي (لقد اردنا ان نقف على تقدم الاطفال وترعرع اجسامهم حتى نعرف جودة غذائهم وموافقة احوال معيشتهم لصحتهم . لذلك نقارن بين تقدم جسم كل واحد منهم مدة وجوده في المدرسة ومدة وجوده في المسامحة ولو انا رأينا تقدمه في المدة الثانيه اعظم منه في الاولى لتبينا ان حالة المعيشة عندنا سيئة . ثم ان الموازين التي نزنهم بها لا تدل على مقدار ما اكتسبوه من الخفة وسهولة الحركة غير انه يهمنا ان لا يكون كسبهم من هذه الجهة مضعفاً لاجسامهم وقد دلتنا تجاربنا على ان النتيجة حسنة) ويلي هذا بيانان احدهما في الوزن والثاني في الطول يعلم منهما القارئ ما كسبه التلميذ في المدتين ويرى انه مدة المدرسة راجحة على زمن الاجازة ولا غرابة في هذا فان نوع المعيشة في المدرسة من احسن ما يطلب لتربية الاجسام قال موسيو (ريدي) (وتدل هذه الارقام من اول الامر على ان مدرستنا تعتبر من جهة تغذيتها وملبسها وحالة معيشتها معمل يتخرج منهُ رجال اشدّاء اقوياء . فالامراض

عندنا قليلة حتى دوار الرأس والزكام اذ من طريقتنا تعليم الشبان ان الرجل ينبغي ان يكون في صحة تامة وان الامراض انما تنشأ عن الخطأ والجهل والافراط في الشغل وعدم ترتيبهِ او من الفساد . ولذلك نجتهد كثيراً في تعويدهم على حب النظافة والتمسك بالقواعد الصحية) ولكل طالب اناء ماء بجانب سريرهِ . وقد ذكرت هذه الجزئية لاقابل بين تلك المدرسة وبين مدارسنا حيث لا يستعمل الماء الا بالتقتير والتدقيق الكلي كانهُ من جملة الزخارف . كذلك نحن نقتصد في الهواء كما نقتصد في الماء . اما في (ابوتصولم) و (بيدال) فان الطلبة ينامون في غرفة فتحت منافذها حتى في الشتاء

الى هنا بيّنا كيف يقضي التلامذة وقتهم من الصباح الى الساعة السادسة بعد الظهر وهو وقت تناول الشاي وبقي ثلاث ساعات حتى يأتي موعد النوم وهذا عملهم فيها

قال (بونالد) في تعريف الانسان (الانسان عقل تخدمه الاعضاء) وقد علمت كيف انهم في تلك المدرسة استخدموا الصباح لتربية القسم الاول وما بعد الظهر لتربية الثاني . الا ان الرجل يزيد على هذا التعريف بكونه مدنياً بالطبع لا محيص له عن الاجتماع . فينبغي ان تكون تربيتهُ موافقة لهُ . والاجتماع يطلب من المرء ان يكون مهذب الاخلاق حتى يكون انيس العشرة مقبول المسامرة بين امثالهِ . وقد خصصت تلك المدرسة الساعات الثلاثة الباقية لهذه التربية قال موسيو (ريدي) (من غرضنا ان نعود الشبان على ما ينفي عنهم الخجل وسوء الحركة ويدعوهم الى الارتياح

من الاجتماع باكبر منهم سناً . لذلك يجتمعون كل مساء في غرفة واحدة مع سيدات المدرسة والزائرين . وقد نظمت تلك الغرفة على مثال منتسق تستريح له النفوس وانتخب اثاثها والصور والتماثيل التي فيها لهذا الغرض) فاذا اقبلت الساعة السادسة تحولت المدرسة الى بهو يتسامر فيه الحاضرون ويلعبون بآلات الطرب واهمها الموسيقى ويترنمون بالاناشيد ويمثلون المضحكات ويقيمون المراقص والملاهي . جاء في الكراسة (ان الموسيقى من اهم اشتغالاتنا فلنا في كل اسبوع ليلة موسيقية وفي كل ليلة ألعاب على (البيانو) ولذلك تأثير عظيم في التلامذة . ولهم ايضاً كثير من آلات الطرب الاخرى وآلات الرسم والتصوير) وقد بنى التلامذة ملهىً لتشخيص الروايات لانهم لا ينظرون الى هذه الالعاب كأنها رياضات بسيطة بل يعدونها من اعظم وسائل التربية . ولهم ليلة في كل اسبوع يقرأون فيها مؤلفات (شكسبير) . وقد تألفت جمعيتان منهم للمناقشة في المسائل المختلف عليها . ولهم جريدة تسمى (مجلة المدرسة) ينشرون فيها اخبارها وحوادثها مصحوبة بصور وفيها قسم للادبيات . ويقول صاحب الكراسة ان الغرض منها تربية الملكات الادبية والفنية وتمثيل المدرسة في اذهان التلامذة كأنها عالمٌ تامّ صغير . ومما يزيد في نمو الملكات الفنية دارٌ للتحف شرع في تأسيسها وقد وجد فيها نسخ من صور اكابر المصورين وتماثيل واثاثات جميلة وغير ذلك . ثم ينتهي اليوم بالصلاة كما بدأ الاَّ ان المدرسة ليست تابعة لمذهب مخصوص من مذاهب (البروتستانت) فهم فيها غير مقيدين بطريقة دون اخرى ولا همّ لهم بما يسمونهُ (الاعتراف)

ويقتصرون في صلاتهم في المعبد وقبل الطعام على تلاوة بعض آيات التوراة ونشيد بعض الالحان والاستغاثة ببعض التضرعات الادبية الدينية العمومية

وللتلامذة من يوم الاحد فسحة يعبد كل واحد منهم في الكنائس القريبة من المدرسة على حسب قواعد مذهبهِ الخاص ويذهب الكاتوليك منهم لسماع القداس في كنيسة قريبة

واليك ما جآء في الكراسة مختصاً بالدين (للدين شأنٌ خطيرٌ في الحياة. فوجب ان تكون ممزوجة بهِ. غير انَّا لا نعلّمهُ التلامذة كأنهُ جزءٌ منها بل باعتبارهِ كلاً منتظماً ينتشر في الذات كلها وان اختلفت المذاهب وتشعبت الطرق. فيجتمعون ربع ساعة في الصباح ومثل ذلك في المساء ليشتغلوا بالدين ويتوجهوا الى ربهم باشارات ظاهرة)

تلك هي المدرسة وذاك هو نظامها. وهي تجربة اراها مفيدة للغاية لانها تدل على ميل الافكار الى اختيار طريقة في التعليم توافق مقتضيات الهيئة الاجتماعية في الاعصر الحاضرة وهي تخالف كل المخالفة جميع الطرق المألوفة في غيرها لما هي عليهِ من التعليم العملي وافراغ جهدها في تربية الرجل من جميع الجهات والوصول بملكاتهِ الى الممكن من التقدم وانماء قدرته وعزيمته وهمته الى الحد المستطاع. وفي هذا ميل الى التربية الاستقلالية التي تنتشر الآن في جميع انحآء المسكونة

يجب في العالم الجديد تربية جديدة يشب المرء فيها معتمدًا على نفسهِ لا على الجمعية او حزب من الاحزاب فينظر في عملهِ الى المستقبل ليكون هو قبلة حياته التي تشخص اليها ويهمل الماضي فلا يربط اعمالهُ بما كان يقتضيهِ

وبينما كنت ذات يوم احادث صديقاً لي بهذه المدرسة قال لي (انها لتجربةٌ مفيدة غير اني ارى فيها عيباً هو ان نظامها داخلي) والداخلية كما هي عندنا في البلاد الفرنساوية نظام مضر في الحقيقة بالتلامذة جسماً وعقلاً لانها تجعل المدرسة ثكنة تحشد المئآت من الاطفال في اماكن ضيقة وفي نظام اشتدت مقتضياته وذلك ادعى الى اضعاف الهمم واولى بتربية العساكر والموظفين منه بتربية عزيمة الافراد واطلاق الصراح لما فيهم من القوى وما فطروا عليهِ من الاقتدار . لكن من الخطأ الواضح عدم التمييز بين هذه الحال وبين التي شرحناها فلا جامعة بينهما الا في الاسم . ومن الواجب التحرز من الالفاظ لانها تطلق غالباً على مسميات لا شبه بينها فعدد الطلبة في تلك المدرسة محدود لا يزيد اليوم على الخمسين ولن يزيد في المستقبل على المائة كما صرح به الدكتور (ريدي) لعلمه ان الزيادة عن ذلك تعيق سير التربية . ثم انهم لا يخرجون من عائلاتهم الا ليدخلوا في عائلة اخرى وهي عائلة ناظر مدرستهم التي تقاسمهم الحياة في المآكل والمقام . فحياتهم في الواقع حياة عائلية على مثال اوسع . ثم انقطاعهم عن عائلاتهم اقل منه عندنا لان اجازاتهم اكثر من اجازاتنا ومدتها اطول : يسامحون سبعة اسابيع في الصيف واربعة في الميلاد وثلاثة في الربيع وبذلك يقيم التلامذة بين عائلاتهم ثلاثة اشهر ونصفاً في السنة على مرات متعددة ويظلون ذاكرين عوائدها وتقاليدها

لكل نوع من انواع الجمعيات تأثير خاص في طريقة التربية وهو الذي تنتزع منه الامة نظام مدارسها

فمنها الجمعيات الاتكالية العائلية وتمتاز بانضمام عدد من تلك العائلات الى بعضها في منزل واحد . وهو المثال الذي تأخرت فيه اغلب الامم الاسيوية وامم الشرق الاوروباوي . هنالك لا يعتمد الاطفال على انفسهم في كسب حياتهم بل اعتمادهم على جمعيتهم العائلية حيث يبقون فيها لتقوم بحاجاتهم او يرجعون اليها ان ادركتهم الخيبة في طريقهم . ومن كان هذا شأنه ضعف شعوره بالحاجة الى التعليم الشخصي فيهبط ذلك التعليم الى اسفل الدرجات وربما اقتصر فيه على معارف العائلة مستعينة بنصائح احد رجال الدين . ومن المعروف ان شأن المدارس في تلك الجمعيات غير خطير ففيها مثال التربية المحصورة في العائلة والموكول امرها الى العائلة

ومنها الجمعيات الاتكالية الحكومية . ومميزها قيام الحكومة مقام العائلة التي انعدمت فتنحصر آمال الشبيبة في وظائفها الادارية والعسكرية . وهذا شأن اغلب الامم الغربية الاوروباوية واخصها فرنسا والمانيا . وينبغي للطلبة في نوال تلك الوظائف ان يفوزوا في امتحان تزداد صعوباته كل يوم تخلصاً من تكاثر الطالبين . واذ ذاك تحول المدارس وجهتها الى طريقة جديدة في التعليم فتكلف الطلبة ما لا طاقة لهم على احتماله وتطلب من الذاكرة حفظ المعقولات من غير تفقه . فما الغرض من التعليم تربية رجال قادرين على احتمال متاعب الحياة بل المراد اعداد الطلبة للمخاطرة في الامتحان . واعظم المدارس نجاحاً في ذلك هي التي اختارت نظام الداخلية لانها تضحي كل فائدة الا ما قصد به الامتحان كأنما حياة المرء تنتهي بالامتحان فيجتهدون في توصيله اليه بتكليفه ما لا قدرة له عليه . ومن

فائدتهم انه يوجد في المدرسة الواحدة خمسمائة تلميذ او الف او اكثر من ذلك لان المعلمين لا يعتنون بكل واحد على انفراده كي يصير رجلاً كاملاً يقوم مقام رب عائلة . وعليه ليس للاختلاط فائدة وليس احسن المعلمين في تلك الاحوال اكثرهم علماً او اكملهم وقاراً او ابعدهم نظراً بل احذقهم في حشو رؤوس التلامذة بكثير من المواد في اقرب وقت ممكن واكثرهم خبرة بطرق النجاح في الامتحان وادراهم بطرق الممتحنين واخلاقهم

والنوع الثالث هو الجمعيات الاستقلالية ومثالها الامم الاسكنديناوية والانجليزية السكسونية . وتختلف مدارس هذا النوع عن مدارس النوعين السابقين : هنالك لا يعتمد المرء على العائلة لانحلالها ولا على الحكومة لقلة وظائفها وعدم انحصارها في يد واحدة بل كل اعتماده على نفسه وهمته واقدامه

ومن هنا وجب ان يكون الغرض من التعليم تربية تلك الملكات كلها حتى يكون مفيداً للرجال في اعمالهم وان تكون المدرسة قريبة الشبه في نظامها من الحياة الخارجية على قدر الامكان . وهي لا تصل الى تلك الدرجة الا اذا كانت صغيرة وعدد تلاميذها غير كبير واولى في المدينة ان ينام الطلبة في بيوتهم ليلاً وفي الريف ان يقيموا في المدارس على الدوام . وينبغي في هذه الحالة الاخيرة ان تكون حالة المعيشة فيها شبيهة بمعيشة العائلة كي لا ينفصل الطفل عن عاداته في بيت ابيه

ومن هنا يتبين انه لا يكفي تقسيم المدارس بحسب كونها داخلية او خارجية بل تلاحظ انواع كل من القسمين فلكل نوع نظام مخصوص .

ومعيشة ممتازة ونتائج على حدتها

ويؤخذ مما قدمناه ان السبب في عدم إمكاننا اصلاح مدارسنا على النحو الذي شرحناه هو حالتنا الاجتماعية اي اخلاقنا التي تدفع الشبان نحو الامتحان والوظائف التي يؤدي اليها . وقد يظن البعض ان نظام تلك المدرسة لا يفيدنا الا من قبيل العلم به وهو خطأ لانا نعلم انه لما كان عدد التلامذة قليلاً كان امل النجاح في الامتحان مع الاجتهاد كبيراً . ولكن الاحوال تبدلت وتزاحم الشبان على الوظائف وجرت الطبقات الوضيعة من الامة على مثال الطبقات الوسطى حتى صار لكل وظيفة مائة طالب . فلا يجد الطالب بعد الامتحان باباً يدخل منه على الوظائف بل سوراً منيعاً بعيد المنال وليس من الحكمة حمل الشباب على مناطحة هذا السور . لذلك اخذ المتأملون يخففون من احتقارهم للمهن الحرة . غير انها يجب لها صفات لا تنتجها تربيتنا الحالية كما هي من ثمرات تلك المدرسة التي بينا نظامها

الفصل الرابع

﴿ كيف ينبغي ان نربي اولادنا ﴾

اعتدنا معشر الفرنساويين في ايجاد مرتزق لابنائنا على امهارهم بشيء من المال نجمعه بالاقتصاد ثم نتبع ذلك بالبحث لهم عن زوج او زوجة متناسب في الثروة . وبعد ذلك نجتهد في انالتهم احدى الوظائف العمومية

متى تيسر . وقد قامت العقبات هذه الايام في سبيل النجاح بهذه الواسطة لانخفاض فائدة النقود . فبعد ان كانت خمسة في المائة صارت اربعة ثم ثلاثة وصار من المتعذر جمع المال اللازم للابناء . وقد كانت هذه الصعوبة خافية عنا الى هذا اليوم لوفرة المال عندنا فانك تسمع الناس من كل جانب يقولون ان فرنسا بلدة غنية لديها كثير من الاموال وهو صحيح بدليل ان اكبر سوق للنقود يوجد فيها . غير انه لسوء الحظ ليست وفرة المال من عمل الامة خاصة بل سببه احوال عرضية لا تدوم طويلاً وتلك الاحوال في الحقيقة من امارات الانحطاط لا من علامات التقدم والرخاء

فمن تلك الاسباب الاقتصاد في النسل اذ لا شبهة في ان عدد الفرنساويين يقل سنة عن سنة فقد دل التعداد الاخير على ان الوفيات تزيد على المواليد . وهي حالة نادرة الا انها اليوم خاصة بفرنسا حتى جعلتها في مؤخر الامم . ومن هنا اي من قلة عدد الذرية يكثر المال لان الرجل الذي يصرف ستة آلاف فرنك في السنة لتربية ستة من الاولاد لا يصرف الا الفاً في تربية ولد واحد ويقتصد خمسة آلاف في كل سنة . وللفرنساويين ميل شديد الى هذا الاقتصاد لذلك تراهم اكثر مالاً من الامم التي يكثر فيها عدد افراد العائلات . وهذا من الاسباب التي جعلت في فرنسا اكبر سوق للنقود

ثبت اذاً ان لقلة الاولاد دخلاً في وفرة المال . وهناك سبب آخر هو تباعد الفرنساويين عن المهن الجارية وهربهم من الزراعة والصناعة والتجارة فلا يميل اليها الا القليل والكثير يفضل عليها الوظائف الادارية .

لهذا اجتمع الاطفال كلهم حول مدارس الحكومة حيث يضيع مستقبلهم في جوانبها . فكل من كسب درهماً او درهمين من الزراعة او الصناعة او التجارة يمسي ويصبح مفكراً في الخروج من مهنته وفي تربية ابنه ليكون ضابطاً في الجيش او موظفاً في الحكومة او من الكتاب واهل الادب . وعليه فالفرنساوي لا يدبر ما جمع من المال بنفسه بل يدخره حتى يرمي بهِ في اسواق البيع والشراء المالية (البورصة) وهكذا كان هرب الفرنساويين من الحرف والصنائع موجباً لزيادة المال المخزون . الا ان هذه الاسباب التي تدعو الآن الى وفرة المال تؤدي اخيراً الى النقص فيه سنة بعد الاخرى وتنتهي بضياعه في زمن يتخيلون انه بعيد . فكما ان نقص الاطفال يزيد في الاموال فانه من جهة اخرى يضعف القدرة على الاعمال فان كان للرجل ستة اولاد لزمه ان يشتغل كثيراً وكثرة شغلهِ تزيد في ثروة الامة . فان لم يكن لهُ الا ولد واحد قل عملهُ وضعف تأثيرهُ في انماء الثروة العمومية . وكذلك اذا خرج الطفل من عائلة كبيرة العدد قل امله في ثروة ابويه وعول في رزقه على نفسه فيزداد اقدامه على العمل وتكبر فيه الهمة بخلاف ما لو خرج من عائلة هو وحيدها فانه يجعل كل اعتماده عليها ولا يعول على نفسه الا قليلاً . وزد على هذا ان نفورنا من الصنائع ذات المكاسب وان سهل لنا ان نلقي بجميع ما اقتصدنا من المال في الاسواق المالية يبعدنا عن منابع ذلك الاقتصاد اذ لا مصدر للثروة العمومية الا الزراعة والصناعة والتجارة وقد نسينا ان غيرها من المهن والحرف دخيل ليس بالاصيل وان مرجعها كلها الى تلك المنابع الثلاثة

وربما قال بعضهم ان تلك الحالة تدوم لنا بدوامنا فنجيب بان ذلك غير مأمون وعلى كل حال فمن المحقق انها لا تدوم لاطفالنا . الا ترى ان كثيراً من اولئك الشبان التعساء لا ينجحون اليوم في الامتحان لكثرة عدد الطالبين مع ازدياد عدد الوظائف الى حد الافراط فهم اشبه بالظمآن يرى السراب فيظنه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً . وليت شعري ماذا يفعلون بعد ذلك كما لست ادري ما الذي في امكانهم ان يفعلوه

وما الذي اهلتهم اليه تربيتهم في العائلات والمكاتب والمدارس غير الحرف الادبية والمصالح العمومية والوظائف الحربية . كم قالوا لهم انها اشرف الصنائع وانه لا يليق بهم سواها لا فرق في ذلك بين عائلات الطبقة الوسطى وعائلات الدرجة السفلى حتى صار كل الناس يذكرون ذلك في القصور والحوانيت والمدن والارياف واصبح كل شاب يحلم بالوظائف في الحكومة وامسى على باب بعض الوظائف آلاف من الطالبين كما تشهد به التقارير الرسمية وظل اولئك التعساء يتقلبون على جمر الانتظار وقد غصت بهم رحاب المصالح وملأوا جيوبهم من رسائل التوجيه وجعلوا يندبون حالهم وينتحبون ولا يحجمون عن امر الا استعملوه اللهم الا رجوعهم الى انفسهم وطلبهم الرزق بعملهم مما ربما كان اوفر حالاً واعظم ثمرة ومما هو بلا شك ادعى الى الاستقلال واولى بحفظ الكرامة . وما عدولهم عن ذلك الا من خوف الخيبة لذلك فضلوا التردد على الوظائف مهما صغرت وان ردوا . وطال عليهم امل الانتظار وظنوها حالة يحسدون عليها فطالب الاستخدام يلتحق بالمستخدمين في رأي هذه البلاد التي سادت فيها

الوظائف وا اسفاه وان ذابت مرارته من الانتظار على مقاعد الحجاب وصغر المطلوب وعز النوال . كذلك هم يعدلون لكونهم لا يقدرون على تلك الصنائع المستقلة لان تربيتنا الفرنساوية كما باتت الممكن من تخريج الموظفين قد وصلت الى العدم في تربية الرجال المستقلين ممن لهم همة وقدرة على مغالبة متاعب الحياة . فلا يليق شبابنا لغير تلك الوظائف التي يكونون فيها تابعين ويفرحون لكونهم يتناولون بلا عناء في آخر كل شهر راتباً معدوداً ويعرف الواحد منهم مصيره قبل دخوله في الوظيفة وانه اذا بلغ من العمر كذا صار وكيلاً لرئيس واذا بلغ كذا صار رئيساً لاحد الاقلام ثم اذا بلغ كذا تقاعد واخذ المعاش. ولا يجهل من تلك الازمان الا زمن الموت . وظاهر انه لا يمكن حصر دائرة الحياة في حدود اشد ضيقاً من هذه الحالة

ويستخلص مما تقدم انه ينبغي لنا التنويع في تربية ابنائنا اذا اردنا ان يكونوا قادرين على حياتهم في الازمان التي استهلت مستعدين لمقاومة سوء الحال الاجتماعي الذي قد فتحت ابوابه

الحرج الاجتماعي اليوم عام ولا بد معه من وضع مسئلة التربية موضع النظر والتفكير . والحقيقة التي يجب ان تتخذها قاعدة للبحث فيها هي ان طريقة التربية المستعملة الآن لم تعد صالحة في الغرض المقصود منها وانه لا بد من العدول عنها لانه لا نجاح فيها . الا ترى ان الرجل يأتي كل شيء يعتقده مفيداً لابنائه ولا يهمل شيئاً مما افاده هو ومع ذلك لا يصل ابنه الى ما وصل اليه حتى اصبح الآباء المجدون ذوو الافكار ممن حسنت تربيتهم واستقامت عشرتهم يتساءلون وهم حيارى كيف يربون ابناءهم

ويجعلون لهم مرتزقاً . هذا خزلان لا تخلص منه ومهواة لا تحرز منها الا بالعلم الاجتماعي . نقول ذلك لان الخزلان موجود فالناس تحمر وجوههم من هذه الحال ثم يغضبون ثم يرون الجو مظلماً ويقولون ان روحاً خبيثة انتشرت في العالم وان الناس جبنوا فتركوا المبادئ الصحيحة ثم يشتد الغضب فيصخبون ولكنهم يبقون على ما كانوا عليه معتقدين انه هو الذي يجب الرجوع اليه فيخيبون خيبة كاملة

اما العلم الاجتماعي فهو اكبر اعتدالاً واصدق مقالاً يختبر الحوادث ويقارنها ببعضها ويميز اشكالها ويعلم الناس ان العالم منتقل من حال الى حال احسن منه غير موقت بل دائمي . وهذا الانتقال يفصل الدهر الى قسمين ماضٍ ومستقبل وهو الذي يريهم اسباب الحرج الحاضر ووجهته وغايته وانه حرج لا يشابه غيره من بعض الوجوه

فمن تلك الاسباب تغير طرق الكسب والمواصلات على الدوام اعني تغير طرق المعيشة . لان العامل كان في الماضي يعمل في مصنع صغير او في بيته او بيت المصنوع له وكان المقبلون على سلعه قليلين لا يخرجون عن اهل قريته وكان صنعه في الغالب يدوياً او بآلات صغيرة وكانت طرق العمل واحدة يتلقاها الخلف عن السلف وكان الجديد في الصنع معدوماً او نادراً ولم يكن من مسابقة الا بين المتجاورين لان طرق المواصلات كانت قاصرة لا تساعد على تسفير المصنوعات الى البلاد القاصية وجلب غيرها منها وكانت المنافسة ضعيفة لما القوه في ذلك الزمن من وضع النظامات التي لا تجعل للتزاحم محلاً حيث تقررت طرق العمل وتحدد عدد

المعلمين والمتعلمين وغير ذلك . وبالجملة كانت الافكار متجهة الى المحافظة على طرق المعيشة المألوفة . ومن اجل هذا كانت التربية موافقة لمقتضيات الزمان تعلم الشبان ما تعلمه آباؤهم وتهيئهم الى ما عرفه الماضي من الاعمال وبقيت كذلك تنتج النتائج الحسنة زمناً طويلاً . اما الآن فقد تغيرت الازمان وتبدلت احوال الاجتماع الانساني وصار العامل يشتغل في مصانع كبيرة بآلات ضخمة ويبيع سلعه في طرفي المسكونة وكل يوم يزداد عدد الطلاب وطرق العمل تتغير في كل حين تبعاً لتقدم العلوم . وقام الجديد مقام التقليد والاتباع واشتدت المزاحمة ووجب على الصناع تفادياً من شرها ان يبحثوا دائماً عن طرق تمكنهم من اكثار سلعهم او تحسينها او تخفيض اثمانها . وتحولت المعيشة من هدو واستقرار الى حركة وتجديد واختراع . ومن اهم ما تجب ملاحظته انه ليس في وسعنا اختيار احدى الحالتين لان الحالة الجديدة صارت ضربة لا مفر منها

ومعلوم ان تغير طرق المعيشة يستلزم تغيير حالة العالم باجمعهِ . ومن هنا تولدت المسئلة المعروفة الآن بالمسئلة الاجتماعية وهي عبارة عن البحث في وسائل الحياة

والسبب في ظهور هذه الحالة الجديدة ظهور العلوم الطبيعية التي لم يقف العلماء على منتهاها بل هي لا تزال في مباديها كما يراه ويشهد به كل انسان . فمن ذلك الحين انحدر المجتمع الانساني في طريق تبدل احوالهِ المادية انحداراً لا يقاوم وانحلت الجامعة بين الحاضر والماضي لما اعتاد هذا من البقاء على حالتهِ الاولى ولما اضطر اليهِ ذاك من ايجاد الوسائل التي تمكنهُ

من استخدام تلك التقلبات في فائدته ورفع مضارها عنهُ . والفرق بين الزمنين كالفرق بين الجندي الذي يحارب من داخل الحصن والجندي الذي يحارب في البيداء وهو فرق جسيم كلي . وليس بصحيح انهُ نتيجة ميل الناس الى الشر في هذه الازمان وجبن طباعهم كما هو رأي من لم يتدبر الحوادث ويتفقه الاحوال بل هذه حالة مادية جديدة في العالم قضت بها القدرة الالهية بما هدت اليهِ من العلوم الطبيعية التي من خصائصها التقدم والترقي . وما على المرء الا ان يكون بحال تطابق هذا التقدم فان في ذلك مصلحته بل ان هذا صار من واجبه

قلنا ان العلم الاجتماعي يوضح اسباب الانحطاط كما انهُ يبين الغاية التي يسوق الناس اليها وهي واضحة

يسوق الانحطاط الناس الى حالة جديدة غير التي هم فيها . فلن يتأتى لامرء ان يعيش محصوراً في دائرة محدودة ولا ان يعتمد في معيشته على غيرهِ ممن تعود الآن على مساعدتهم ولا على الاسترسال مع العوائد التي الفها بين قومهِ لان الوسط الذي يعيش فيه مائل ايضاً الى التمزق والانحلال بتأثير ذلك التغيير المستمر في حاجاتهِ المادية كما اشرنا اليه . والرجل اذا تربى في وسط مخصوص حتى صار يعتمد عليه في جميع اموره لا يستطيع البقاء اذا فسد ذلك الوسط بل انه يتغير بتغيره . ومن هنا وجب ان يكون الغرض من التربية تعويد الانسان على الاعتماد على نفسهِ في حياته فلا يحتاج في طلب الرزق لغيره وان يكون قادراً على ان يدور مع الزمان كيف يدور . وهي الآن لا تنتج الا التمسك بالوسط الذي نشأ فيهِ

والاستعانة بعائلته وطلب المساعدة من معاشريه والاتكال على بعض الصنائع العرضية كالتوظف في مصالح الحكومة او الاحتراف بالاعمال الهينة التي لا تكلفه جداً ولا كدّاً

وبالجملة لا فائدة اليوم من التربية اذا اقتصرت على تعليم المرء ان يعيش في وسط مخصوص كالعائلة او اهل المدنية او السياسة . وانما هي تفيد اذا علمته ان تكون ذاته الوسط الذي يتكل عليه فيتمكن من استعمال قواه في جميع الاحوال كما خلقه الله

وهذه التربية مخالفة لما جرت عليه الامة الفرنساوية من اول هذا القرن الى يومنا هذا . فترى الآباء اذا تكلموا عن ابنائهم يكررون هذه الكلمات (ما عليهم الا ان يعملوا عملنا ـ كفى بالمرء اهله واصحابهُ ان يتقدم ويترقى في الحياة ـ يلزم لاولادنا ان ينالوا وظيفة في الحكومة كأن يعينوا في المحاكم او الجيش او الادارة لان الرزق هنالك معروف مأمون فلا نخشى عليهم من المحن فيها ـ لنا من الثروة ما يدرأ الحيرة عن ابنائنا فسنترك لهم كفاياتهم متى عينوا في وظيفة بمرتب مضمون وتزوجوا بمن تأتيهم بمهر جزيل) ومثل ذلك من الافكار التي نعرفها كلنا وربما وردت على السنتنا

غير انها لم يعد لها في الخارج معنى صحيح ولن تكفي العائلة ولا تنفع الاصحاب والوظائف والمهرعامة الناس لانفسهم ولاولادهم . وليس للانسان الاّ ما سعى وان يكون قادراً بنفسه على كفاية نفسه مستمداً بذاته الى اقتحام مصاعب العيش ومغالبة صروف الحياة . وهنا الصعوبة كل الصعوبة لان الناس لم يتعودوا ذلك ويجهلون اي طريق فيه يسلكون . على ان

الفائدة عظيمة فلا ينبغي افلاتهـا اذ التربية الجديدة التي يستصحبها الناس تربي الرجل على فضيلة الاعتماد على نفسه وتخلق فيه من الشجاعة ما يساعده على مقاومة تقلبات الاعصر الحاضرة . والفرق بيننا من حيث اعتمادنا على اهلنا واصدقائنا وبين الامم التي تربت افرادها على القيام بشؤون انفسهم بجدهم وعملهم كالفرق بيننا من حيث قوة التغلب وقابلية الاستظهار وبين تلك القبائل المتوحشة التي تدخل في ديننا تبعاً لدخول رؤسائهم فيه

تلك هي اسباب الانحطاط في التربية وغيرها . وهذه وجهته وغايته ولا بد لنا من تخطي هذه العقبة طائعين او مكرهين . ولا بد من العمل على نقيض ما نحن فيه الآن

في التجارب هادٍ يرشد الى الطريقة المثلى لنوال الغرض الذي ندعو اليه . فيها امان من التخبط والزلل . ومعلوم انه لا تجارب عندنا لان كل شيء في بلدنا يجري على نقيض المطلوب . وجب اذن ان نستعير تجارب غيرنا من الامم التي اجتازت هذه العقبة وصارت تربي شباناً قادرين على العمل بانفسهم من دون احتياج الى اهليهم او اصدقائهم او حكومتهم . وتلك الامم موجودة لا ينكرها الا الذين ليس لهم اعين يبصرون بهـا وهي التي اصبحت تغير على الدنيا وتستخرج مجهولاتها وتستعمرهـا وتقصي عناصر الدنيا القديمة في تقدمهـا وتأتي هذه المعجزات كلها بقوة الهمة الشخصية وسلطان رجال لا يعتمدون في عملهم الا على انفسهم . ولنـا في المقابلة بين ما فعله رجل التربية الجديدة في امريكا الشمالية وما فعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تربيتنا من سوء حظنا في امريكا الجنوبية ما يكفي للاقتناع

بصحة قولنا

الفرق عظيم كما بين الابيض والاسود فاهل الشمال قد بلغوا في الزراعة منتهاها وحازوا من الصناعة والتجارة اقصى المراتب • وفي الجنوب امة اقعدها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفترت عزائمها داخل المدن وفي مصالح الحكومة وفي الاشتغال بالثورة السياسية • في الشمال ترى المستقبل مشرقاً وفي الجنوب ترى الماضي مولياً . ثم قد تولى ذلك الماضي واصبح رجال الشمال الاشداء الاقوياء يهبطون الى امريكا الجنوبية التي ساء بختها وجعلوا يضمون ايديهم على اعظم مواقع الزراعة التي اماتها الكسل الاندلسي او البرتغالي فاصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى

كنت اتحادث في هذا ايام المعرض العمومي في باريس مع رئيس قسم جمهورية (ارجنتين) فخبرني بغارة الانكليزي واخيه (اليانكي) وكان محزوناً يتأسف ويشدد النكير على غيره شأن الضعيف على الدوام لان القول اسهل من حمل النفس على الجد حتى تساوي الاقوياء • على ان اولئك الذين ينافسونهم لم يتعودوا على غير هذا الاجتهاد والدأب المستمرّ فهم امم لا تخاف فتيانها عيشة التزاحم والتنافس • وما حفظت تلك الامم قوتها الادبية والدينية الا بتمسكها بانانيتها واعتمادها على نفسها • ثم ليس الدين متيناً فيهم كما هو في الكنيسة مثلاً غير انهم اقل عداً للدين بكثير منا معشر الفرنساويين • والسر في ذلك شعور كل فرد منهم بان تبعة عمله راجعة اليه دون سواه

وليس هذا بغريب لان المرء في الجمعيات القديمة كان يعتمد على وسطه ويتبعهُ قوة وضعفاً وسعةً وضيقاً اكثر مما كان يعتمد على نفسه وهمته وارادته الخاصة . وذلك الوسط اما ان يكون العائلة او الداخلية في المدارس او الفرقة العسكرية (الاي) او المصلحة التي هو موظف فيها او السياسة وهكذا . وكانت اللحم التي ترتبط بها حياته في الافكار والمعتقدات والتقاليد السياسية والعوائد الاجتماعية والدينية خارجة عن ذاته لا مستمدة منها . فهو يفكر او يعمل على هذا النحو او على ذلك لانه رأى الوسط الذي عاش فيهِ يفكر هكذا ويعمل هكذا . ومتى انفرط عقد نظام هذا الوسط ذهب كل فرد على ام رأسهِ لا يدري اين يضع قدميه لانه انما كان يقوم بذلك الوسط . ولقد كان الوسط في الهيئة القديمة قوياً متيناً مقوماً لجميع الافراد وإن ضعفت منهم العزائم وانحلت الارادة . وكان بين الوسط وافراده تفاعل هذا يقوي ذاك فكان المجموع متمكناً في وجوده كالبيت العتيق لا يزال قائماً لارتكازه على المنازل التي تجاوره . غير انه لا يلبث ان يلبي داعي السقوط اذا هدمت تلك المنازل . وعليه ينبغي الحذر منها

هذا هو الذي كان من امر وسطنا الاجتماعي القديم فانك ترى اليوم بقاياه بعد ان تهدم منثورة في جميع الارجاء . وما كنا مستعدين لنخرج منه ونستعيض بغيره عنه . لذلك ضل رشدنا وبقينا نطلب المعونة من الملاجئ التي تعودنا الحياة تحت حمايتها كالعائلة والطائفة والحكومة الجمهورية في نظر قوم او الملوكية المقيدة في نظر آخرين ومن الكنيسة ومن كل شيء الا من انفسنا وقد ملأنا الفضاء بالعويل بدل ان ننظر الى

الامم التي لا تعتمد على غير همة الافراد الذاتية فنقلدها ونحذو حذوها كما يفعل الرجال

واذا اردت الوقوف على معاملة تلك الامم لابنائها فاليك البيان :

اولاً لا يعتبر الرجل فيها ان الابناء ملك لهُ وجزء من ماله متمم لذاته كأن الاب يعيش في بنيه بعد وفاته بل ينظرون اليهم بصفتهم افراداً مصيرهم الى الاستقلال عنهم. ولذلك لا همّ للآباء الا تعجيل هذا الاطلاق المحتم على النحو الاكمل ولا مرجع لابوتهم الا هذا. فلا يحملهم حبهم لانفسهم على ابتلاع ابنائهم والصاقهم بجانبهم وتعويدهم ما اعتادوا واتخاذهم حاشية يتلذذون بالنظر اليها ويرتاحون لطاعتها وقلة متاعبها. اما نحن ففي ميلنا لابنائنا جزء عظيم من حب الذات وان كان مستوراً بستر جميل فاني رأيت وكلنا رأى كثيراً من الناس رغبوا عن الزواج بعد ما رغبوا فيه لان الزوجين لابد ان يقيما في مدينة غير التي يسكنها الوالدان وما ظنك بما لو وجب ان يقيما في بلاد اجنبية . والسبب في هذا شدة حب الوالدين ولعمري لست ادري ان كان يراد بهذا الحب منفعة الآباء او مصلحة الابناء

ثانياً من عادة اولئك القوم ان يعاملوا ابناءهم منذ نعومة الاظفار كانهم رجال كل واحد منهم قائم بذاته مستقل عمن سواه . وبهذه الواسطة يصير كل واحد منهم رجلاً كبيراً وذاتاً حقيقة اذ لكل امرء من دهره ما تعودا اما نحن فنعامل ابناءنا كالاطفال وهم صغار وكبار وبعد ان يصيروا رجالاً لاننا تعودنا ان نعتبرهم اطفالاً لعلة انهم اطفالنا

ثالثاً يلاحظ الآباء في التربية حاجات الامة المستقبلة في الحياة غير

ملتفتين الى ما اقتضاه الماضي ودرج عليهِ الجيل المتقدم • فلا ينصبون انفسهم امام ابنائهم مثالاً يمشون عليهِ ولا يشخصون الوسط الذي عاشوا فيهِ ليتبعوا خطواتهم فيهِ • اما نحن فنجري في التربيـة على نسق اشراف السنين الاخيرة من القرن الماضي حيث كانوا في اول القرن الحالي يربون اولادهم على تقاليد الزمن القديم وعلى ما كان لهم فيهِ من المنزلة الممتازة والثروة التي فرت من بين ايديهم والبلاط الملوكي الذي كانوا يمرحون في جوانبهِ وآثار ليس فيها اليوم فائدة لكونها عفت واصبحت خيالاً

رابعاً لتلك الامم عناية كلية بصحة الابناء وتربية قوتهم الجسمانية الى الحد الممكن انماء لهمتهم المادية لا كما نفعل نحن من الاقتصار على الاعتناء بالصحة ثم نضحيها في الدرس والمطالعة ونهكها بالامتحانات ولوازمها والاقامة في المدن وما يتبعها • وهم لا يطلبون تلك القوة بالافراط في الرياضة البدنية او اجهاد الجسم بما يؤدي في الحقيقة الى ضعفهِ او التفنن في الحركات الجمنستيكية وانما هم من ذوي الحذق في معرفة لوازم الاجسام

على اننا اليوم نحاول ادخال طرق الرياضة الجسمية الانكليزية في مدارسنا لنعتاض بها عن الجناس المضر عندنا وليس هو الا اثراً من آثار التفنن الجديد في التربية لا فائدة فيهِ وليس من حاجة صحيحة اليهِ ولكننا نحافظ دواماً على الوسط الذي يحدق بنا انى وجدنا • ولا نجهل ان قومنا لم ينجحوا على الدوام في استعمال الرياضة الانكليزية عندنا لانهم يضيفون اليها كما هي عادتهم في كل شيء كثيراً من الخلاعة والاعجاب كما لا نجهل انهم ينظرون اليها كأنها وظيفة ادارية يشددون في تنظيمها وترتيب اوقاتها

واعمالها وان كثيراً من التلامذة يميلون اليها هرباً من الدرس والمطالعة . غير ان هذا المثال الناقص يدل على اصلهِ . ومما لا اشك فيهِ ان تلك الالعاب تلائم نموّ الجسم كما ينبغي وتساعد كثيراً على تعويد النفس السكون فيصير صاحبها متمكناً من ذاتهِ وهذا شرط لا بد منهُ لمن طلب النجاح

خامساً يعود الآباء ابناءهم في تلك الامم منذ الصغر على الاشتغال بالاعمال المادية فلا يخافون ان يتركوهم وحدهم يروحون ويغدون ويكلفونهم ببعض الاعمال او ببعض المأموريات التي تليق بسنهم ويقصدون احياناً انها تكون فوق ذلك . وهي عادة يستغرب منها الفرنساويون اذا ذهبوا الى بلاد انكلترا او الولايات المتحدة كما يستغرب الانكليز من استغرابنا اذ يرون ان الامر الذي يدهشنا طبيعي وهو في اعتبارهم احد عوامل التربية والتعليم وان الغرض منهُ اولاً وبالذات تكوين الرجال لا مجرد المتنورين والموظفين . ولولا انني اخشى من أن خجل القراء عندنا لخبرتهم انهم لا يفرقون في هذه التربية بين البنين والبنات الا قليلاً فالدواعي واحدة بالنظر الى الفريقين . ومع ذلك فان تقليدهم في هذا الباب من غير ان يستعد الوسط لقبولهِ يضر اكثر مما يفيد فهو عندهم اكثر فائدة واقل ضرراً مما هو عندنا . والمقام لا يحتمل ان اوفي البيان حقهُ في هذا الموضوع فربما جر الايضاح الى اكثر مما يراد

سادساً يعلم الآباء عادةً ابناءهم صنعة يدوية لان تلك الامم لا تحتقر تلك الصنائع ذلك الاحتقار العظيم الذي نجده من نفوسنا بل انهم تخلصوا منذ زمن طويل من هذا الوهم الذي اضر بنا اكثر من مائة كسرة

في مواقف القتال فلا يعتقدون بان من الصنائع ما هو شريف ومنها ما هو وضيع بل يرون كما هو الاصح ان الناس رجلان كفوء وغير كفوء . وانهم عامل وكسول . هكذا يصير ابن (اللورد) زراعاً او صاحب مصنع او تاجراً ولا ينقص مثقال ذرة من شرفهِ ومنزلتهِ لان الامر عام في امتهِ . اجل هناك صنعة يحقرونها ويعدونها ادنى من البقية الا وهي صناعة الموظف والمشتغل بالسياسة وهم ينتقدونها من جهتين الاولى انها صناعة لا يربح صاحبها كثيراً الا في الوظائف الكبرى . الثانية انهـا تفقد الرجل حريتهُ . ومن هنا يرى القارئ ان التربية الانكليزية السكسونية تميل قبل كل شيء بالانسان الى الحرية والاستقلال لذلك قلت تلك الصناعة في بلادهم وهي في بلاد انكلترا موكولة في الغالب الى الذين من اصل (سلتي) او ايرلندي او ايقوسي او من بلاد الغال ويشغلها الارلنديون والالمانيون اصلاً في الولايات المتحدة وقد قرر صديقي موسيو (بول روسيه) هذه الحقيقـة باجلى بيان في كتابه (الحياة الامريكية) الذي الفهُ بعد زيارتهِ للولايات المتحدة لاستطلاع احوالها على طريقتنا

ولشدة الميل الى تعليم الاطفال صناعة يدوية تجدهم يتعلمون الكثير منها بالتدرب والاستعمال وذلك لا يتأتى عندنا بغير المدارس . مثاله ان الرجل عندهم يصير مهندساً بالشغل في المصـانع لا بالدرس في المدرسة وليست النظريات لديهم الا متممة للعمل في جميع الصنائع والحرف . ونحن على العكس من ذلك نحتقر بالعـلم العمل . ودليله ان جمعية تقـدم الزراعة عندنا تقيم في مدينـة باريس وهي مع ذلك لا يتخرج منهـا الا موظفون

نظارة الزراعة وان من المتمنيات ان تنتقل ايضاً مدرسة البحرية في تلك المدينة

سابعاً يسبق الآباء ابناءهم على الدوام في معرفة جميع البدنيات النافعة شأن الامة التي تهتم دائماً بالمستقبل وتهمل الماضي وتلتفت الى الصنائع الجارية التي يتقدم التفنن فيها كل يوم لا الى الوظائف الادارية التي لا تغيير فيها ولا تبديل وتبني آمالها في النجاح على قوتها الذاتية لا على الوسط بانواعه . وهذا الاستعداد هو الذي ولد في الانكليزي السكسوني اشتغاله المستديم بملاحظة الوقائع المادية بعد تحقيقها تحقيقاً صحيحاً . وقد لا يرتبها كما ينبغي وانما غرضه ان يجتمع اليه منها ما عساه يحتاج اليه في كل شأن من شؤونه . وهذا هو الذي يطلبه من قراءة جرائده التي تشبه جرائدنا كما يشبه النهار الليل . لان الغرض من جرائدنا تسلية النفس كما يقولون والجدية منها تتوخى اثارة النزعات السياسية وهي طريقة اخرى للتسلية والنتيجة واحدة هي قتل الوقت بلا جدوى . اما جرائدهم فانها تقصد الافادة مع الاختصار والاجادة . وهي قليلة الخوض في النظريات والاكثار من العموميات . وكلها محشوة وقائع تحكي وقائع وتخبر عن وقائع

ولو لم يكن لدينا من المعلومات غير ما عليه الصحافة في الامتين لكفى ذلك موضحاً للفرق بينهما

اذا علمت هذا علمت من غير دهشة ان محادثة الرجل لابنه تدور عندهم على الامور الحقيقية النافعة فلا يقضون وقتهم في ذكر من يتحرى الجديد في لباسه وزيه واعادة ما ملئت به المجالس الباريسية وتكرار حوادث

الزمن القديم زمن الهنآء والصفآء . بل حديثهم التزاحم في الحياة وقدرة كل فرد على كفاية حاجاته بنفسهِ

ثامناً لا يستعمل اولئك الآباء سلطتهم على ابنائهم في الظاهر الا قليلاً بل يدخرونها للاحوال المطيعة الاستثنائية . ذلك لانهم يعتبرونهم مستقلين عنهم كانهم رجال كما قدمنا ولا يتأتي ان يربي الرجل مقهوراً على الدوام تحت سلطة غيره ولو كانت السلطة ابوية . وعليه فانهم يرون ان التربية الحقيقية المثمرة هي التي تكون بالتدريب والتدريج . لذلك تراهم يستعملون الايماء والنصح اكثر مما يستعملون القسر والامر مظهرين في ايمائهم ونصحهم انهم مجردين عن المنفعة ولا يجعلون امرتهم باعثاً الى العمل بمقتضاها بل يتركون الولد يفكر فيهما ويتدبرهما حتى يعتقد انهما صواب فيجري عليهما

تاسعاً وهو اهم الوسائط وانجحها وقد اخترناه ختاماً علم الابنآء بان الآباء لا يتحملون نفقتهم بعد تربيتهم . اما الفرنساويون فكل يسأل صاحبه ما ذا تريد ان يكون ولدك فيجيبه سأجعلهُ قاضياً او موظفاً ادارياً وهكذا وما هذا الا لاعتقادهِ انهُ يكون والداً حقيراً اذا لم يتدبر مستقبل ابنهِ ويهتم باستنباط الحرفة التي يحترف بها على حسب ما يراهُ صواباً نافعاً ثم يبالغ في حنوهِ فيتجرد عن قسم من مالهِ ليمهر اولادهُ . لكن الآباء من الانكليز والامريكان لا يعولون ابناءهم بل على كل جيل ان يحصل حاجات نفسهِ بنفسهِ . وعلى العكس منهم يجب على كل جيل سابق عندنا ان يوجد اسباب الرزق للذي يليهِ واليك ما يترتب على ذلك من النتائج

لزيد من الناس ثلاثة اولاد او اربعة او خمسة فيجب عليهِ ان يهيء ثلاثة اموال او اربعة او خمسة بخلاف ثروته الخصوصية قبل ان يبلغ الاولاد رشدهم اعني في مدى عشرين سنة حتى لا يهزأ بهِ الناس ولا يسقط الابناء عن درجتهم في الهيئة الاجتماعية والا لما وجد سبيلاً لزواجهم فانهم لا يتزوجون الا باموالهم . وهو في عملهِ هذا يشبه اهل الليانات الذين يعملون في الاشغال الشاقة اوكمن يقدم الذنب قبل الرأس . وليس من يجهل ان الآباء الفرنساويين قد اهملوا الرأس والذنب معاً وعد الواحد منهم نفسهُ من السعداء بولد واحد او اثنين

كنت اقرأ اخيراً رسائل فرنكلان فوجدتهُ في خطاب لوالدتهِ يتكلم عن احد اولادهِ وكونه غير مهتم بتحصيل ما يقوم برزقهِ معتمداً على ثروة ابيهِ فقال (سأزيل عنهُ هذا الخيال وسيعلم من حالتي وما انفقهُ كل يوم اني لن اترك لهُ شيئاً) لكن الرجل منا يرتعد اذا رأى انهُ لن يترك ما يرثهُ عنه الابناء ويغضب رحمةً واشفاقاً وننسى ان الاب الانكليزي السكسوني الذي لا يترك شيئاً لاولادهِ يعطيهم في الحقيقة اكثر ما يعطي الوالد الفرنساوي لاولادهِ . يعطيهم ما نهتم بهِ نحن ولا نصل الى تحقيقه . يعطيهم همة في العمل وقدرة على طلب الرزق وعزيمة يلقى بها زمانه ثابت الجاش وهو ما لو وجدناهُ لاشتريناهُ باغلى الاثمان وما لا يفيد المال الذي نجمعهُ بالكد والنصب الا لاطفائهِ واماتتهِ في نفوس ابنائنا لاننا في الحقيقة نجاهد في سبيل الاقتصاد ونعيش كالصعاليك ونتخذ العقم شعاراً لكي نسهل على اولادنا ان لا يعملوا شيئاً او لكيلا يعملوا الا

القليل ما استطاعوا ونظن بهذا اننا جعلناهم على المستقبل أمنين . غير انا اذا التفتنا الى ما حولنا رأينا ان تسعة اعشار الذين يتقدمون على غيرهم ويحوزون قصب السبق في كل شيء وينجحون النجاح الحقيقي فيما يزاولون من الاعمال يخرجون من صفوف الواصلين بانفسهم . اولئك الذين غالبوا الزمان فغلبوهُ وناجزوا كل صعب حتى استظهروا عليهِ وانسابوا بهمتهم في المجتمع الانساني فنالوا فيهِ مكاناً علياً . واذكر ابناء العائلات (وما سموا كذلك الا لاعتمادهم على عائلاتهم واموال عائلاتهم اكثر من اعتمادهم على انفسهم وركنوا الى مهر زوجاتهم اكثر من ركونهم الى عملهم) تَرهم يسقطون كل يوم الى اسفل الدرجات لانهم اقل من غيرهم في كل شيء مع انهم تربوا (تربية جميلة) كما يقال . وقد فقدوا في هذه البلاد ما كان لهم من النفوذ كله وفرت من بين يديهم زعامتهم فاصبحت الملوكية لا حياة لها وامست لا رجآء في اعادتها ثم انهم صاروا غير قادرين على نوال المنزلة واكتساب الجاه بكدهم وعملهم فباتوا يرجون البقاء من عدم وجود شريك لهم في الميراث ومن المال الذي تقدمهُ اليهم زوجاتهم

اما الشبان الذين تربوا تلك التربية التي شرحناها فهم اقوياء الاجسام متعودون على مزاولة الاعمال الحقيقية وممارسة الاشياء المادية . تربوا على اعتبارهم رجالاً وتمرنوا على الاعتماد على انفسهم . يرون الحياة كحرب ونزال (وهو موافق لما جاء بهِ الدين المسيحي كل الموافقة) لذلك يقتحمون متاعبها بشبيبة متجددة وعزم اكيد بل انهم يحبون تلك المتاعب ويشعرون بالحاجة اليها ويستظهرون عليها ولديهم من وسائل مقاومتها ما يجعلهم

يرتاحون لملاقاتها ويترقون في مجاهدتها

وعلى القارئ ان يقارن بين الاثنين ويحكم على نتيجة التربيتين . اما انا فقد كشفت لهُ القناع عن العوامل التي تحرك تلك الامة التي تغار اليوم على جميع الشعوب القديمة وتهدد وجودها . اغارت تلك الامة على الدنيا باجمعها ومعجزتها هي تلك الغارة نفسها مع انهُ لم يكن لها من سلطة الحكومات الا النزر القليل الا ان لديها من القوة الاجتماعية اعظمها والقوة الاجتماعية اشد بأساً واكبر فعلاً من الحكومات المنظمة والجنود المحتشدة

ما عدونا وما الخطر الذي نخاف منهُ وما البلاء الذي نخشاهُ بآتية لنا من جانب نهر (الرين) الثاني كما يظن قومنا لان المغالاة في تجنيد العساكر وتقدم مذاهب الاشتراكيين والفوضويين تكفينا مؤونة ذلك العدو وليس الصبح ببعيد

انما العدو والخطر والبلاء آتية من الجانب الآخر من بحر المانش والجانب الثاني من المحيط الاتلانطيقي فهي توجد حيث يوجد الانكليزي السكسوني على اختلاف مسمياتهِ وصفاتهِ . ذلك الرجل الذي يحتقرهُ الناس لانهُ لا يفد عليهم كالالماني بجيشهِ الجرار وسلاحه المصقول بل يأتيهم بمفردهِ غير مستصحب الا لمحراثهِ لكنهم جهلوا قيمة ذلك المحراث وقيمة ذلك الرجل ومتى علموا ذلك عرفوا من اين يأتيهم الخطر ووقفوا على السبيل الذي يسلكون للخلاص منهُ

الباب الثاني

﴿ الفرنساوي والانكليزي السكسوني ﴾

﴿ في حياتهما الخصوصية ﴾

آثار الفرق الذي بيناهُ في التربيتين تظهر اولاً في الحياة الخصوصية والغرض من هذا القسم ايراد بعض الامثلة التي اخترناها في فرانسا وانكلترا

اما التربية التي ينشأ عليها ابناؤنا فانها تؤدي الى فتور همتنا وضعف قوتنا الاجتماعية وهما سببان من اسباب انحطاطنا بالنظر الى انكلترا بخلافها عندهم فانها هي والوسط الذي يعيشون فيه يؤديان الى انماء القدرة على مغالبة الحياة الى الدرجة القصوى في الامة بتمامها

الفصل الأول

﴿ في ان طريقة التربية عندنا تقلل المواليد في فرنسا ﴾

ليس الغرض هنا ان نثبت نقص المواليد في فرنسا فان ذلك امر اثبته الاحصائيات كلها واشتغل به علماء الاخلاق والاقتصاديون والسياسيون

واتفقوا في اثباته . الا انهم لم يتفقوا في بيان سببه وكل نحو نحوهُ من غير مرشد يهديه ولا طريقة منتظمة . وبيان السبب هو الغرض الذي نتوخاهُ مستعينين فيه بنور العلم الاجتماعي

قلنا ان نقص المواليد في فرنسا امر ثابت لا يحتاج الى دليل ويكفي لصحة قولنا ايراد بعض الارقام

كانت حالة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة في مدى اكثر من قرن كما يأتي :

سنين من	سنين الى	مواليد
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧
١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤
١٨٦٩	٠٨٨٠	٢٤٥
١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠

ويرى من هذا ان نسبة المواليد بين سنة ١٧٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت من ٣٨٠ الى ٢٢٠ في كل عشرة آلاف نسمة وهي اكثر من الثلث

وقد كان عدد المواليد في فرنسا سنة ١٨٨١ ٩٣٧٠٥٧ ولم يبلغ في سنة ١٨٩٠ الا ٨٣٨٠٥٧ فالنقص هو ١٠٠٠٠٠ وليلاحظ ان هذا العدد اقل من عدد الوفيات بمقدار ٣٨٤٤٦ وان انتصار الموت على الحياة كما ترى حاصل في زمن السلم اعني ان هذه هي حركة المواليد والوفيات الاعتيادية في فرنسا وهي تزداد عاماً فعاماً

فنقص عدد المواليد في سنة ١٨٩٠ عن

سنة	عدد
١٨٨٩	٤٢٥٢٠
١٨٨٨	٤٤٥٨٠
١٨٨٧	٦١٢٧٥
١٨٨٦	٧٤٧٧٩
١٨٨٥	٨٦٤٩٩
١٨٨٤	٩٩٦٩٩
١٨٨٣	٩٩٨٨٥

وكذلك ينقص الزواج سنة فسنة الا ان نقصهُ غير محسوس كنقص المواليد

كان عدد الزواج في سنة

١٨٨٤	٢٨٩٥٥٥
١٨٨٥	٢٨٣١٧٠
١٨٨٦	٢٨٣٢٠٨
١٨٨٧	٢٧٧٠٦٠
١٨٨٨	٢٧٦٨٤٨
١٨٨٩	٢٧٢٩٣٤
١٨٩٠	٢٦٩٣٣٢

فيكون النقص في السنة الاخيرة قد بلغ ٢٠٢٢٣ في مدى الست سنين التي قبلها اي الى سنة ١٨٨٤ وكانت النسبة على الدوام بالناقص وان لم تختلف سنة ١٨٨٦ الآ ببعض الآحاد وعلى عكس ذلك نجد عدد الوفيات في ازدياد.

فقد بلغ في سنة وفاة

١٨٨١	٨٢٨٨٢٨
١٨٨٢	٨٣٣٥٣٩
١٨٨٣	٨٤١١٤١
١٨٨٤	٨٥٨٧٨١
١٨٨٦	٨٦٠٢٢٢
١٨٩٠	٨٧٦٥٠٥

وعليهِ زاد عدد الوفيات سنة ١٨٩٠ بمقدار ٤٧٦١٧ عما كان عليهِ سنة ١٨٨١ وبمقدار ٣٥٣٦٤ عن سنة ١٨٨٣ مع ان عدد المواليد كان نقص بمقدار ١٠٠٠٠٠ في تلك السنة فتكون النتيجة وجود ١٣٥٠٠٠ خلو في الامة

واذا قابلنا بين حركة المواليد في فرنسا وبينها في البلاد الاخرى نجد ما يأتي :

تضاعف عدد سكان النرويج في ٥١ عاماً وعدد سكان اوستريا في ٦٢ وانكلترا في ٦٣ والدانيمرك في ٧٣ والسويد في ٨٩ والمانيا في ٩٨ وفرنسا في ٣٣٤

ولم نأتِ ببيان الاحصائيات الاجنبية لعدم اتفاق سنيها ولكنها تنطق كلها بان فرنسا متأخرة في مواليدها تأخراً عظيماً عن جميع الامم

ثبت ان ضعف النسل امر حقيق في فرنسا فلنبحث اذن عن علته

ولن ينفعنا الاحصاء في هذا البحث الا يسيراً فقد تأخذ منهُ الارقام والمتوسطات والعموميات ولكنهُ لا يكفينا في بيان ناموس تلك الحركة

وقد ذهب الباحثون في بيان تلك العلة مذاهب شتى فذكر حضرة المركيز (ناديّاك) في رسالة (ضعف المواليد في فرنسا) سبعة عشر سبباً جاء بعضها مكرراً واذا امعنا النظر فيها رأيناها تفترق الى قسمين

الاول　الاسباب الباطلة

الثاني　الاسباب الثانوية اي التي يرجع منها الى سبب اولي

وسنبحث في هذين القسمين بحثاً نظرياً مع المقارنة ثم نجتهد في استنباط السبب الحقيقي بعد ذلك

الاسباب الباطلة

منها ضعف قوة التناسل الطبيعية في الامة الفرنساوية . قال موسيو (نادياك) (ليست قوة التناسل الطبيعية واحدة في جميع الامم فللمناخ والاحوال الاجتماعية والاقتصادية ومعدن الاقليم دخل حقيقي فيها وان كان لا يزال غير معين تماماً . وقوة التناسل عظيمة عند الصينيات ولكنها ضعيفة عند نساء (البيرينية) ويمكن ان يقال ان الامم اللاتينية واخصها الامة الفرنساوية اضعف تناسلاً من الامم السلافية والانكليزية السكسونية وعليه فلا شك في ان درجتنا احط من غيرنا بالنظر الى قوة التناسل)

ومن المحقق ان قوة التناسل اشد عند بعض الامم منها عند البعض الآخر ومن السهل الوقوف على اسباب هذا التفاوت بالبحث في الاحوال الطبيعية والاجتماعية لكل واحدة منها لكن لا نسلم بان ضعف التناسل في فرنسا امر لازم لطبيعة الامة اذ لو صح ذلك لتعذر بيان السبب في نموها العظيم الى قيام الثورة فقد انتشرت في (كندا) وفي (لويزيان) وفي (الهند) و (صان دومنيج) و (جزيرة فرنسا) و (بوربونيا) و (ايتاليا) وغيرها ولا يزال فرعها الموجود في (كندا) يزداد وينمو بقوة عظيمة حتى انهُ اصبح يزاحم العنصر الانكليزي السكسوني نفسهُ . والدليل عليه ان سكان (كندا) يتضاعفون عدداً في كل ثمانٍ وعشرين سنة مرة مع ان سكان فرنسا لا يتضاعفون الا في كل ثلثمائة واربع وثلاثين سنة مرة واحدة وظاهر ان ذلك الفرق لا يرجع الى سبب طبيعي في الامة بل لا بد لهُ

من سبب خارجي لم يوجد الا من زمن غير بعيد

ومما تجب ملاحظتهُ ايضاً ان التناسل لا يزال نامياً في بعض الاقاليم الفرنساوية كاقليم (بروتون) قال مسيو (نادياك) (بلغت زيادة المواليد على الوفيات من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٨٨٣ في الاقاليم البروتونية الخمس ٧٤٩٩٠ وهي تساوي زيادة المواليد في فرنسا كلها على التقريب ولو كان التناسل في جميع الاقاليم بمقدار هذه النسبة لما حسدنا جيراننا اذ كنا نساويهم في عدد المواليد ان لم نزد عليهم)

وكذلك عدد المواليد لا يتغير في الاقاليم التي يكثر الفعلة فيها كما سنبينهُ فيما بعد اما في غيرها فانهُ ينقص سنة بعد سنة من مبدأ هذا القرن بدون ان يحدث تغير في النوع يمكن اتخاذهُ سبباً في هذا النقص المستمرّ

وعلى ما تقدم يكون الاستدلال في نقص عدد المواليد بطبيعة النوع باطلاً لان الاستقراء يكذبهُ

والاستقراء يبطل ايضاً الدليل في هذا النقص الذي انتزعوهُ من المسكرات. نعم لا شبهة في ان المشروبات الروحية قد تغيرت منذ خمسين عاماً الى اردأ الاحوال لاستعمال التقطير في تحضيرها بدل التخمير ولكثرة استعمال العرقي والمستكا عما كانا عليهِ اذ المقدار الذي كان يشرب منهما في فرنسا سنة ١٧٨٨ لم يزد على ٣٧٠٠٠٠ هكتولتر وقد بلغ في سنة ١٨٨٢ ١٧٦٦٠٠٠ هكتولتر

غير انهُ من المحقق ايضاً ان استعمال تلك المشروبات لم يبلغ في البلاد الفرنساوية مقدار ما بلغهُ في غيرها وخصوصاً في جهة الشمال من اوروبا

مع ان عدد المواليد في تلك الجهة لا يزال نامياً حتى في فرنسا نفسها فاكثر البلاد استعمالاً لتلك المشروبات هو إقليم (بروتانيا) الذي كثر نسلهُ وعلى العكس من ذلك في الجنوب حيث لا يستعمل المشروب الا قليلاً ترى بعض الاقاليم يزيد فيها عدد الوفيات على عدد المواليد مثل اقليم (الفار) وحينئذٍ يلزم التسليم بان تأثير المشروبات الروحية على عدد الاهالي غير محسوس في فرنسا

قالوا ان من اسباب نقص المواليد ثقل الخدمة العسكرية. ولكننا نشاهد ان الخدمة العسكرية عامة ايضاً وواجبة على كل فرد في البلاد الالمانية وعدد المواليد في تلك البلاد غير متأثر بهذا السبب ثم ان الوفيات في الجيش اكثر منها في غيره لكن ذلك لا يؤثر في النتيجة العمومية للامة

قالوا ان من اسباب ذلك ايضاً ثقل الضرائب على الناس. ولا شبهة في ان الضرائب الفرنساوية باهظة جداً فالذي كان يدفع ايام الامبراطورية الثانية ٥٩ فرنكاً في السنة صار يدفع سنة ١٨٧٢ (٨٥) فرنكاً وهو الآن يؤدي ١٠٩ فرنكات وقد زادت الضرائب العقارية بين سنة ١٨٢٠ الى يومنا هذا من ٢٤٣،٠٠٠،٠٠٠ فرنك الى ٣٥٧،٠٠٠،٠٠٠ وزادت الضرائب الشخصية والتي تجبى على المنقولات من ٢٧،٠٠٠،٠٠٠ الى ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ كما زادت عوائد الابواب والشبابيك من ٢٩،٠٠٠،٠٠٠ الى ٤١،٠٠٠،٠٠٠ وبلغت عوائد الباطنطا (الحرف والصنائع) ١٦٣،٠٠٠،٠٠٠ بعد ان كانت ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ فقط

الا انهُ لو كانت زيادة الضرائب من الاسباب المؤثرة حقيقة على عدد

السكان وجب ان يكون عدد المواليد تابعاً لفقر الاقاليم وثروتها فتقل في التي رزحت تحت اثقال الضرائب وتكثر في التي وجدت من ثروتها ما يسهل عليها احتمالها. لكننا نرى الحال بالعكس فليس لاغنياء بلاد (نورمانديه) و(بيكارديه) الا ولد او ولدان مع ما جمعوه من الثروة الطائلة قبل انحطاط الزراعة عندهم مع ان المواليد اكثر من ذلك في الاقاليم الفقيرة مثل اقليم (بروتانيا) و (اردیش) و (لوزير) و (افيرون) و (هوتوار) و (كوريز) وغيرها وقد تصفحت خريطة المواليد في فرنسا سنة ١٨٨١ فوجدت ان اقل البلاد مواليد اكثرها غناء وعلى هذا يسقط دليل ثقل الضرائب

الى هنا تبين ان تلك الاسباب كلها لا تأثير لها على المواليد او انها لا تؤثر فيها الا قليلاً . وهناك اسباب اخرى نراها اشد فعلاً مما تقدم

الاسباب الثانوية

لهذه الاسباب بعض التأثير على ضعف المواليد عندنا وهي ليست عرضية اذ لا يسلم ان حادثاً يحدث في بلد معين وفي زمان معين من دون ان يكون لهُ سبب ادى اليهِ من احوال تلك البلد في ذلك الزمن . فاذا تكرر وقوعهُ لزم ان يكون ناشئاً عن سببٍ عام عظيم كما اننا اذا رأينا رجلاً قد تكرر منهُ الخطاء وكثرت غلطاتهُ حكمنا بان في عقلهِ نقصاً او في ارادته عيباً هو الذي يحملهُ على ارتكاب تلك الاعمال الناقصة . وسنبين لك ان جميع الاسباب التي نسبوا اليها ضعف المواليد في فرنسا لا يصح الارتكان عليها الا اذا رجعت هي الاخرى الى سبب اعظم . ومن تلك الاسباب ما يأتي :

اولاً قال موسيو (نادياك) (ان لارادة الرجل دخلاً في ضعف المواليد في فرنسا) وفي الواقع لو اراد الفرنساويون ان يكون لهم من الذرية ما لغيرهم من الامم لحصلوا مرادهم الا ان السر هو في معرفة السبب الذي يحملهم على عدم الارادة ومن هنا يتبين ان ما قالهُ موسيو (نادياك) لا يفيد شيئاً في موضوعنا

ثانياً قالوا ان من الاسباب كثرة تجزئة الملكية . وهنا تفصيل يلزمنا بيانه فان كان مرادهم بكثرة تجزئة الملكية ان حالة الاجتماع في الامة استلزمت من ذاتها تقسيم العقارات الى اجزاء صغيرة تنتقل من الرجل الى غيره بحسب ما يعرض لهُ من الاحتياجات التي هو حر في تقديرها قلنا بان هذا لا يستلزم البتة ضعف المواليد في بلد ذلك شأنهُ اكثر من بلد تكون فيهِ الملكية كبيرة الاجزاء . اذ يشاهد ان عدد المواليد في (انكلترا) لا يزيد على عددها في بلاد (النرويج) و (لونيبورج) التابعة الى (هانوفر) واقاليم (سويسره) وغيرها مع ان الاملاك في الاولى عظيمة غير مجزأة الا قليلاً وهي في الثانية مقسمة اقساماً صغيرة جداً . واذا ارادوا بكثرة التجزئة استمرار تقسيم الاراضي الى اجزاء صغيرة مهما كانت مساحتها تقسيماً قهرياً ففي قولهم نظر سنأتي عليهِ ونكتفي الآن ان نلاحظ ان مرادهم هذا حاصل في البلاد الفرنساوية ومع ذلك فعدد المواليد ضعيف في الاقاليم ذات الاملاك الواسعة مثل (نورمانديا) و (بيكارديا) كما هو ضعيف في الاقاليم ذات الاملاك الصغيرة مثل اقليم (شمبانيا)

ثالثاً ابتعاد الفرنساويين عن الزواج وانحطاط عزائمهم لما القوهُ من حب

الزخارف والحاجات الصناعية والملاذ المخترعة وغير ذلك . ومن المشاهد حقيقة ان عدد الزواج يقل آناً فآناً فاذا نظرنا الى الاشخاص الذين يصح الاقتران بينهم في جميع الامم كانت فرنسا الحادية عشرة في الرتبة من بينهم اذ يتقدم عليها (الانكليز) و (البروسيانيون) و (الهولانديون) و (النمساويون) وغيرهم . ولضعف العزائم المستمر دخل في هذا الانحطاط غير ان الذي يحوجنا هو معرفة السبب الذي حمل الفرنساويين من مبدأ هذا القرن على الابتعاد عن الزواج والموجب لتثبيط العزائم بينهم اكثر من غيرهم

رابعاً الميل الى الاستئثار باكبر ما يمكن من اللذائذ . وهو مسلم لكن بقي علينا ان نعرف السبب في انصباب الفرنساويين على اللذائذ فجأة انصباباً لا حد لهُ وكيف ان ذلك الميل بعينهِ لم يوجد عند الانكليزي او الالماني او الروسي وغيرهم اذ ليس من المعقول ان لا يكون اولئك القوم ممن يميلون بالطبع الى الزيادة في لذائذهم فوجب ان يكون هنالك سبب منعهم عن الاقلال من النسل طلباً للذائذهم وان ذلك السبب غير موجود في البلاد الفرنساوية

خامساً زيادة السعة في المعيشة وموجبات الراحة نظراً لارتفاع الاجور. ذلك ايضاً امر عام وحينئذٍ لا يمكن الاعتماد عليهِ في تعليل حالة فرنسا الخصوصية وقد اعترف بذلك موسيو (ناديالث) حيث قال (زادت بسطة العيش في كل مكان زيادة كبرى فترى في الارياف كما نشاهد في المدن ان الاجور قد ارتفعت كثيراً وتحسن الملبس والمطعم وصارت المساكن اقرب الى الصحة واوفى بحاجات العائلات وتقدم الناس في معرفة لوازم

حفظ الصحة وعندي ان لهذهِ الاحوال تأثيراً حسناً على النسل ولكننا لا ندري ما السبب في انها ادت في البلاد الفرنساوية الى عكس ما ذكر) كذلك نحن نبحث معهُ عن تلك العلة

سادساً زيادة الحضارة اعني كثرة المدن المترفهة حيث يقل النسل . ومن المعلوم ان اهل الزراعة يقلون واهل المدن يكثرون ففي سنة ١٨٤٦ كان عدد اهالي بلاد الريف يبلغ ثلاثة ارباع سكان فرنسا وهو اليوم لا يكاد يبلغ خمساً وستين في المائة ولا يزال آخذاً في النقصان . ويمكن تقدير زيادة عدد سكان المدن بخمس عدد الاهالي اجمعين . وحيث ان ذلك امر ثابت وان لم يكن كذلك فهو عام لزم القول بان تلك العلة السادسة لا تثبت شيئاً اذ يشاهد ان زيادة سكان المدن عظيمة جداً فيقطنها من النسمة خمسة والاربعة يسكنون الارياف . كذلك زاد عدد سكان المدن في المانيا من اربعة عشر الى خمسة عشر في المائة فكان في برلين منذ قرنين سبعة عشر الف واربعمائة نسمة وصار فيها اليوم مليون وثلاثمئة وستة عشر الف ومائتان واثنان وثمانون نسمة وهكذا الحال في ايطاليا واسبانيا واوستوريا وغيرها ومع ذلك لم ينقص النسل في تلك البلاد كما هو حاصل في فرنسا وعليهِ وجب ان يكون هناك سبب خاص بها

سابعاً تكليف التلامذة فوق طاقتهم في المدارس اذ لم يبلغ هذا التكليف في اي بلد من البلاد مبلغهُ في الامة الفرنساوية يزاد عليهِ استمرار اقامة الطلبة بداخل المدارس الابتدائية زمناً طويلاً مما يدعو الى ضعف الشخص في نفسهِ وفي نسلهِ . وقد يظهر ان ذلك السبب قوي التأثير لكنهُ لا

يؤثر الا على طبقة المتنورين ولا بد لنا على كل حال من البحث عن علة ذلك الميل لانهُ ليس ناشئاً عن طبيعة الاقليم الفرنساوي

ثبت اذن ان الاسباب التي بيناها لا تنتج المعلول بذاتها وانهُ لا بد فيها من سبب اكبر وأعمّ . ومهما كان ذلك السبب الذي نبحث عنهُ فهو لا بد ان يكون مؤثراً في العائلة مباشرة تأثيراً قوياً اذ العائلة هي مرجع التناسل في الامة ولا بد ان تكون العائلات في البلاد الفرنساوية على حالة صعبة مؤثرة عليها من هذه الجهة خصوصاً اذا لوحظ ان العائلة تميل على الدوام الى الخلود فالرجل يحب ان يستمرّ وجودهُ بواسطة ابنائهِ واذا لم يكن هناك من الموانع ما يثنيهِ عن تلك الرغبة فانه ينساب اليها فيكثر نسلهُ ويفرح بمولدهم والسبب في ذلك ان الاطفال يعدون في تلك الحال من موجبات القوة ووسائل الارتزاق لا كلاً على آبائهم . وما فرحهم آتٍ الا من سهولة تعيش الابناء وعدم الحيرة في تربيتهم طوعاً لحركة الهيئة الاجتماعية التي يولدون فيها كما يشاهد ذلك عند الامم التي لم تتفرق عائلاتها بعد اذ ترى الآباء يرتكنون في تربية ابنائهم على المجموع . ومن هنا كان الشرق كثير النسل حتى لقد ظهر شعور الشرقيين بتلك الحالة في امثلتهم العامة كقولهم (ان الله يبارك في العائلات كثيرة العدد) وكقولهم (ما اتعس المرأة العقيم) ومما يؤيدهُ ان كثرة النسل لا توجد كما كانت في الاصل عند الفرنساويين الا في الجهات التي بقيت فيها العائلات مجتمعة على نفسها وهي قليلة كاقليم بروتانيا والبيريني والاقاليم الجبلية الوسطى

وعلى خلاف ما تقدم نرى النسل نامياً عند الامم الاستقلالية لان

مصير الاطفال مكفول بما لكل واحد منهم من الهمة الذاتية التي بلغت منتهاها ولما ربي عليهِ الشبان من القدرة على تحصيل عيشهم بنفسهم فلا يتكلف الآباء ايجاد مرتزق لابنائهم ولا يجمعون لهم مالاً يمهرونهم بهِ

غير ان كثرة اعضاء العائلة الواحدة يزيد في ثقل العبء على الآباء زيادةً ليس لهم طاقة بها مهما ارادوا فلا ملجأ لهم الا الهرب من تلك الزيادة وهذا هو السبب في ان معظم الفرنساويين لا يحسدون الذين كثر ابناؤهم بل هم يرثون لحالهم . ولهذا ايضاً كان كل ما يتمناهُ الواحد منهم هو ان لا يكون لهُ الا ولد وابنة او ولد واحد حتى يقال كما اصطلحوا عليهِ (ولد وحيد) وليس لاولئك الآباء ان يعتمدوا في تحصيل مرتزق ابنائهم على العائلة لانها قد انحلت او على همة الابناء انفسهم لان التربية قد اضاعتها ورجع الابناء الى آبائهم يطلبون العيش منهم واصبح هؤلاء لا يقدرون على ذلك الا اذا امهروا ابناءهم وهم مضطرون في ذلك الى ايجاد ثروة متعددة بقدر ما لديهم من الابناء قبل ان يتزوج كل واحد منهم اي في مدة تختلف من ثماني عشرة الى ثلاثين سنة

واذا تزوج الواحد منهم وجاء لهُ بعد سنة مولود تراهُ لا ينظر اليهِ نظر من يفرح بشعرهِ الاصفر وتبسمهِ اللطيف بل الذي يفكر فيهِ الوالد عند ما يقع نظرهُ عليهِ هو وجوب تحصيل المهر لهُ فاذا مضى ثمانية عشر شهراً او سنتان وجاءهُ مولود ثانٍ كان ذلك عندهُ عبارةً عن وجوب تحصيل مهر ثانٍ . ثم يرى انهُ لا بد من تحصيل المهرين في مدى خمس وعشرين سنة ويحس من نفسهِ ان العبء صار ثقيلاً وانهُ لا طاقة للزيادة فيهِ .

لذلك لا يرى ملجأ الا العمل على ما يوقف النسل

تلك هي العلة في قلة عدد ابناء الفرنساويين فالعادة التي تأصلت بحكم طبيعة الاجتماع فيهم تكلفهم عملاً يستحيل عليهم القيام بهِ فيصيرون كالذين يشتغلون في الليمان وهم غير قادرين على ابطال العادة فيركنون الى ابطال النسل . وهنالك سبب آخر يدعوهم الى الاقلال منهُ ذلك ان حالة معيشتهم تنقص بمقدار كل مهر يأخذه احد الابناء وانه بقدر ما لهم من الشرف والاعتبار يجب عليهم ان يكثروا من قيمة المهور والناس يقدرونها من قبل فيقولون ان فلاناً خصص كذا مهراً لابنهِ او لابنتهِ وحينئذٍ لا بد للآباء من ثروة خصوصية ينتهبون منها عند الحاجة كلما كان لهم ولد يستحق الزواج

وقد جاء الاحصاء مؤيداً لتأثير المهر على النسل تأثيراً حقيقياً فاقل الناس نسلاً اكثرهم مالاً واكبرهم تبصرةً اي الذين يلاحظون وجوب امهار ابنائهم في المستقبل . واكثر الناس نسلاً اقلهم مالاً وابعدهم عن التبصر وهم الفعلة اي الذين يتركون النسل ينمو كما يتركون رزقه على الله

هكذا نشاهد في اقليم الشمال حيث تكثر المعامل ويكثر الفعلة ان المواليد تزيد على الوفيات بكثير فتبلغ الاولى في السنة (٥١١٩٧) ولا تبلغ الثانية الا (٣٥٠٨٩) وبعكس ذلك يزيد عدد الوفيات على عدد المواليد في الاقاليم الغنية ففي اقليم (اور) يبلغ عدد المواليد (٦١٤٢) وعدد الوفيات (٨١٢٨) وفي اقليم (وان) تبلغ المواليد (٨٨٥١) والوفيات (٩٠٦٨) وفي اقليم (اورن) تبلغ المواليد (٦٨٥١) والوفيات (٨٥٣٤) وهكذا

ومن هنا ينساق المتأمل الى استخلاص تلك النتيجة الغريبة وهي ان

مدار النسل مع قلته في فرنسا على قليلي التبصر وعديمي الكفاءة . ولست ادري ما الذي يدخرهُ المستقبل لفرنسا وهذه حالة التناسل فيها

ولنبين حينئذٍ ان هذه الحالة التي اختصت بها العائلة هي العلة الاولى في الاسباب التي سبق بيانها فارادة الآباء في الاقلال من الابناء معلولة باستحالة تحصيل مهر لكل واحد منهم اذا كثروا . ومن هنا كان الزواج حملاً ثقيلاً على الناس فهم يجتهدون في الهرب منه ومتى خلص الواحد منهم من واجب القيام بشؤون عائلة كبيرة وعلم انه لا يتحمل الا القليل من الاثقال كامها وولد او ولدين مال بالطبع الى تحصيل قسم اكبر من اللذائذ الشخصية اذ مثل الآباء الذين لا ابناء لهم او الذين ليس لهم منهم الا العدد القليل كمثل الاعازب الذين تمكن منهم حب الذات لذلك تراهم غير مندفعين الى الاقتصاد ولا ميالين الى حرمان انفسهم مما يشتهون فليس عندهم عائلة كبيرة يجب عليهم ان يقوموا بشؤونها .

ومما يستوقف النظر ان حالتنا الاجتماعية تنتج معيشتين مختلفتين : فهنا آباء كثر عدد ابنائهم فضاق الرزق في وجههم وعاشوا عيشة الحرمان . وهناك آباء قل عدد ابنائهم فعاشوا في رغد وهناء يتوسعون في معيشتهم ويحصلون جميع لذائذهم كانهم ليسوا بمتزوجين . ومن جهة اخرى ترى الابناء قد تعودوا الاعتماد على المهر اكثر من اعتمادهم على انفسهم فمالوا عن طلب عيشهم بجدهم سواء كان في فرنسا او في البلاد الاجنبية وفضلوا الانكباب على التوظف في الحكومة ورأت هذه انهُ لا بد لها من دفع تلك الغارة عنها فاكثرت من انواع الامتحانات ولكنها لم تنجح بل تكاثر العدد ورأى

كل واحد من الطالبين انهُ لا بد لهُ من الانهماك على الدروس فاضطرت المدارس الى تكليف التلامذة فوق طاقتهم

والخلاصة ان جميع الأسباب التي دل عليها الاقتصاديون راجعة الى سبب واحد اوّلي وهو حالة العائلة التي وجدت بحكم طبيعة الاجتماع الفرنساوي

بقي علينا ان نعرف ان كانت قلة النسل في فرنسا مفيدة او مضرة

اما الاقتصاديون فغير متفقين في هذا الموضوع ايضاً فذهب موسيو (موريس بلوك) في جريدة (الديبا) وفي مجلة (العالمين الجديدة) الى ان زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الامم لان الفقر من لوازمها . ووافقهُ موسيو (دي مولناري) في جريدة (الاقتصاديين) التي هو مديرها

ولكن الاستقراء لا يؤدي الى هذه النتيجة اذ ليس من المسلم اولاً ان قلة النسل تفيد الامة الفرنساوية . نعم لو كنا محاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل امتنا عنصر اجنبي من اي نوع كان لاصبحنا في معيشة راضية في بلاد قل عدد سكانها اذ قلة العدد تسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعلهُ يستفيد مما تعمل الامة اكثر مما لو كانت كثيرة العدد . غير ان الاحوال لا تجري كذلك والنقص في النسل يستعاض على الدوام بتهافت القصاد من الاجانب فالوافدون على البلاد الفرنساوية كثيرون من جميع مجاوريها البلجيكيين والالمانيين والسويسريين والباسكيين[1] والاندلسيين

---

(١) هم سكان اطراف جبال البيرنية الغربية

ولا يزال عددهم يزداد يوماً عن يوم فكان عدد الاجانب في فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٩٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الاجانب في كل ثلاثة وسبعين فرنساوياً

قال موسيو (فوفيل) (ان كثرة ورود الاجانب في فرنسا امر خطير اذ لولاهم لما تغير عدد الفرنساويين) وفرنسا هي البلد الذي قل عدد المهاجرين منهُ وكثر عدد المهاجرين اليهِ والذين يقولون بمنفعة قلة النسل يعلمون هذا ولكنهم لا يتطيرون منهُ بل يفرحون بهِ ويقولون انهُ موجب للاقتصاد في فرنسا لانها بواسطة الغرباء تجد عمالاً لم تتكلف تربيتهم . قال موسيو (موليناري) (لو فرضنا ان الامة الفرنساوية اضطرت الى تربية ذلك المليون من العمال الذين يأتونها من الخارج لكلفوها من النفقات مالاً جزيلاً اذ الحصول على مليون رجل كلهم في سن العشرين لا يتأتي الا من مليون وثلاثمائة الف نسمة ومتوسط النفقات لتربية مليون من الشبان ثلاث مليارات وخمسماية مليون . وعليهِ ففرنسا تقتصد مثل ذلك المبلغ باستعمالها العمال الاجانب وهذا المال يساعد كثيراً على امتداد ثروتها العامة والخاصة ولا يشك احد في انهُ لو جاءنا من البلاد الاجنبية مليون من الثيران لنسد بهِ نقص ماشيتنا لكانت فائدتنا منها مساوية لما صرفتهُ البلاد التي ارسلتها الينا في تربيتها)

ولا نخال هذا القول صحيحاً اللهمَّ الا اذا كان الرجل ثوراً ولكنهُ لما كان انساناً لزم عليهِ ان قلة ابنائنا وعدم تربيتهم كما يتربى ابناء العائلات

كثيرة العدد وعدم تعودهم من صغرهم على الاعتماد على انفسهم في تحصيل عيشهم واهمالهم جانب المهر الذي يأخذونهُ من آبائهم او الذي تأتيهم به نساؤهم وعدم اعتقادهم بان النجاح انما هو لمن قويت فيهِ القدرة على العمل وكان ذا عزيمة واقدام لا يؤدي الى تربية الرجال عندنا، ولزم عليهِ ان ابناءنا بتعودهم على ما القوهُ من التربية التي تجعلهم يعيشون في حجور امهاتهم ويأكلون من حيث لا يعرفون اذا احتكوا باولئك الاطفال الذين نشأوا بين عائلات كثيرة العدد وتربوا على نظام شديد من حيث العمل والاجتهاد يخسرون على الدوام ويتقهقرون خجلين . الا ترى ان تجارنا ومهندسينا يفضلون العمال الالمانيين او السويسريين والصناع البلجيكيين او التليانيين على امثالهم من الفرنساويين اذ يجدونهم اشد اطاعةً واكثر عملاً واكبر اقتصاداً واقل طمعاً . والواقع ان اولئك الاجانب يقتصدون من اجور لا تفي بحاجات الفرنساويين ولولا معونتهم لنا لما زادت قيمة متاجرنا الضعف ولاشتد عجزنا عن مقاومة المنافسة الاجنبية . والصناع الاجانب هم الذين عليهم مدار صناعتنا وزراعتنا بما اوتوه من سلامة العقل وقوة الجسم غير انهم لا ينقذوننا من هذا الانحطاط الا بارفع الاثمان اذ وجودهم بيننا يضعف من قوة ارادتنا ويقلل من همتنا وينقص من انتشارنا ويثبط همتنا في الاستعمار ويذهب بنفوذنا في العالم بل هو يؤثر ايضاً على جنسيتنا لما يعتريها من التغير طبعاً لاختلاطهم بنا

الفصل الثاني

﴿ في ان طريقة التربية عندنا مضرة بثروة الامة الفرنساوية ﴾

يقول الناس في كل مكان ان هذا الجيل جيل المال ومنهم من يفرح بذلك ومنهم من يحزن لهُ . والواقع ان الاعمال المالية وصلت في زمننا هذا الى حد يكاد العقل لا يتصوره ُوليس هذا امراً غريباً اذ ليس شيء في الوجود مسبباً عن الصدفة بل سببهُ اكتشاف مناجم الفحم فهو الذى اوجد في المال تلك القوة العظيمة التي امتاز بها في زمننا هذا. فبواسطة الفحم تمكنت الامم من اجراء اعمال كثيرة تقتضي من المال ما يفوق ثروة اغنى العائلات مما لا يمكن القيام بهِ لغير الشركات . واول تلك الاعمال هو استغلال المناجم عينها لان الفحم لا يوجد في الارض مختلطاً بغيرهِ كما توجد المعادن الاخرى بل هو طبقات متكاثفة فوق بعضها تكاد ان لا تنتهي ولهذا فانه يقتضي في استخراجهِ عمالاً كثيرين وعملاً عظيماً . ثم الاكثار من الاشتغال في المناجم ذو فائدة عظيمة لان الفحم لازم في كثير من الصنائع فبيعهُ سهل ومأمون ومثل هذا العمل المظيم يقتضي من النفقات مالاً لا يمكن جمعهُ الا بواسطة الشركات . ولم تقتصر منفعة الفحم على كونهِ صار محلاً لتجارة كبيرة من حيث هو بل انهُ غير حالة الصناعة تغيراً كلياً فبهِ اصبح الدكان الصغير معملاً كبيراً لان قوته عظيمة يحصل الانسان

بواسطتها على اضعاف اضعاف ما كان يعملهُ بدونها . وزيادة الانتاج تستدعي زيادة العمال ثم ان كثرة المصنوعات تستلزم مالاً كثيراً لا يتأتى جمعهُ في كثير من الاحوال الا بواسطة الشركات

ومن فوائدهِ ايضاً تغيير طرق النقل والتسفير فبهِ امتدت السكك الحديدية وجرت سفن التجارة في عرض البحار وهذه الاعمال ايضاً تطلب من الاموال ما لا بد في جمعهِ من الشركات . والفحم هو السبب في تأليف شركات المساهمة الكبيرة التي تشتغل بتنوير المدن بالغاز واستعمال الكهرباء وفتح قنال السويس وغير ذلك وهو الذي حمل الدول على اجراء الاعمال العظيمة ذات المنفعة العامة وكلما زادت قوة الفحم عظم اتساع تلك الاعمال حتى اصبحت اموال الخزائن لا تفي بالمطلوب وعمدت الحكومات الى الاقتراض فتألف لاقراضها شركات اكبر من التي سبق القول عنها

هكذا عظم سلطان المال الى حد لم يكن في الحسبان حتى اصبح ذا ثمرة ذاتية اي من دون ان يأتي صاحبهُ عملاً من الاعمال وتغير الاستثناء الى قاعدة كلية فبعد ان كان الغني هو الذي لهُ رأس مال يأتيهِ بالربح اشترك معه في ذلك الحقير الذي يقتصد المال اليسير بالكد الكثير . ومن تأمل في هذا التغيير الذي احدثه الفحم وحده علم انه تغيير لازم جاء من طبيعة الحال . ومقتضى الحال اشد قوة من همم الرجال ومن طلب مقاومة هذا التيار فقد ضل رشده اذ لا بد له من الخزلان

وليست الاسباب التي جعلت الناس يتهافتون على اقتناء السندات المالية الا اسباباً جوهرية جاءت من مقتضى الاحوال كالتي ذكرناها

فاول مزية في تلك السندات سهولة حيازتها وهي سهلة الحيازة لكونها تجزأ الى ما لا نهاية له وقابليتها للتجزؤ تسهل لاحقر الناس اكتسابها وربحها لا يقتضي كلفة ولا عناء فكل الناس من صغير وكبير يميل اليها ثم الربح الذي يأتي منها يأتي بانتظام في اوقات مقررة وذلك لا يتأتى لمن يزاول الزراعة مثلاً او الصناعة او التجارة وظاهر انهُ لا موجب للانسان يدعوهُ الى ترك هذه المزايا

وثانيتها لمالك السندات امل في زيادة قيمتها او تسديد ما عليهِ منها بطرق مفيدة او في نوال ربح كبير ومن اصابهُ حظ مما ذكر فقد اغتنى وهو نائم والكثير يعتمد على ما يرجو كسبهُ من هذا السبيل فاصحاب السندات والسهام الذين حصلوا ثروة طائلة كثيرون وما من احد الا ويغبط مساهمي شركة (اتزان) التي اشتهرت بوفرة ارباحها ومساهمي شركة قنال السويس وشركة الغاز في باريس وغيرها فقد اتت تلك الشركات وامثالها بالارباح التي لا تعد في زمن يسير لانها تكونت في زمن كثرت فيهِ حاجة الناس اليها وقل المتنافسون معها واقبل الناس عليها ولا يزالون مقبلين اقبال الظمآن على الماء . نعم من الناس من يخسرون فيها الا ان الخسارة غير ظاهرة بجانب الكسب الوفير

وثالثتها سهولة شراء هذه السندات في الاسواق المالية (البورصة) وبيعها وما يتخلل ذلك في كل وقت من هبوط الاسعار وارتفاعها يحمل كثيراً من الناس على الاشتغال بها رجاء الربح في المضاربات فضلاً عما يجدونهُ في ذلك من اكتفاء العناء في حفظ اموالهم والزيادة فيها الى

الحد الاقصى

هذه هي الاسباب التي تدعو الى اقتناء الاوراق المالية بوجه الاجمال وهي حركة اوجبت تغيراً عظيماً في الافكار من حيث العمل ورفعت شأن النقود الى المقام الاسمى وفتحت امام كل طالب باباً للكسب فسيحاً وارتقت بالماليين الى ذروة الهيئة الاجتماعية فاصبحوا ملوك العصر وقياصرة الزمان

غير ان لكل شيء في الوجود ضداً والدهر قلب وهنا يصدق تشبيه السعد بعجلة تدور فما اكثر تقلبات الثروة المنقولة لانها على الدوام تحت رحمة تغير الاسواق وتغير الاسواق على الدوام تحت رحمة السياسة والمضاربات. ولسنا في حاجة الى سرد ما تحدثهُ الاسواق المالية كل يوم من التخريب والتدمير لان علمهُ حاصل لكل واحد منا وانما الذي نريد توجيه الافكار اليهِ هو ان الخسارة المالية قد تشتد في بعض الاحيان فتصيب اناساً كثيرين حتى تكون داهية كبرى وتشبه البناء اذا تداعى . هنالك يصيح القوم باصوات الفزع وينطق كل واحد بما تمليهِ عليهِ منافعهُ فيتسابقون في تعنيف الماليين ورميهم بمر الملام وسم الكلام وقد يكون اللائم نفسهُ مستحقاً للزجر والتعنيف . ومن الغريب ان كل مساهم يستعد لاقتضاء الارباح ولكنه يكره تحمل الخسارة والواقع ان كليهما نتيجة لازمة لطبيعة العمل الواحد فالاوراق المالية تربح وتخسر اي تثمر التقلب كما يثمر الكرم عنباً وشجرة التفاح تفاحاً . والذي يجب الاهتمام بهِ والبحث عنهُ هو معرفة ما اذا كان في الامكان ملافاة الضرر الذي ينجم عن تقلب الاسواق المالية والتفادي من سلطة الماليين . ومن المشاهد ان ذلك في الامكان بل ان

بعض الامم قد اتخذت من الوسائل ما اتقت بهِ تلك المحن

وبيانهُ ان انتشار الاوراق المالية لم يؤثر في جميع البلدان بدرجة واحدة اذ من المشاهد ان البلاد التي اصابها الضرر ليست هي التي كثر فيها الاخذ والعطاء بتلك الاوراق ومن البلاد ما تحمل من المضاربات ما لو حصل في غيرها لأضرّ بها كثيراً ويمكننا ان نشبه الحالة المالية بكرم العنب وهو يقاوم فعل الدودة في امريكا اكثر منه في فرنسا

ولو احصينا الكتب والرسائل التي نشرت حديثاً في البلاد الفرنساوية لتنبيه الامة الى ما هو محدق بها من الاخطار بفعل اليهود وتأثير المضاربات لملأت خزائن بتمامها . الا ان العقل ليس هو الذي املى تلك المؤلفات كما ان التؤدة لم ترافق الكتاب في تأليفها وانما الداعي اليها هو الشهوة والهوى وقد تخطى اكثرها الحد الذي ينبغي وتلك افسد الوسائل في الوصول الى الغرض المطلوب . ثم ان الذين كتبوا كلهم لم ينظروا الا الى ظاهر المسئلة فجاءت ادواؤهم التي اشاروا بها غير مفيدة او متعذرة الاستعمال . ومع هذا فان تلك القيامة تدل على امر صحيح لا شك فيهِ وهو الحرج الذي استولى على الامة الفرنساوية في هذه الايام

وليس منشأ هذا الضيق ان الفرنساويين تهافتوا على استعمال الاوراق المالية اكثر من غيرهم اذ الحال واحد في انكلترا والبلاد الاسكندناوية والمانيا والولايات المتحدة وانما السبب اختلاف طرق الاستعمال

فاما الامم التي تمكنت من مفادات الضرر الذي ينجم عادةً من الاشتغال بالاوراق المالية فانها اتخذت سبيلاً واحداً ذلك انهم لم يضعوا جميع اموالهم

في تلك الاوراق بل فرقوا بين رأس المال وما اقتصدوهُ من غلتهِ واشتغلوا في الاوراق بالثاني دون الاول . اما الفرنساويون فقد فرطوا في الكل واسلموا الى الاسواق المالية اصل الثروة وما اقتصدوهُ وهذا هو السبب في قولهم عادة ان فرنسا هي البلد الذي كثرت فيهِ وفرة المال وهو قول صحيح لميل الفرنساوي الى جعل ثروتهِ كلها منقولة والكثير منهم يود ان لو جمع ثروته كلها في دفتر جيبه

وهذا هو السبب ايضاً في ان اغلب القروض التي تحصل يقع الاكتتاب فيها بفرنسا فهي اكبر سوق للاموال وهي احسن بلد يستفيد منها المالي لو كان من الماهرين وترى اليوم الاموال الفرنساوية تجري الى الخارج في جداول مختلفة ولكنها لا ترجع اليها الا قليلاً فكم ضاعت النقود الفرنساوية في تركيا و (هوندوراس) و (فنزويلا) ومعادن بلاد الاندلس وجمهورية (ارجنتين) و (البيرو) وغيرها . والمال الفرنساوي هو الذي كان له الحظ الاوفر في ذينك العملين العظيمين الذين لا نظير لهما في زمننا هذا اريد فتح قنال السويس وخليج بناما لكن كونهما فتحا بمال الفرنساويين لا يستلزم بقاءهما في حيازتهم . فاما قنال السويس فقد صار ملكاً لانكلترا ومن المحتمل جداً ان يصير بناما ملكاً للامريكان ومعناه استيلاء العنصر الانكليزي السكسوني على كل شيء فالفرنساويون يزرعون وغيرهم من الامم يحصدون والفرنساويون يتعرضون الى الاخطار حتى اذا وجبت الفائدة جناها غيرهم وهم اليه ينظرون

ثبت اذن ان فرنسا هي البلد الذي صارت الثروة فيه منقولة اكثر

من غيرها

والسبب في هذا اهمال الفرنساويين على تمادي الايام منابع الثروة العمومية الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة . ولسنا في حاجة الى اعادة ما سطره الغير من اصرار ملوكنا واخصهم لويز الرابع عشر على حمل الشرفاء على ترك اراضيهم وجلبهم الى دائرة الحشم والمعية وان الطبقة العليا تناست شيئاً فشيئاً سكنى الارياف واعمال الفلاحة واختارت الاقامة في المدن الكبيرة وصارت فرنسا اليوم هي البلد الذي تطول فيه غيبة كبار الاغنياء عن املاكهم وتحولهم عن الاشتغال باستغلال اراضيهم واصبحت الاموال التي كان ينبغي استعمالها في الزراعة وتحسين طرقها معطلة لا تفيد الزراعة وكان من الممكن استعمالها في الصناعة او التجارة الا انهما معتبران عند كل ملتصق بتلك الطبقة من الاعمال الدنيئة جرياً على ذلك الوهم المتأصل في الافكار من قديم حتى ان المشتغلين بهما لا يفكرون الا في الكسب باسرع ما يمكن ولا غرض لهم من جمع الاموال الطائلة الا التقاعد عن صناعتهم او تجارتهم وادخال ابنائهم في المهن التي تطلعت اليها الطبقة التي اتفقوا اليوم على تسميتها بالعليا وهي الوظائف الادارية . فمنتهى امل كل فرنساوي ان يلتحق بوظيفة في الادارة او الجيش وهي الطريقة التي يكون الواحد منهم بها مكرماً محترماً وهي التي تؤهله الى ان يتزوج بامرأة من الاغنياء وتجعله مقبولاً بين القوم الممتازين . اذن فالفرنساوي اما موظف او مترشح للتوظف ولهُ من ذلك راتب يقبضه وهو يقتصد من راتبه ما زاد على حاجته ولا شك انهُ لا يميل الى استعمال ما اقتصد في الزراعة او الصناعة او التجارة

للاسباب التي قدمناها وهي الحط من قدره على انهُ يجهل سبيلها بالمرة . وعليهِ فلم يبقَ لاستغلال ذلك المال الا شراء الاوراق المالية فهو الباب الوحيد الذي يمكن الدخول منهُ واليهِ يميل كل ذي مال لا يريد ان يشتغل لاستغلالهِ وانمائهِ او غير قادر على ذلك . وهناك سبب آخر في كثرة النقود المتوفرة لدى العائلات الفرنساوية وهو قلة الابناء كما قلنا فالمال الذي تنفقه الامم الاخرى في تربية ابنائها الكثيرين يقتصده الفرنساويون ويبقى هكذا تحت طلب الشركات المالية فاصرارهم على تقليل النسل يوجب ضعف قوتهم الاجتماعية في المستقبل ولكنهُ يدعو الى زيادة الاموال حالاً في خزائنهم ولا شك في انهُ لو حصل هبوط في اسعار تلك الاوراق المالية التي جمعت اموال الكثير من الفرنساويين كلها لكانت مصيبة كبرى ولخسروا خسارة لا عوض لها .

وليس هذا حال الامم الانكليزية السكسونية فلا يزال كبراؤها وعامتها مشتغلين بالزراعة وللوردات الانكليز املاك واسعة يسكنون بينها وهم يدبرونها بانفسهم ومن عمد الى الاستعانة بالغير في استغلال اراضيه فانه يحفظ على الدوام قسماً يباشره بنفسهِ ومن اجل ذلك تراهم واقفين على احوال الزراعة ومهتمين بشؤونها ومستعدين لاستعمال اموالهم فيها . ولا يكاد الفرنساوي يقدر المال الذي ينفقه احد اغنياء الانكليز في تحسين طرقها والتفنن في اساليبها (راجع كتاب تدبير الزراعة عند الانكليز لموسيو لافارج) . واستعمال الاموال في الزراعة هو اكبر باعث على اعتبار ذوي الحيثيات في تلك البلاد (راجع مذكرات على انكلترا لموسيو تاين) ومن الانكليز

عائلات كثيرة تهاجر الى امريكا واوستراليا وزيلنده الجديدة وكلها تشتغل بالزراعة ولها املاك كبيرة فيها لان الزراعة وحيازة الاراضي هما اقصى امانيها وبذلك سهل على كثير من شبان الانكليز ان يرتزقوا في البلاد الاجنبية ومتى اتجهت الهمم الى هذا السبيل لم يبقَ الا يسير من المال لشراء الاوراق المالية

وعلى الضد منهم لا يهاجر من الفرنساويين الا النزر القليل ومن تكلف الرحيل عن وطنهِ فانما يقصد برحلتهِ ان يكون موظفاً في البلاد التي يقصدها الا نادراً وهم بذلك يعيقون تقدم الاستعمار اكثر مما يساعدون عليه

هذا ولم يقتصر الانكليزي السكسوني على الزراعة بل هو يهتم ايضاً بالصناعة والتجارة حتى الكبراء منهم والامراء وابناء اللوردات الذين لا يذهبون لغير بلدهم طلباً لحيازة الاراضي وزرعها ينشئون في وطنهم معامل للصناعة او يتجرون ولا يخطر ببالهم فيما يعملون انهم خرجوا عن تقاليد آبائهم كما ان هذا الخاطر لا يجول بفكر احد من امتهم . وهذا هو السبب الوحيد في اتساع نطاق الصناعة والتجارة في انكلترا والولايات المتحدة بدرجة تكاد تبلغ حد الاعجاز ومعلوم ان ذلك يقتضي مالاً كثيراً فلم يبق للاوراق المالية الا يسير

ومما يزيد اولئك القوم رغبة في الزراعة والصناعة والتجارة عدم اعتبار الوظائف عندهم كما هي عند الفرنساويين فلا نرى في انكلترا مثلاً من الموظفين الا ما لا بد منه ومن هنا طلب الناس رزقهم من الحرف النافعة الاخرى وهم في مأمن من المخاوف لما هو مقرر في شرائعهم من ان تركة

الرجل لا تقسم بين جميع ورثته فالرجل يعمل ويجمع الاموال وله الخيار في تأسيس الاعمال الباقية على الدوام بعد مماته

ومن المسلم ان الذي يجعل مدار ثروته عمله الذاتي وكسبه الشخصي لا يكون عرضة للاخطار كالذي يتكل على تقلبات الاوراق المالية لان الاول لا يشتري تلك الاوراق الا من فضلة ماله ويشتريها وهو غير جازم بالكسب منها كمن يدخل بيت القمار فيرمي فيه ببعض دريهمات من نفقة نزهته فان اصاب ربحاً فيها وان اضاع ما انفق فالضرر محتمل ورأس المال محفوظ مصون

ألف موسيو (روزييه) كتاباً سماهُ (عيشة الامريكان) تلذ قراءته خصوصاً الفصل الثالث عشر الذي عنوانهُ (كيف يستغل الامريكي ماله) فقد ورد فيه ما يأتي (رأيت في نيورك وفي بوصتون رجالاً يشتغلون في الحرف الادبية ومع ذلك يضعون في الزراعة او غيرها قسماً من اموالهم ولهم علم بالجهات التي يضعون نقودهم فيها ولكنه لا يتألف من ذلك شركات كبيرة بل جمعيات صغيرة خصوصية ومن همهم ان يقفوا على كيفية الاستغلال وطرقه ولذلك لا يقسمون اموالهم ليضعوا كل قسم في جهة مخصوصة كما يفعل بعض الفرنساويين احتفاظاً عليها بل يجمعونها كلها في جهة واحدة وكلهم حراس عليها . ومن هنا تجد الجرائد الامريكية مشحونة بالاخبار العملية اي المختصة بالزراعة والصناعة والتجارة ولا ينشر اسعار الاوراق المالية الا القليل منها لان الكثير من قرائها لا يلتفتون اليها وهو معقول اذ لو كان عندهم مال لما استغلوهُ فيها بل جهات الاستغلال عندهم هي الهمم

والعمل فيتخذ الواحد منهم مصنعاً يشتغل بادارتهِ او يقصد التجارة ولكنهُ لا يرضى ان ينام على اوراق مالية يشتريها

من اجل ذلك تجد التعامل في الاسواق المالية عندهم يحصل على الدوام بالنقد فوراً فكل بيع او شراء تدفع قيمته بتحاويل يقبضها المحول اليه في اليوم الثاني ومن اشترى ورقاً لزمه ان يأخذه من مكان ابتياعه وذلك من اكبر البواعث على الاقلال من اعمال تلك الاسواق فلا يقدم على العمل فيها الا من كان المال حاضراً في يده ولا يجد من يبتغي الكسب بالدين اليهِ سبيلاً

وعلى هذا يمكننا ان نقول بان هبوط الاسعار عند الامم الانكليزية لا يضرها كما لو حصل عند الفرنساويين اذ الاولى أقل من الثانية في استعمال الاوراق المالية

ان الانصباب على تلك الاوراق في البلاد الفرنساوية هو الذي جعلها كعبة القصاد من ذوي الاموال وما اليهودي الا بزرة لا تنبت الا في ارض تناسبها والا لانتشر زرعه في انكلترا والبلاد الاسكنديناوية والولايات المتحدة واوستراليا وغيرها ولكنه لم يهبط الى تلك النواحي لان المال فيها غير موجود في الاسواق ولأن كل من كان له نصيب منه فيها يستغله بنفسه في ارضهِ او صناعتهِ او تجارتهِ . فحيث لا يجد اليهودي مالاً يقتنصه وحيثما يجد قوماً يعرف كل واحد منهم طريق الدفاع عما اقتنى تراهُ ينسحب من نفسه او انه يفقد ما في بزورهِ من الفساد

الفصل الثالث

﴿ في ان التربية الانكليزية السكسونية تساعد على التزاحم في الحياة ﴾
﴿ النوع والاخلاق ﴾

جاءني في شهر مايو سنة ١٨٩٢ دعوتان الى بلاد الانكليز : الاولى من جمعية تقدم العلوم البريطانية لمناسبة احتفالها بالمؤتمر الثاني والستين لها من ٤ الى ١٠ اغسطس سنة ١٨٩٢ بمدينة ايدنبورج وقيل لي في ورقة الدعوة (ان لجنة الادارة ترجو ان تشرفوها ببقائكم ضيفاً عليها مدة اقامتكم في هذه المدينة وكونوا على يقين من انها لن تهمل شيئاً من شأنه ان يجعل لكم المقام حلواً مرضياً) فلما قرأتها احسست اني غير قادر على عدم الاجابة

والثانية من الاستاذ (جيديس) مؤسس جمعية علمية يقال لها (جمعية الصيف) في المدينة ذاتها وكان يطلب مني ان القي بعض الدروس في العلم الاجتماعي على اصحابه

وفي اليوم الثاني من شهر اغسطس سنة ١٨٩٢ قصدت مدينة ايدنبورج فراقني مرآها وهكذا صرت اتردد عليها اربع سنوات متواليات وشاهدت تلك الجمعية الصيفية فاذا بها مدرسة علوم وفنون غريبة في بابها وهي في الواقع حقيقة بالانكليز وينبغي ان يعرفها القراء لذلك نذكر طرفاً من موضوعها

اشتغلت الافكار بنشر التعليم في البلاد الانكليزية حتى انتهى القائمون به الى تأسيس دروس متعددة في انحاء البلاد وعلى الخصوص حول كل مدرسة من المدارس الكلية وتدوم تلك الدروس في الغالب شهراً واحداً زمن العطلة الصيفية ويجتمع اليها الطلبة من رجال ونساء رغبةً في توسيع معلوماتهم وكل طالب او طالبة يدفع جعلاً معلوماً . وقد نجح هذا المشروع جداً في تلك البلاد لكثرة الذين يميلون الى زيادة التحصيل علماً بان العلم اكبر مساعد للانسان في حياتهِ فاذا جاء الصيف وحان زمان تلك الدروس رأيت الناس يكتتبون فيها مئات مئات في انكلترا والوفاً الوفاً في الولايات المتحدة

ولقد تولاني الاندهاش اول مرة جلست فيها لالقاء الدرس في مدينة ايدنبورج لما رأيت ان عدد الطلاب يبلغ الستين الى السبعين اذ ما كان يخطر بالبال انهم يبلغون هذا المقدار في درس يلقى باللغة الفرنساوية . وليسوا كلهم من طبقة واحدة بل من طبقات واجناس مختلفة مما يفيد المتأمل في احوال التربية واحوال الاجتماع . فنهم بعض ذوي الاملاك العظام وفيهم الكثير من المدرسين والكتاب ومدير جمعية البحث في احوال الامم بلندره وعدد من طلبة المدارس وفيهم من الشبان الذين يتلقون دروسنا في العلم الاجتماعي بباريس وقد اصابوا بمجيئهم الى ايدنبورج ومنهم بعض الفتيات وبعض المشتغلين بالتربية والتعليم والاعمال الخيرية من رجال ونساء وبعض المعلمين والمعلمات وهؤلاء اكثرهم بالطبيعة عدداً . واتفق اني قلت لاحدى المعلمات ان زميلاتها في فرنسا لا تردن ضياع زمن العطلة المدرسية

عليهن في تلقي دروس جديدة وعلى الخصوص بمقابل يدفعنه فبانت على وجهها علامة الاستغراب واجابت ان استعمال زمن العطلة في الاستفادة امر طبيعي . والواقع ان عدد الطالبين والطالبات لتلك الدروس بجوار كليات (اكسفورد) و (كمبريدج) وغيرهما قد يبلغ الستمائة كلهم يدفعون المقرر المفروض

وليس لهذا الانصباب سبب غير رغبة كل واحد في التحصيل ليكون لهُ بذلك قيمة ذاتية تعظم وتترقى على الدوام

وقد بينا في المجلة (العلم الاجتماعي) كيف ان تلك الرغبة تنمو بالتربية

ثم زرت عزبة في ضواحي ايدنبورج فشاهدت ان الميل واحد عند اهل الزراعة كما هو عند غيرهم ولما نزلنا الى المحطة وجدنا صاحب العزبة في انتظارنا واذا بهِ رجل لا يمكن التفريق بينه وبين احد اصحاب البيوت المالية او احد السياسيين او احد اغنياء الناس بحال من الاحوال لانه قد جمع شمائل الظرفاء من كل وجه فلباسه حسن التفصيل كأنه خرج من يد خياط شهير ولهذا التحدي في اللباس كما لغيرهِ مما يلي فائدة تظهر للقراء فيما بعد

اما العزبة فكائنة على مسافة كيلو متر واحد من المحطة ومقام صاحبها ملاصق لملحقاتها يصل الزائر اليه في طريق منتظم تحفه الازهار من الجانبين وفي المدخل باقة منها ومنظر البيت من الخارج منظر دار لطيفة من تلك الدور الانكليزية ولما دخلنا وجدنا الدهليز مفروشاً بالبسط وكذلك السلم والطرقات حتى انتهينا الى قاعة الاستقبال حيث كانت سيدة البيت في

انتظارنا فقابلتنا بلا تخمش كما تقابل السيدات المتعودات على الاجتماع واستمر الحديث بيننا بلا فتور واخذنا حظنا من كل موضوع وقد الفيتها تعرف اللغة الفرنساوية مما يدل على انها اخذت نصيبها من التربية ثم قدم الشاي على احسن ترتيب وشاهدت الخادمة ليست بتلك المرأة السمينة المتخمشة في هيئتها البطيئة في حركتها اللابسة لباس الريف المنتقلة فجأةً من علف الماشية الى خدمة الظرفاء بل هي خادمة تدل اعمالها على علمها بواجباتها وقد اتشحت بفوطة بيضاء محبوكة الاطراف مكوية باتقان وعلى رأسها تلك الطاقية الحسناء التي تتقلدها الخادمات الانكليزيات في بيوت الكبراء . ولا شك في ان ذلك كلهُ يدل على ان الرجل يعيش عيشة هناء ورخاء اذ لا يتأتى ان يكون قد اعد كل ما رأينا لاستقبالنا ولم يكن كذلك من قبل . ولقد اثر عندي هذا المنظر تأثيراً جعلني على الدوام افكر فيهِ واقارن بين ذلك الحال وما شاهدت في غير تلك البلاد من نظائره فبالمقارنة تتبين الاشياء . وكأني بالقراء وقد ادركوا انني لما رأيت صاحب ذلك المكان الانكليزي وتفقدت مقامه وخبرت نوع معيشتهِ تذكرت امثالهُ من اهل الزراعة الفرنساويين ومعلوم ان احسن اهل الزراعة عندنا هم سكان الشمال فهم الذين نرى من بينهم المتعلم المتنور او الحائز للشهادة الثانوية والذي احب الترفه وجمع في بيتهِ كثيراً من موجبات الراحة واتخذ له قاعة مخصوصة يستقبل الزوار فيها وتردى رداء الحضر لا رداء الصناع ولاحت عليهِ امارات رب المال الذي يديرهُ بنفسهِ وعاش في سعة وطاب طعامهُ ولذ شرابهُ . غير ان كل الناس ليسوا كهؤلاء ولست اقصد اهل الجنوب او الوسط او سكان (بروتانيا)

ممن لا فرق في المعيشة المادية بينهم وبين الاجراء بل اترك هؤلاء لاتكلم عن اهل (نورمانديه) التي هي من الاقاليم الموسرة وانا الآن اتذكر واحداً منهم زرته مراراً وله من الاطيان مائة وخمسون هيكتولتر اي كالذي يملكه صاحبنا الانكليزي وهو من الاغنياء بدليل انه جعل لابنهِ – ذلك الولد الوحيد – مهراً قدرهُ مائة الف فرنك وفي قدرتهِ ان يعيش المعيشة الراضية ولكنه لا يميل اليها بل هو لا يدركها . تراهُ لابساً لباس العملة وهو القميص الازرق القصير الذي يلبس من فوق الا في ايام الاسواق والموالد فانه يلبس رداءً رثاً من جميع الوجوه ليس فيه محل للنظافة أبداً . وامرأته على مثالهِ تذهب بنفسها لتغسل الثياب من حنفية عمومية ولا فرق بينها في لباسها وحركاتها وحديثها وبين بنات العزبة كلهنَّ . وبيتهم من الداخل يشبه الساكنين فيه فكلهم يقضي حياته في قاعة كبيرة لها باب مطل على حوش العزبة وحيطانها مبيضة بالجير تلطيخاً وهي عارية عن كل زخرفة وزينة وفيها من الاثاث كله مائدة كبيرة عبارة عن الواح سطحت فوق اعمدة تحملها وعليها يأكل الاسياد والخدم بلا فرش ولا غطاء وحولها مقاعد من خشب تناسبها وهي اربعة كراسي كل واحد على شكل مخصوص مصنوعة من البردى صنعاً رديئاً ثم كانون الطبخ وماجور تغسل فيه الآنية. هذا كل اثاث تلك القاعة ولم اخترهُ من المستثنيات بل ذلك هو الحال الغالب عند الفرنساويين اجمعين وربما شاهد ذلك كل واحد من القراء مائة مرة الا انها حالة لا تشمئز منها نفوسنا لاننا نراها عادية طبيعية ونفهم ان الفلاح لا يمكنه يعيش الا هكذا لان الزراعة من لوازمها فقد موجبات

للراحة والنظافة

ولعل القراء يحسبون ان الزارع الانكليزي الذي زرته يعد استثناء كذلك كان ظني بادئ الامر ولكني اعتقدت العكس لما دخلت بيوت الفعلة الذين يعملون في ارضه . ولا حاجة بي ان اشرح كيف يعيش الفعلة عندنا فالواحد منهم اما ان ينام في الجرن على القش او الحشيش او في الحوش على أردأ سرير او أن له اودة حقيرة يأوي اليها . ولما أذن لي صاحب العزبة بزيارة مساكن عماله رايت على بعد مائة متر من منزله خمسة بيوت اوستة تمتد على الطريق وهي ذات مناظر تعجب النواظر يتقدم كل بيت منها بستان صغير كله ازهار وله طرق في غاية الانتظام ومن الخلف بستان آخر تزرع فيه انواع الخضر . وعند وصولنا الى تلك المنازل راينا فتاة عليها سيماء الاواسط من الناس جالسة امام احدها وامامها رضيع عليه الملابس البيضاء المتقنة في عربة لطيفة في حالة جيدة ذات اربع عجلات من النوع الذي يقال له انكليزي وهو رفيع الثمن كما هو معلوم وكان معي حضرة زميلي في مجلة العلم الاجتماعي موسيو (يوانسار) فسأل صاحبنا ان كانت تلك السيدة من نساء المدينة اقبلت تتريض في هذا المكان فاجابنا والعجب يأخذ منا كل مأخذ كما لا يخفى انها زوجة ذلك الشغال الذي يسكن البيت الواقفون نحن امامه ثم سألها سيد المكان ان كانت تسمح لنا بزيارة بيتها فاجابت بالارتياح وادخلتنا فوجدنا امام الباب ممسحة للارجل وفي الدهليز بساطاً من الحبال لهذا الغرض بعينه ووجود الدهليز في المنازل من موجبات نظافتها وراحة سكانها فلا يدخل الانسان في الغرف من الخلاء مباشرةً ثم الدهليز

يوجب حماية من في البيت من البرد اكثر مما لم يكن موجوداً وعلى اليمين قاعة صغيرة جعلت لتسيل آنية الطبخ والملابس ووجودها يوجب نظافة اودة الاكل والطبخ لعزل التسيل في مكان مخصوص واودة الاكل هي ايضاً اودة المطبخ وهي كبيرة يبلغ مربعها اربعة امتار في اربعة تقريباً وفيها من الاثاث ما ترتاح النفس لوجوده وكانون الطبخ يغيب نصفه في الحائط ولا يظهر منه الا نصفه وتلك عادة مألوفة كثيراً عندهم وهو في غاية النظافة نحاسه براق ولا عجب من هذه النظافة لان طباخات الانكليز اكثر مهارة في نظافة الآنية منهنَّ في طهي الاطعمة فهنَّ ينظفنَ على الدوام ويستعملنَ نشارة الرصاص وماء النحاس في تنظيف المطبخ كما يستعملنَ الطباشير في نظافة الحيطان والحجر حتى يخيل للانسان ان الطباخة الانكليزية تجثو على ركبتها زمناً اطول من الذي تقف فيه على قدميها . ويوجد في تلك الاودة قطعة من الاثاث الخشبي ذي الصنع الجميل اشبه بكرسي كبير عليها انواع عدة من المصنوعات الدقيقة مرتبة ترتيباً جميلاً وهذا وحده يكفي لبيان مقدار اعتناء عائلة ذلك الفاعل بمنزلها ولا يغيبنّ عن الذهن اننا نصف بيت فاعل من فعلة الزراعة . ثم دخلنا اودة النوم فاذا فيها سرير من الحديد له اكر من النحاس لامعة من النظافة وبجانبه صندوق ذو ادراج (كومودينه) وفي مقابله مجلس (كنبه) ثم مائدة النظافة (تواليت) عليها احقاق من الورق وزجاجات المياه المختلفة الالوان مصفوفة على اكمل نظام وهذا يدل على ميل اولئك البسطاء الى الاشياء الجميلة وحسن الترتيب وتنظيم المأوى.

لكل الناس من هذه الطبقة مثل هذا الاهتمام لانه يوجد على مقربة

من العزبة معدن فحم وقد شاهدت اغلب بيوت الفحامين على هذا المثال من بستان صغير امام المسكن ومدخل نظيف وستارات بيض او ذات الوان جميلة مختلفة فوق النوافذ وغير ذلك ومع هذا فقد شاهدت بعض محلات الفعلة محفوفة بمنازل قذرة مهملة وكل ما يرى في الداخل يدل على هيئة رديئة والاطفال يروحون ويغدون حفاة الاقدام بملابس رثة خشنة وقد سألت مدير المصنع عن هذا التفاوت فقال لي (ان الفعلة الارلنديين لا يهتمون بنظافة البيوت وموجبات الراحة فيها لذلك يعطون المساكن العتيقة باجرة زهيدة وهي كافية لحاجاتهم اما البيوت الجديدة فقد بنيت للفعلة الايقوسيين الذين يعتنون بها ويزينونها بما يصل اليه الامكان) وقد اكد لي ذلك صاحب العزبة وانهُ يستعمل الايرلنديين في زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لان السكنى لا تهمهم

ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التي هي نشأة الانكليز السكسونيين وبين النشأة الاتكالية التي هي نشأة الايرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما الى نظام المعيشة وحسن الترتيب في المسكن وهو فرق محسوس تأكدت منهُ في زيارتي بعد ايام قلائل لاحد صناع الآلات الميخانيكية ببلدة (ينكويك)

ذهبنا في الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاي عند ذلك الصانع فوجدناهُ يسكن بيتاً هو ملكه وهو طبقتان ارضية وعلوية وقدم لنا الشاي في اودة معدة للاكل والاستقبال معاً وفيها مجلس (كنبه) وآلة موسيقى (پيانو) وبساط يستر اغلبها وفوقهُ بساط اصغر منهُ واقل ثمناً لحمايتهِ مما يدل على

ان سيدة البيت ذات اعتناء بهِ ونظافته اما الشاي فقد تناولناهُ على مائدة مربعة في آنية تكاد ان تكون من الزخارف فغطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق والاكواب من الخزف الجميل وخمسة اطباق او ستة ملأى بانواع الافطرة وعيش مقدد مدهون بالزبدة . ولما شربت اول مرّة طلب مني ان اثني فرضيت واذا بهم غسلوا كوبتي قبل ان يصبوا الشاي فيها من جديد واودعوا الماء صحفة موجودة فوق المائدة لهذا الغرض بعينهِ . ولا اظن اني مخطيء اذا قلت ان الفرنساويين يكتفون غالباً بان يصبوا الشاي مرة ثانية لضيفهم من غير زيادة احتفاء واحتفال . وعلى كل حال فهذا هو الذي اعلمهُ عن بلدي ومن جاورني . والخلاصة ان ذلك العامل البسيط يتأنق في تناول الشاي وتقديمهِ تأنقاً لو ادخل في كثير من بيوتنا لعد تقدماً

ثم سألت صاحب العزبة عن اجرة الرجل عندهُ فاجابني خمسة وتسعون فرنك في كل شهر ومسكن وبستان للخضر تبلغ مساحتهُ (آكرين) ونصيب من البطاطس كبير وهذا هو الايراد الذي يتمكن بهِ اولئك الفعلة من تحصيل العيش بالكيفية التي شرحناها لان نساءهم لا يشتغلنَ في الخارج الا قليلاً ولم يقم دليل على ان النظافة وحسن نظام المنزل تقتضي من النفقات اكثر من اختلال الحال والوساخة والاضطجاع على المكاسل في القهاوي والحانات

وليلاحظ ايضاً ان العامل الانكليزي لا يقتصد الا قليلاً بخلاف رفيقهِ الفرنساوي فالاول ينفق ما يكسب كلهُ تقريباً واعتماده في تحصيل عيش اوسع انما هو على ما يرجوه من زيادة الراتب بانتقالهِ من درجة الى

ارفع منها لا على ما يدخرهُ من اجره اليومي . ولهُ في الواقع فراسة وحذق في الارتقاء فلا يضيع فرصة الترقي متى سنحت وهذا هو السبب في انهُ لا يحجم عن التغرّب ولا يخاف الهجرة عن بلدهِ اذا رأى الضرورة قائمة كما يدل عليهِ عدد الذين يهاجرون الى جميع الاقطار من الانكليز السكسونيين وهمه بمستقبلهِ ليس الا في ادخار بعض الشيء لارملتهِ بعد وفاتهِ لذلك يميل الانكليز الى التأمين على الحياة كثيراً وهذا هو السر في انتشار شركات التأمين المذكورة في انكلترا والولايات المتحدة انتشاراً كبيراً

وفيما تقدم برهان جديد على ما لاصحاب هذه النشأة من الاستعداد للتقدم والترقي

واهم منهُ ان الرجل في هذه البلاد مهما صغر وكان حقيراً يعيش عيشة احسن من عيشة اهل القارة الاوروباوية وفي راحة من حيث نظام البيت اوفى وفي كرامة كما يقول الانكليز اوفر وبالجملة فانهُ لا ينقص عامل هذه البلاد في الريف او الحضر الا يسير جداً ليصبح في الظاهر بل ويجوز انه يصبح في الحقيقة ايضاً من ذوي الحيثيات الذين عرفوا النعمة منذ نعومة الاظفار فبزور التنعم مغروسة عندهُ وحالتهُ في الظاهر تدل على ميلهِ اليهِ وطمعهِ فيهِ لانهُ يفضل ان ينفق ليعيش في سعة على ان يقتر ويعيش شقياً

اما عندنا فالفضيلة الكبرى هي التوفير والادخار ولا تقدم لنا الا بالتقتير والحرمان لذلك يرضى الرجل منا بما يعافهُ الانكليزي فرتبات موظفي الحكومة عندنا من كل الطبقات ادنى من مرتبات الانكليز ومع ذلك فكثير من الموظفين الفرنساويين يدخرون جانباً من مرتبهم الزهيد . لكن

الرجل من الانكليز سخي في الانفاق على نفسهِ حتى يحصل اكبر حظ ميسور من العيش والرغد ثم يستغل ما فاض عندهُ بنفسهِ

ولقد ظهرت فينا آثار تعودنا على التوفير والمعيشة الضيقة فلا نزال نحافظ على تلك العوائد ولو بلغ الواحد منا مبلغاً من الثروة والمال ذلك لان العادة لا تزول فنكتفي ببيت لهُ من النظام اليسير ونرضى بالزينة العرضية القليلة اللهمَّ ان لم نفضل معيشة اهل (نورمانديه) الذين لا يبتغون الخروج من تعاستهم مهما كسبوا

ان في طبقات العملة منا استعداداً لتحصيل المال بالاقتصاد والتوفير ولكنهم لا استعداد فيهم الى الارتقاء من حيث الاحوال الاجتماعية اي انهم لا يذوقون حلاوة عيشة السعة الراضية ولا يدركون لذة نظام المنزل وكمال موجبات الراحة فيهِ

بعد الفراغ من قراءة الدرس ذات يوم ركبت مع بعضهم عربة وقصدنا زيارة عائلة تسكن في ضواحي ايدنبورج حيث اعد لنا طعام الظهر وكنت ميالاً كثيراً لزيارة تلك العائلة لانها من قراء مجلة العلم الاجتماعي اذ وجدتها فرصةً اقف بها على تأثير تعاليمنا في اذهان الانكليز . فلما قربنا من المنزل وجدناهُ مشيداً على مرتفع عظيم وقد جمع من الزخرف وحسن الترتيب شيئاً كثيراً والعائلة تتألف من زوجين في ريعان الشباب ووالد الزوج وثلاثة اولاد فيما اظن وكلهم يسكنون السنة باكملها في الخلاء على مسافة ستة كيلومترات من ايدنبورج . وقد شاهدت في الطريق مساكن كثيرة قيل لي انها مسكونة على الدوام وسكنى الخلاء على الدوام حتى في الشتاء عادة من عادات الانكليز

فقد اخبرتني فتاة على وشك الزواج انها ستسكن الضاحية وان كانت اشغال زوجها تستدعيهِ كل يوم الى المدينة . ومما يدهشنا نحن الفرنساويين قولها انها ترى ذلك الذ واهنأ اذ يخلص الانسان من جميع القيود ويجد ممدات الراحة ولوازم الرغد كاملة . وفي ظني ان الاستقلال ورغد المعيشة هما القطب الذي ترمي اليهِ افكار الانكليز وتتجه نحوهُ اعمالهم كلها في هذه الدنيا لذلك تراهم يرتاحون في العزلة والاقتصار على ما قل من الاصحاب وفي ذلك للامة من القوة ما لا يخفى . ولما دنونا من المنزل قوبلنا بحفاوة واكرام اثرا عندي اي تأثير كأني كنت لهم صديقاً عرفوا مبادئهُ ووافقوهُ عليها . والواقع ان العلم الاجتماعي لا يدخل امخاخ الانكليز كما يعلق باذهان الفرنساويين والفرق بين الامتين في ادراكهِ يرجع الى ان الفرنساوي يقرأهُ ليبحث فيهِ عن طريقة تنتظم بها احوال المجتمع الانساني باكملهِ واما الانكليزي فانهُ يستهديهِ طريقة يسير هو عليها بين الناس وميل كل امة يناسب نشأتها . فنحن اهل النشأة الاتكالية نصبو الى الافكار العمومية والانكليز اهل النشأة الاستقلالية يميلون الى الامور العملية المفيدة . هكذا فهم اهل الدار التي نحن فيها العلم الاجتماعي والتمسوا منهُ باباً للمعيشة وهم من ارباب الاملاك الواسعة اجروها لآخرين الى زمن ينتهي هذا العام وقد عولوا على عدم تجديد الايجار وان يتخذوا ارضهم مقاماً لان الرجل يريد ان يدير املاكهُ بنفسهِ . وحتى يأتي الاجل المعلوم تراهُ مشتغلاً بالاستمداد واخذ الاهبة بمزاولة العمل فيقضي يومهُ طول النهار في عزبة صديق يجاورهُ حيث يشاهد اعمال الزراعة ويتعرف طرقها والكتاب في يدهِ والتطبيق بين يديه

على الطريقة الانكليزية التي هي المثلى . وقد شاهدت ان الانكليز حتى الذين يشتغلون بالتجارة والصناعة ويقضون نهارهم في المدن اكثر استعداداً للزراعة من صناعنا وتجارنا فهم اقرب اليها منا ويستسهلون الدخول فيها عنا. فقد اخبرني احد الاصدقاء موسيو (بياش) وكان يرافقني انهُ زار احد مستاجري العزب فعلم انهُ كان وكيلاً لاحد البيوت المالية في ناحية واصاب البيت جائحة فاقفل ابوابه وتخلى عنهُ ذلك الوكيل فاستاجر ارضاً فسيحة واقام في فلاحتها . واني لا اخالني اجد كثيراً من امثال هذا الرجل في البلاد الفرنساوية

وقد بحثت عن علة استعداد الانكليز الى الزراعة فوجدتها التربية التي تكاد ان تكون ريفية لكثرة ما يوجد من الجنائن في مساكنهم يضاف الى ذلك ما هو لازم لنشأتهم الاستقلالية من الشغف بمعرفة الاشياء التي تقع تحت نظرهم اكثر من حبهم في معرفة الناس فيشبون على تعرف تلك الكائنات وتسهل عليهم عيشة الريف لمطابقتها ايضاً لرغبتهم في تحصيل رزقهم بانفسهم فلا يبلغ الواحد منهم ابان الشباب الا وقد مارس غرس الاشجار وزرع البقول وتربية بعض الحيوانات المنزلية . كل ذلك يدركهُ الكثير من شبان الانكليز بمحض الفطرة من غير تعب ولا عناء وهذه معلومات لا يحصلها عندنا الا الفلاحون ومن اقاموا على ادارة اموالهم بانفسهم . وقد شاهد احد زملائنا موسيو (بيرو) آثار هذه التربية بادية حتى في مدارس المدن بالولايات المتحدة الامريكية عند ما ذهب اليها لغرض يتعلق بابحاثنا الاجتماعية فرأى ان الاهتمام بالعلوم الطبيعية خصوصاً

ما يتعلق منها بالنباتات والحيوانات هناك اكثر منهُ عندنا وانهم لا يقتصرون على تعليمها في الدرس بل يقرنون العلم بالعمل والمشاهدات . وكثيراً ما تدور ابحاثهم على موضوع حي بين يديهم والمدرس يطلب من تلامذتهِ ان يأتوه في الدرس القابل بفرع من شجرة او ورقة ليلقي عليهم الدرس بمشاهدتها حتى يكون ادراكهم للشيء حاصلاً بواسطة ذلك الشيء الماخوذ من مكانهِ الطبيعي . وظاهر ان هذه طريقة اثبت في التعليم وابقى للعلم في الاذهان فيسأل التلميذ عن المكان الذي تناول منهُ الشيء والارض التي كان موجود بها وعما اذا كان لاحظ نموهُ وامعن النظر في شكلهِ وهيئتهِ وغير ذلك

ومن المعلوم ان هذا التعليم غير ميسور الا اذا سكن التلامذة او بعضهم في الخلاء او كانوا به متصلين كأن يكون في مدارسهم او على مقربة منها بساتين يأخذون منها ما يحتاجون اليه في درسهم

لاحظ (تاين) في الانكليز هذا الاستمداد لمزاولة اعمال الزراعة والميل الى المعيشة في الارياف واذكر عنه انه كتب في بعض مؤلفاته ان الزراعة من المسائل التي تجري المسامرة فيها في البيوت بين المجتمعين من اهل وزوّار حيث يدور البحث على طرق اصلاح الاراضي ويسري الحديث الى الجزئيات والاستشهاد بالامثلة وكل واحد من الناس يميل الى هذا الحديث وللنساء فيه حظ الرجال

وعليه فلا يستغرب ان زوجة صاحبنا الذي اشرنا اليه تكون مستعدة بكمال الرضاء الى مصاحبته في سكنى اراضيه التي يريد ان يتولى ادارتها بنفسه وقد حادثني في هذا الموضوع ملياً فرأيت منها العزيمة صادقة وانها

عولت على ما عزمت بروية بعد ان احاطت باطرافه وتبينت وجهي الضرر والنفع منه . ولو ان في زوجها ترددا لوجد منها مساعداً لهمته ومعيناً له في مهمته . ولا شك في ان معونة المرأة للرجل مما يشد أزره ويزيده قوة واقداماً . واني اعرف كثيراً من اصدقائي في فرنسا يودون ان يتولوا ادارة اطيانهم بانفسهم لقلة المستأجرين ولكنهم لا يستطيعون ذلك لاباء نسائهم مرافقتهم فالمرأة الفرنساوية ابعد عن معيشة الريف من الرجل ويشق عليها اكثر منه ان تتخلى عن صاحباتها وزياراتها والاجتماعات التي اعتادتها وربما كانت هي حجر العثرة الوحيد في طريق تقدم زراعتنا وصناعتنا وتجارتنا بما ارتكز في ذهنها من الوهم بان تلك حرف دنيئة لذلك يتزوج الرجل احسن زواج اي اغنى امرأة (وبين الاول والثاني فرق بعيد) اذا كان في الجيش او موظفاً في الحكومة ويقال ان للرؤساء الروحانيين تأثيراً على النساء ولكني اود ان لا يكون ذلك كذلك حفظاً لشرفهم واستبقاء لحسن السمعة عنهم

لم يكن عندي درس يومي السبت والاحد لانهما يوما عطلة في انكلترة فمن ظهر السبت تقف حركة الاعمال وتقفل المعامل والحوانيت الى صبيحة يوم الاثنين . ورب سفسطائي يجول بخاطره ان الانكليز هم اكثر الامم عملاً واقلهم عملاً والواقع انه لا نظير للانكليزي في قدرته على العمل ولا في قدرته على الاستراحة منه لانه يعمل اكثر ما يمكن في اقل ما يمكن من الزمن ليستريح ما امكن . وقد شاهدت في لندره ان بعض المخازن لا تفتح قبل الساعة التاسعة صباحاً ثم هي تقفل في المساء مبكراً اكثر من عندنا وكذلك شأن المصالح ودوائر الاعمال . والخلاصة ان يوم العمل الصحيح

اقصر عند الانكليز منه عندنا . ومن هنا سهل على الانكليزي ان يذهب كل يوم الى بيته في ضواحي المدينة وان يعود في الصباح لانه لا يسكن حيث يشتغل كما قدمت الا نادراً . وقد اكد لي بعضهم ان كثيراً من ارباب الحوانيت في ايدنبورج يسكنون الخلاء ويقطعون كل يوم صباح مساء مسافة كبيرة . اما عندنا فالاكثرون يسكنون خلف محال تجارتهم او فوقها لذلك يسهل عليهم ان يفتحوا ابواب اشغالهم مبكرين ويقفلوها متأخرين ثم ان كثيراً منهم لا يعطلون يوم الاحد وما من احد يستريح يوم السبت بعد الظهر ابداً . ولو اقتصر المتأمل على هذه الحال لقال ان الفرنساوي اكثر عملاً من الانكليزي غير انه لا ينبغي الوقوف عند عدد ساعات العمل بل الواجب زنتها وزنة عمل الانكليزي اكبر بكثير فهو يعمل كثيراً في وقت يسير ولا يكاد يستريح هنيهة يتناول فيها شيئاً من الطعام وسط النهار وقد يتناوله وهو على قدميه من دون ان يتخلى عن العمل

انتهزت فرصة الفراغ صبيحة يوم السبت وذهبت لزيارة احد مناجم الفحم على مقربة من مدينة (هاوترندين) وهناك تعرفت بابن عم مدير المنجم وهو شاب انكليزي يشتغل بتجارة الاغنام في زيلانده الجديدة ويأتي في كل سنتين مرة ليقضي شهرين في انكلترة وهو راض عن حالته في تلك البلاد وقد اختارها مقاماً ابدياً وقال لي (هناك الحياة الحقيقية) فسألته عن موجب اعجابه بها فقال (الاستقلال) وهو برهان جديد على ان محبة الاستقلال هي التي تحرك الانكليزي وتدفعه الى العمل في جميع الاحوال . ومهما قلبنا احوالهم وبحثنا في عوائدهم واخلاقهم وسبرنا غور مقاصدهم

ومراميهم لاتهتد الى نتيجة غير انهم يحبون الاستقلال . سألته عن انجح الطرق للمعيشة في تلك البلاد فقال (ان يبتدئ الانسان كعامل بسيط يرعى الاغنام) هكذا بدأ ذلك الشاب ولا تنس ان عائلته من خيار العائلات الوسطى غير ان الانكليزي لا يحتقر من الصنائع الا ما قل كسبها لكن رعاية الاغنام كثيرة الفوائد لانها احسن وسيلة تمكن صاحبها من معرفة احوال البلاد التي نزل بها ومن الوقوف على جميع ما يلزم للاتجار بالاغنام واكبر صعوبة على النفس فيها وجود الانسان مع قوم خشنت طباعهم غير مثقفين . قال صاحبنا (ولكن اذا كان الرجل ممن حسنت تربيته لا يلبث ان يصير محل احترام اولئك القوم على ان من السهل اجتناب رذائلهم بالسكنى بعيداً عنهم) فاذا تم الاختبار وكمل العلم بحاجات الصنعة التي اختارها اقدم على شراء قطيع من الغنم اما اذا اراد القادم في تلك البلاد ان يبدأ بالتجارة مباشرة فانه يصبح العوبة في ايدي السماسرة فيقع في ارض قليلة الانتاج وماشية معدومة النتاج . وفي ظني ان شباننا لا يرضون ان يبدأوا في العمل على هذا المثال على انه المثال الاقوم وبه ينجح الكثير من شبان الانكليز السكسونيين

وجهت العناية الى زيارة كثير من المنازل الخلوية فكنت اذهب اليها كل يوم بعد الظهر واول ما تأثرت به كون تلك العائلات قد اتخذت الريف مقاماً اصلياً يدل عليه ما يشاهده الزائر لتلك المنازل من كثرة الصور التي تمثل افراد العائلة والمقتنيات الفنية الثمينة وقد يحتوي بعض هاتيك القصور على مدخرات تتفاخر بها المدائن الكبيرة لو كانت في دار تحفها . ومع ذلك

اتصل بي ان بعض تلك العائلات اصبحت في حالة عسر اضطرتها الى بيع ارضها ومنها صاحبة قصر وبستان كنت ازوره وهي من اشراف ايقوسيا الاقدمين من سلالة (السلتيين) ومن الاستقصاء علمت انها تقلبت في ادوار الحياة كتقلبات الشرفاء في فرنسا بمعنى انها ابتعدت عن مزاولة الاعمال وما حفظت مقامها بين اترابها الا بانتقال ثروتها من الارشد الى الارشد وكثيراً ما كان التوارث يحصل بطريق الايصاء مما يشبه الوقف ومع هذه الحياطة قد اخنى الزمان على الكثير من تلك العائلات وامست يحدق بها الزوال والاندثار

ولا غرابة في هذا فان طبقة اشراف الانكليز ليست في الحقيقة من نتائج الاجتماع الانكليزي السكسوني اذ الجمعيات الاستقلالية لا تلد مثل الطبقة المذكورة فلا يجد الباحث في احوال الامم طبقة ممتازة يتوارث شرفها من الخلف الى السلف في البلاد التي نشأ فيها رجل الاستقلال بعيداً عن المؤثرات الاجنبية اي على حالته الاصلية . هكذا الحال في بلاد (نرويج) وفي بعض جهات السكسون المسماة (بلين) حيث يشاهد الزراع السكسوني على ما كان عليه منذ القدم بدون ان يختلط به غيره . كذلك لا تجد اثراً لطبقة الاشراف الوراثية في البلاد الجديدة التي يسود فيها الآن العنصر الانكليزي السكسوني فلا اثر لها في الولايات المتحدة ولا في اوستراليا ولا في زيلانده الجديدة وغيرها . ولا غرابة في هذا لان طبيعة ذلك الجنس لا تقتضي ذلك الوجود . والذي يميز النشأة الاستقلالية عن غيرها من المجتمعات الانسانية هو قيام كل ولد مستقلاً بنفسه على ما اودع في شخصه

من القوة والاقتدار من دون معونة الذين تربى في حجورهم وهي الحالة التي يعبر عنها الانكليز بقولهم (مساعدة المرء لنفسه) و (التزاحم في الحياة) ومن المحقق ان طبقة اشراف الانكليز وما يتبعها من حقوق الارشدية والايصاء بانتقال الملكية من الوالد الى الولد آتية من مبدأ يخالف ما تقدم فهي اثر من اثار الجمعيات الاتكالية القائمة على قاعدة مساعدة العائلة لابنها مما ينزل بهمته الى الحد الادنى ويكفيه مؤونة مساعدته لنفسه ومزاحمته في الحياة . فارشد العائلة الشريفة في بلاد الانكليز ينشأ كما ينشأ اهل جمعية الاتكال

دخلت طبقة الاشراف الوراثية بلاد انكلترة مع (النورماند) الذين وفدوا عليها بقيادة غليوم الفاتح ونحن نعلم ان الفاتحين من النورماند هم من امم الاتكال تجمعوا من كل الجهات طمعاً في الغنائم واخصهم من فاسدي الطباع ومن لا خلاق لهم ولا ارض يطمئنون فيها . والتاريخ يدلنا دلالة واضحة على كيفية احتشاد تلك الجنود ويبين لنا بياناً كافياً كيف نزلوا الى بلاد الانكليز وانهم انفرطوا بين اهلها وقاسموهم ارضهم فاختصوا باحاسنها ولكنهم لم يطمئنوا اليها كاطمئنان السكسونيين او المهاجرين من اهل الامم الاستقلالية . واستمر السكسوني المغلوب يزرع الارض لمنفعة النورماند والنزاع القائم بين الفريقين انما هو نزاع بين جمعيتين من نشأتين مختلفتين كل الاختلاف

وبقدر ابتعاد النورماند عن الاطمئنان الى الارض ومزاولة اعمالها تمسكوا كل التمسك بما يرجع الى نشأتهم الاتكالية وهو الشرف الوراثي

الذي ينتقل من الوالد الى الولد واقاموا على ما اوجدوا من ذلك الى يومنا هذا فاضروا كثيراً مدى قرون عدة بالعنصر الانكليزي السكسوني او الاستقلالي في انكلتره . وليس من مطلبي ان ابين في هذا الكتاب كيف انتهى الحال باجتياز الانكليزي تلك العقبات وتغلبه على هاتيك العوائق التي قيدته ازماناً طوالاً وصيرورته صاحب المقام الاول بما اودع فيه من القدرة على المقاومة والاحتمال والحياة التي تفوق حياة غالبه كثيراً ولكني اشاهد ان من نتائج نصره حصر السلطة الملوكية في اضيق دوائرها فمن المعلوم ان الانكليز انتهوا بتأسيس نظامهم على ان تحكم الامة نفسها بنفسها وذلك من خصوصيات النشأة الاستقلالية .وكان وصولهم الى هذه الغاية في الزمن الذي استولت فيه النشأة الاتكالية على ازمة الامة الفرنساوية فافضى امرها الى سيطرة لويز الرابع عشر واستبداده المطلق في حكومتها .

غير ان الانكليز لم يتخلصوا من جميع آثار النورماند فيهم بل بقي لهم منها طبقة الاشراف الوراثية واكتفوا في ابادتها بأن فلّوا من شأنها وجعلوها كالملوكية اسمية لا فعلية مع بعض الامتيازات السياسية كوجود قسم من افرادها في مجلس اللوردات ولم يناضلوها على هذا الامتياز لانهم وجدوا مزاياه راجحة على مضاره حتى الآن . وبيانه ان الانكليزي واعني به القسم السائد من الانكليز ذا النشأة الاستقلالية ميال بالطبع الى الصنائع والحرف لما قدمناه من احتياج الشبان الى تحصيل مرتزقهم بانفسهم من دون التفات الى ثروة آبائهم او انتظار مهور نسائهم وبما اودع فيهم منذ طفوليتهم من محبة العمل والاقدام عليه سدّاً لتلك الحاجة التي يعرفونها ومن وقف على

حقيقة هذا الميل وضحت له الفائدة التي يراها الانكليز في طبقة الاشراف التي وجدت بينهم بالقهر عنهم : يرون فيها وسيلة سهلة ترضى بها نفوسهم، وتروق في نظر الغير لاداء وظيفة لا بد منها وهي السياسة التي هم لا يميلون اليها ميلاً خصوصياً . ومن المحقق ان طبقة الاشراف اوجدت لهم مجموع رجال سياسيين من ارفع السواس مقاماً. وزد على ذلك ان دوام مصادمة التربية الاستقلالية التي هي اصل في السكسوني للشرفاء خفف من ثقل وطأتهم كثيراً وعلى الاخص منذ قرن من الزمان.

اثرت النشأة الاستقلالية في الاشراف من جهتين

الاولى انها انتشلت الولد الثاني من البطالة وابعدتهُ عن خدمة البلاط وحولتهُ عن وظائف الحكومة والجيش وهذه الوظائف هي التي كانت عندنا الملجأ الوحيد لاولئك الابناء وادت بهم شيئاً فشيئاً الى الاضمحلال وفقد القدرة على العمل هم والارشدون سواء. فانحدر ذلك الولد مع تيار الحياة الجديدة حيث يقوم الرجل فيها بامر نفسه مما هو خاص بالنشأة الاستقلالية. لذلك اذا انقرض نسل الارشد ووقع المال الى احد اولئك الابناء الثواني رأيتهُ يدخل في صف الشرفاء وقد تربى تربية متينة واكتسب خبرة وهمة لم تكن لغيره ممن لم يعش معيشتهُ ولم يعرف شيئاً من الحرف التي ترجع الى الزراعة والصناعة والتجارة فهم يجددون حياة تلك الطبقة آناً فآناً ولولاهم لانحلت واصبحت عفاء . ومن موجبات حياتها ايضاً ما يضاف اليها من الرجال السكسوني الاصل الذين ترفع الحكومة رتبتهم وتنعم عليهم بالقاب اللوردات وما يماثلها

الثانية انها ما زالت بالاشراف كما فعلت بالملوكية حتى انتزعت من نفوسهم كل طموح الى العبث بحرية الافراد واستقلالهم . ذلك لان رجل الاستقلال لا يهتم بالسياسة اهتمام رجل الاتكال بها ولا ان يعيش منها مثلهُ ولكنهُ شديد الحرص على استقلالهِ وخلاصه من كل قيد يعيقهُ في عملهِ الذاتي لاحتياجهِ اليهِ في تحصيل مرتزقه فلا يطيق ما يعيق زراعتهُ او يعطل صناعتهُ او يضر بتجارتهِ ولا يقبل ان تضايقهُ الحكومة باستبدادها ولا ان تثقل عليهِ ضرائبها ونتيجة ذلك الحال ميلهُ الدائم الى جعل الحكومة قاصرة على وظيفتها الضرورية وهي حفظ الامن العام اللازم لكل واحد في عملهِ . اما نتيجة حال امم الاتكال فهي بضد ذلك الاخلال بالامن العام بقدر الامكان والناس يعملون لذلك جهدهم رجاء ما يسرون في نفوسهم اذا تغلب حزبهم من نيل الوظائف ذات الرواتب الوافرة لهم او لابنائهم اذ الثابت في الاذهان ان احسن العيش ما كان ثمنهُ من اموال الامة التي تجمعها الحكومة في خزائنها وليس لما احدثنا من القلاقل وما اضرمناهُ من نار الثورات والفتن المتعددة التي لا يزال اهل امريكا الجنوبية يستخدمونها في كل يوم سبب غير ما تقدم

هكذا كان تعود الامة الانكليزية على حكومة نفسها بنفسها مملاً لامتيازات الشرفاء منهم وهم الذين كان يخشى من ثقل وطأتهم وصيرورتهم ممقوتين بسببها

ومع ان طبقة الاشراف الوراثية طارئة على انكلترا فانها اضرت برجالها الاصلي وغيرت منهُ كثيراً واذا قابلنا بين منافعها واضرارها وجدنا الثانية

هي الراجحة

مدار النشأة الاستقلالية على ان الرجل لا قيمة لهُ الا بنفسهِ وقدرته على العمل وهمته ومثابرته ولا فرق بين الناس وبعضهم الا بما كان راجعاً الى تلك الصفات. ودخول طبقة رفيعة المقام بمقتضى الوراثة والتناسل قد اوجد بجانب هذا الاصل فكر آخر اتكالي مادتهُ ان الرجل ليس شيئاً بنفسه بل قيمتهُ تاتيهِ من عائلتهِ وعشيرتهِ وحزبهِ الذي ينتمي اليـهِ وظاهر ان هذا تغيير عظيم كما اشرت اليه لانهُ يغير مثال الامة في اصلهِ ونحن اهل القارة لا نشمئز كثيراً من هذا الفكر لاننا ربينا كلنا في فكرة الاتكال على اختلاف في قوة تاثيرها عند كل فرد بذاتهِ ولذلك نرى تقسيم النـاس الى طبقات بحسب النسل والعشائر امراً طبيعياً . الا ان الامر ليس واحداً في انكلترا لا سيما عند مجموع الامة حيث النشأة الاستقلالية ثابتة الدعائم في الاذهان وكثيراً ما شاهدت هذا الشعور عندهم وهو ظاهر في كتاب الفهُ مسيو (شاكيري) وسماهُ (كتاب المستشرفين) في التنديد على الذين يحبون الشرف ويميلون اليه.والمستشرف هو الذي يعجب بالامراء ويقلدهم فيما يفعلون وما يقولون ويتخذ كل وسيلة للتحكك فيهم والالتصاق بهم ولا ينظر في احوال الناس ويحكم على اعمالهم برأيهِ ونظرهِ بل بمـا يراهُ اولئك الامراء الذين جعلوا لهم حياة على حدة . قال المؤلف (لقـد يستغرب الانسان من انتشار اللوردية والاهمية التي صارت لها في هذه البلاد وكيف يصح في بلدنا التي يقال لها حرة ان تعبـد رتبة الآباء (اللوردية) حتى لم يبقَ فينا واحد لم ينخدع بخيلائها ولم ينبطح على بطنهِ اجلالاً لها وتعظيماً

وفي ظني ان تأثير الشرفاء على المستشرفين كان تأثيراً عظيماً فبقاء هؤلاء وانتشارهم فضل من فضائل الاشراف التي نحمدهم عليها) وليلاحظ ان الكاتب كان يقول ذلك سنة ١٨٤٨ ايام كان صوت الاشراف رفيعاً وقولهم مسموعاً. ثم اخذ المؤلف يذكر فلاناً وفلاناً ممن غرتهم الظواهر فاستشرفوا وجعل يصفهم بصفات يهرب العاقل منها

واعلم بان الاستشراف منتشر في فرنسا كانتشاره في انكلترا فما منا الا من يحب الاشراف ويصبو الى الشرف غير ان الفرق بيننا وبينهم ان حالتنا طبيعية ترجع الى نشأتنا الاتكالية بخلافها عند الانكليز فانها عرضية دخيلة في بلادهم مناقضة لنشأة العنصر السائد فيها ولذلك يرجى حصول التغيير متى قويت النشأة الاصلية وتغلبت على الدخلاء وهذا هو ما يجري اليوم في تلك البلاد اذ من المحقق ان تأثير الشرفاء يضعف يوماً فيوماً وهو الآن اقل بكثير منهُ في زمن (شاكيري) على قربهِ منا ويخال ان مركزهم اصبح متزعزعاً بدليل انحطاط سلطة مجلس اللوردات شيئاً فشيئاً حتى انتهى الناس فبحثوا جهاراً في وجوب الغائهِ ومما لا شك فيهِ ان الغاءهُ لا يحدث تغييراً البتة في نظام الامة الانكليزية لانهُ من الاصل امرٌ زائد في ذلك النظام

على ان انكلترا لن تعدم بفقد اللوردات وجود طبقة رفيعة لان العنصر الاستقلالي يلد هذه الطبقة وان كان التكوين مختلفاً. وتلك الطبقة موجودة فعلاً في بلاد الانكليز ومنتشرة بين اهلها وهي طبقة المهذبين. والفرق بين المهذب وبين اللورد او الشريف ان منزلة الاول ليست وراثية بل هي

ذاتية كسبية ولا دخل للحكومة في اقرارها وانما الناس يعرفونها لمن اصبح جديراً بها . ويقال اليوم عندهم فلان مهذب او غير مهذب يراد بذلك ان له من حميد الصفاة وجميل الاخلاق مجموعاً يعسر التعريف عنهُ وربما جمعها الانكليز في كلة (الكرامة) او (الوقار) . والمهذب موجود في جميع الحرف وجميع الصنائع ما علا منها وما اتضع كما ان الناس لا يطلقون هذا اللقب على رجل كريم الحسب اذا بدا من اطوارهِ ما لا ينطبق على موجبات الكرامة والوقار . فالمهذب هو مثال اعلى طبقات السكسوني كما ان اللورد او الامير مثال اعلى طبقات النورماند

وهناك سبب آخر يساعد انكلترا على التخلص من شر الاستشراف ذلك ان الرجل عندنا يصبح في صف العظماء معدوداً من الامراء متى احترف ببعض الحرف وابتعد عن البعض الآخر فنحن كالهنود في تعدد الطبقات والمراتب نقول ان من الحرف الشريفة والوضيعة والاولى هي الجندية ووظائف الحكومة والاشتغال بالآداب كالكتاب . والثانية هي الصناعة والتجارة .وزد عليها الزراعة لانها تركت بالفعل واختص بمزاولتها المستأجرون والمساقون والوكلاء والنظار . ولسنا نشاهد شاباً من اهل الحسب يسعى في الاستعمار باي جهة كانت . هكذا قوي عندنا التفريق بين طبقات الامة لتشريفنا بعض الصنائع وتحقيرنا البعض وليس الاستشراف الا نتيجة ذلك التمييز . لكن لا وجود لهذا التمييز عند الانكليز السكسونيين او انهُ يمحي شيئاً فشيئاً . في الولايات المتحدة حيث يوجد العنصر الاستقلالي خالصاً من العوائق التي تكتنفهُ في انكلترا لا يشعر الانسان بوجود فرق

بين صنعة واخرى ويحس بان اعتبار كل انسان راجع الى قيمته الذاتية وهمته وثباته واقدامه . والحال سائر الى هذه الغاية بعينها في انكلترا وكله نتيجة اتساع نطاق الصنائع والحرف الجارية بتأسيس المعامل الكبيرة وتسهيل طرق النقل بعد اكتشاف الفحم واستعماله . وهذه النهضة الجديدة التي دوخت الجمعيات الاتكالية شدت عزائم الجمعيات الاستقلالية لاستعدادها لقبولها فبعد ان ازوت انكلترا وقتاً طويلاً بما طرأ عليها من تقاليد فاتحي النورماند ونظاماتهم قامت اليوم تنشط من قيودها وتمالك قواها وترجع شيئاً فشيئاً الى نظامها الانكليزي السكسوني ونشأتها الاستقلالية ولن يعيق نهوضها هذا عائق من بعد . واذا اردت ان تقف على نهاية تلك النهضة فانظر الى البلاد الامريكية واعني بها الولايات المتحدة حيث العنصر الانكليزي يرجع الى نشأته الخالصة ويسترد ما لاصله من القوة والصفاء مستعيناً بما هيئ لهُ من فسيح الاقطار التي يبسط فيها همتهُ وبما اتيح لهُ من عدم وجود طبقة اشراف وراثية في امته كالتي اوجدها التغلب في البلاد الانكليزية

الفصل الرابع

﴿ في ان طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح ﴾
﴿ الانكليز السكسونيين ﴾

اكبر العقبات في سبيل ترقية الافراد والهيئة الاجتماعية هي معرفة

الغاية التي يجب ان تقصد والوسيلة التي تؤدي اليها فلا فائدة في معرفة الغاية ان جهل سبيلها وكثيراً ما جاءت النتائج على عكس المراد للجهل بالطريق الواجب اتخاذهُ او لعدم العلم بهِ كما ينبغي . وفي بيان مبدأ هذا الطريق والدلالة على اول مرحلة منه هدى للقراء الى الطريق المستقيم

لقد كان من اكبر همي كلما اقمت في بلاد الانكليز ان ابحث في انتقال الرجل من حال الى حال آخر وكان موضع البحث ملائماً لهُ كل الملائمة لانهُ لا يوجد فوق البسيطة بلد اجتمعت فيهِ اشكال رجل الاستقلال مع اشكال رجل الاتكال مثل انكلترا فهي مجمع اشكال من الناس كبير . وقد يوجد هذا الاجتماع في الولايات المتحدة الا ان البحث فيها اصعب بكثير لان الاشكال الموجودة في تلك البلاد غير مقيمة في الوسط الذي نشأت فيهِ اصلاً فسكان امريكا لفيف جمع اليها من كافة البلاد الاوروبية بحيث يتعذر الآن بيان بلد كل فريق منهم ثم انتقال اولئك القوم من حال الى حال حاصل في بلاد جديدة ولا يزالون سائرين الى نشأة اجتماعية قد استولت عليهم فصاروا فيها كالملقين بين اصلهم القديم ووطنهم الجديد

اما النازلون في البلاد الانكليزية فانهم قصدوها من زمن بعيد فترى عنصر (السلت النورماند) وعنصر الانكليز السكسونيين مستقرين في حالة طبيعية تسهل على الباحث ما يريد من النظر في احوالهم اذ يجد جميع اشكال الاجناس حاضرة من السلت الهجلنديين في ايقوسيا وارلنده الذين لم يدخلهم دخيل الى السكسوني الحقيقي الساكن في الجنوب او الوسط . وبين هذا وذاك اشكال متوسطة شتى . ومن اكبر الفوائد ان يتسنى تقسيم

جميع تلك الاشكال الى فرق ممتازة عن بعضها ليقف الانسان على كيفية انتقال السلتي الاتكالي من حالتهِ الاولى حتى صار سكسونياً استقلالياً . وبريطانيا العظمى اشبه ببودقة عظيمة تحلل فيها على الدوام عناصر هيئتها الاجتماعية فيستحيل السلتي الى سكسوني خاضعاً في استحالتهِ الى سنة ما تزاحم عنصران من عناصر الاجتماع الا تغلب القوي منهما وحمل الضعيف على التشبه بهِ ولا مشاحة في ان اقوى العنصرين هنا هو السكسوني . ثبت اذن ان انكلترا هي احسن بلد يجد فيها الباحث اول مرحلة من مراحل تحول الاشكال نحو الاستقلال ويقف على مبدأ انتقال السلتي الى سكسوني بوجه خاص وعلى اول خطوة يخطوها الاتكالي نحو الاستقلالي بوجه عام حتى يبلغ ارقى درجاته ويصل الى آخر شكل من اشكاله

ولست اخشى الزلل اذا قلت ان اول درجات ذلك الانتقال هي كيفية الاقامة في المسكن

جال بخاطري هذا الرأي اول مرة عند ما كنت في ايدنبورج وانتهزت الفرصة لزيارة منجم الفحم والعزبة القريبة من تلك المدينة كما اشرت اليه في الفصل السابق وقد بينت هناك الفرق الظاهر بين مساكن الفعلة الايقوسيين من (اللولاند) ومساكن السلتيين او الارلنديين . فالاولى نظيفة في غاية الاعتناء والثانية قذرة في غاية الاهمال . وهذا الفرق هو الذي وجه فكرتي الى اهمية المسكن من حيث انتقال الرجل من حال الى حال وهو هنا في الواقع اول خطوة في هذا السبيل لان الفعلة الايقوسيين من (اللولاند) هم في الاصل من اهل النشأة الاتكالية واول شيء يمتازون به

عن الاتكاليين الارلنديين او الهجلنديين هو اهتمامهم الزائد بتحسين مسكنهم فهم من اولئك الاستقلاليين الذين لا يزالون في مبدأ انتقالهم ولكنهم صاروا في حالة لا بد معها من صيرورتهم استقلاليين كاملين او ما يقرب من ذلك . وكيفية سكناهم هي التي تميزهم عن غيرهم ومن هنا استنتجت ان الانتقال في حالة المسكن هو اول شخوص المرء نحو الانتقال الى حالة الاستقلال

دل كثير من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع ومحبي الانسانية على اهمية المسكن وفي مقدمتهم موسيو (لابلي) فانه كشف القناع عن تلك الاهمية واستدل عليها بوقائع شتى . وكثيراً ما ذكر الباحثون من جملة اسباب تقدم الانسان وارتقاء العائلة والهيئة الاجتماعية استقرار المسكن وكونه ملكاً لساكنه وانتقاله كما هو من الوالد لبنيه والواقع ان هذه المزايا الثلاث من اهمّ النظامات وقد تدل على درجة الامة التي توفرت فيها من التقدم والترقي الا انها لا تؤثر بشيء في انتقال الاتكالي الى استقلالي واكبر برهان على ذلك اننا نجد عند النشأتين على ما بينهما من الاختلاف مساكن مملوكة لاهلها مستقرة يتوارثها الخلف عن السلف ووجود تلك المزايا عند الامتين يدل على انها غير مؤثرة في تكوين النشأة الاجتماعية . وقد يتفق ان الاعتناء بها يكون اشد عند بعض الامم الاتكالية منه عند بعض الامم الاستقلالية فما لا شبهة فيه انه لا شيء في الوجود اثبت من مساكن فلاحي الروس او البلغاريين او الصربيين فالمسكن الواحد ينتقل من الرجل لابنه ومن العائلة الى التي خلفتها عدة قرون واجيال . والمساكن في فرنسا اكثر استقراراً

في اقاليم (اوفرنيا) و (سيفين) و (بيرينيه) و (الب) و (بروتانيا) ومعلوم ان اهل تلك الاقاليم هم اشد الناس محافظة على النشأة الاتكالية وربما كانوا اكثر من غيرهم اهتماماً بامتلاك المساكن والاعتناء بها واستبقائها لخلفهم

ولبيان الفرق بين النشأتين من حيث المسكن يجب التمييز بين نظر كل واحدة منهما اليه . فالاتكالية تنظر الى المسكن من حيث هو وجود مادي والاستقلالية تنظر اليه من حيث هو امر معنوي وهو تمييز لم يسبق لاحد الالتفات اليه وبدونه لا يمكن الوقوف على كيفية اعتبار المسكن عند كل واحدة من الهيئتين

يراد بالبيت عند الامم الاتكالية مجموع الاثاث والبناء والارض والناس من اهل واحباب وجيران فالفكر متعلق على الدوام بالاشياء والناس والتعلق شديد لان من خصائص اهل الاتكال ان يعتمدوا على الاشياء والناس اكثر من اعتمادهم على انفسهم ومن اقوال اهل (اوفرنيا) و (بيرنيه) (يجب ان يكون للبيت دخان) وهم في سبيل استبقاء دخانه يسترخصون كل ثمين فيرضى الاولاد الثواني باقل من نصيبهم الشرعي ويعيش الاعمام والعمات غير متزوجين كي يتركوا للوارث الذي اوصى اليه المتوفي من السعة ما يمكنه من حفظ الغيط والدار وقد يكون لهم من ذلك ملجأ يستفيدون منه احياناً . والخلاصة ان نظرهم الى البيت نظر الى المكان المخصوص . وهذا هو السر في صعوبة تركه والابتعاد عنه كأن اصحابه قد التصقوا بارضه والتحقوا بحيطانه . وهو ايضاً السر في حب اهل الريف لبيت اجدادهم ودار اهليهم ورغبتهم الشديدة في صيانتها وتركها ارثاً لمن يأتي بعدهم . هذا

هو نظرهم الى البيت من الجهات الثلاث استقراره وملكيته وتوارثه فهم يتعلقون به تعلق النبات المتسلق بالجدار العتيق وكأنهم مثله يرتكنون على ذلك الوجود المادي . ومع هذا فان اقوام النشأة الاتكالية يسكنون ذلك البيت الموروث الذي خلفه لهم الاجداد والآباء على ابسط ما يكون من الاحوال وما من شيء يستوقف المتأمل مندهشاً في تلك البيوت اكثر من استقرارها وعدم الاستقرار فيها واعني بذلك كيفية سكناها التي تكاد ان تكون على الفطرة الاولى

اذا دخلت بيت ريفي من الروس او البلغار او اهل (اوقرنيا) او (البرنيه) او (بروتانيا) او (بروقانص) وسألته عن اصله اجابك في الغالب ان عائلته تسكنه جيلاً بعد جيل من قرون ماضية وعلمت من هذا ان البيت مستقر اي استقرار ورأيته يحبه حباً لا مزيد عليه . ثم اذا نظرت الى كيف يسكنه رأيته اشبه بعائلة ما كادت تفرغ من حط رحالها اذ يقع بصرك على اثاث قد اهمل شأنه وعلى مطبخ قذر ومخدع وسخ قل فيهما الضوء وقد تكون الغرفة الواحدة مطبخاً ومأكلاً ومناماً للعائلة كلها وقد يلاصقها الاصطبل فلا يفصل بينهما الا حاجز من الخشب تنبعث من خلاله الروائح الكريهة . هكذا تجد اولئك الذين احبوا بيتهم ذلك الحب كأنهم لا يحبون ان يحسنوا سكناه . اولئك قوم لا يحبون البيت من حيث هو ولكنهم يتعلقون به من حيث اعتمادهم عليه او طلباً للسمعة او تظاهراً وتفاخراً فيتباهون بكونهم من سلالة تلك العائلة التي تقادم عهد سكناها في البلاد وظلت تملك العين الواحدة السنين الطوال ولها قرابة مع عائلة كذا

التي استقرت منذ القدم حيث تقيم . اولئك قوم لا يقتنون صندوقاً (دولاباً) لطيفاً يملأونه بانواع الملابس الا للمفاخرة وبيان انهم في هناء امام مجاوريهم والاجانب عن بلدهم . هذا هو شغلهم الشاغل لا تحسين مسكنهم وتنظيم اقامتهم فيه . والخلاصة ان الرجل الاتكالي يعيش خارج بيته اكثر مما يعيش فيه ويحبه للتظاهر لا لنفسه . ويكثر هذا الميل في العائلات المتوسطة التي تسكن المدن العظيمة وان كان روح الاستقرار في البيوت لم يعد له اثر فيها . وبيوت باريس الا ما شذ كلها على نسق واحد كبيرة كثيرة الطبقات متعددة المساكن كالقصور العاليات اذا رايتها من الخارج تتركب من خمس طبقات او ست وواجهتها فسيحة ذات سبع نوافذ اوثمان حسبت العائلات التي تسكنها عرفت كيف تتنعم ببيتها وانها بذلت النفيس حباً في المعيشة الداخلية معيشة العائلة . فاذا دخلت اليها والدخول مباح لكل وارد وجدت المساكن متعددة وكل عائلة تسكن طبقة منها وقد تأوي الطبقة الواحدة عائلات رضخ بعضها على بعض . ثم اذا دخلت احد المساكن رأيت اولاً قاعة الاستقبال وغرفة الطعام مزينتين زينة حسنة فسيحتين بالنسبة الى البقية ومطلتين على الطريق اما بقية الغرف في الجهة الخلفية وهي ضيقة جداً تطل على حوش كانه في الغالب بئر لضيقه قليلة الضوء ولا يدخلها الهواء وتلك الغرف هي مقر العائلة ومخادع السكان . اما الغرف الامامية فانها اتخذت للزهو والتباهي لا يدخلها الا الاجانب لانها انما اعدت (للاستقبال) وعدم الاعتناء بالبيت عند اهل هذه النشأة عام بين الاواسط واهل الارياف والاجراء

الا ان الاهتمام بذلك هو اول شيء يلتفت اليه اهل النشأة الاستقلالية ذلك لان الرجل منهم لا يعتمد على العائلة او العشيرة او العلاقات قلت او كثرت وان شئت قل انه لا اعتماد له على وسط صناعي بل اعتماده على نفسه فهو يسكن البيت لنفسه وهو مقيم لا نزيل ولا يعطي الحياة الخارجية الا يسيراً وكل الذي في امكانه موجه الى حياته الداخلية فالبيت عنده حصن استقلاله ويسميه اسماً لا يمكن التعبير عنه بغير لغته وقد اودعه روحه ووجوده وهو (هوم) بمعنى مأوى او ملجأ ولهذا الاسم عند الانكليزي السكسوني معنى اكبر وابعد عن المادة من الاسم الفرنساوي (فوييه) اي بيت فهو يدل خصوصاً على الاقامة الداخلية والنظام الذي يستريح له الساكن كل يوم مما اختص به ذلك العنصر لا فرق بين الاجير والريفي ومن فوقه من الطبقات الوسطى

ولست اقصد الحكم على هذا التصور عندهم بل اريد ان اقف على حقيقته وان ابينها للقراء كما هي لان الامم امتان مختلفتان تمشي كل واحدة منهما في طريق يخالف سبيل الاخرى ومبدأ الخلف سكنى المنازل فمن المفيد جداً تمام العلم باول ما اختلفوا فيه

ويتجلي الفرق بينهما من حيث اعتبار المسكن بامرين

الاول ان اهمية المسكن عند امم الاستقلال اقل منها عند امم الاتكال فالمسكن الغالب عند الاولى عبارة عن بيت صغير لا يحتوي من الغرف الا على ما يفي بسكنى عائلة عادية باولادها . ويتبع البيت في الغالب بستان يختلف في سعته على حسب درجة الساكن من الغنى وباعتبار سكنى الريف

او المدينة . وهذه المساكن منثورة في جميع جهات الارياف الانكليزية ثم هي تكثر متقاربة في ضواحي المدن الكبيرة لان الانكليزي المدني يميل كثيراً الى السكنى خارج الاسوار وهي المثال الغالب في داخل المدينة نفسها لانها توافق ما يطلبه ذلك الجنس في البيت الذي يأوي اليه وهذا هو السبب في عظم المدن الانكليزية بالنظر الى عدد سكانها

وبخلاف ذلك تجد المسكن الغالب عند امة الاتكال هو البيت العظيم ذو الغرف الفسيحة فليست هي مساكن اتخذ كل واحد منها لتأوي اليه عائلة على انفرادها بل دار كبيرة تسكنها عائلات عدة تقيم مع بعضها في عيشة واحدة . هكذا المساكن في ايتاليا ويوجد في مدننا الريفية كثير من تلك الدور الفسيحة التي اصبحت فيها العائلات بعد نقص عددها كالتائهة في ازوائها وتلك هي القصور الفخيمة المشيدة في الارياف وكم من عائلات ادركها الفقر لكثرة انفاقها في حفظ تلك المباني اللهم الا التي فطنت الى الاقتصار منها على ناحية تقيم فيها وتترك الباقي . ومن مقارنة هذه الدور العظيمة والقصور الشامخة بتلك المنازل الانكليزية السكسونية تتبين لك احدى جهات الفرق العظيم بين النشأتين

الثاني ان العائلات الاستقلالية تنتقل من مسكن الى مسكن بسهولة اكثر من العائلات الاتكالية . قلت ان اهل الاتكال اشد التصاقاً بالمساكن الوراثية من غيرها فهي ابق في المسكن الواحد لاستمدادها منه قسماً كبيراً من قوتها بل ربما كان جل اعتمادها على ذلك البناء المادي اما الاستقلالي فلا شيء اسهل عليه من الانتقال ومتى سنحت له الفرصة اسرع

لا تنهازها لينتقل من حال الى احسن منه ويبدل مسكنه وقد يترك طرفاً من الدنيا ليأوي الى الطرف الثاني لان انظاره متجهة على الدوام الى المستقبل لا الى الماضي ولان اعتماده على نفسه لا على تقاليد ابويه ورسوم الاجداد وهذا الحال الذي نشأ فيه بحكم طبيعة امته هو الذي جعله يبتكر ذلك الملجأ المختصر لان الرجل اشد تعلقاً ببيت كبير منه ببيت صغير فهو ربه لا اسيره ولا هم له بالاحجار ولا تمسكه الاحجار . رب معترض يقول انها حال لا استقرار للمسكن فيها لكنّ هذا نظر الى ظواهر الامور فالاستقلالي مستقر في مسكنه كالاتكالي سواء بسواء وانما الفرق في الكيفيات ولتبيانه يجب الالتفات الى ما قدمناه من التمييز بين المسكن الخارجي والاقامة الداخلية فالاستقرار عند الاتكالي راجع الى المسكن الخارجي وهو يرجع عند الاستقلالي الى الاقامة الداخلية وكأنّ الاول جندي لم يكد ينزل بمسكنه العتيق وكأن الاستقلالي رابض منذ القدم والى ما شاء الله في مسكنه الوقتي فهو يقيم حق الاقامة ولو الى بضعة ايام حتى في الفندق ـ وقد اشتهر ان الانكليز كانوا سبباً في تحسين الفنادق الاوروبية ـ ولو لم يكن مقيماً الا سويعات معدودة ولو في السكة الحديدية ولذلك عرف عنه انه رجل لا يتعمد مضايقة نفسه في شيء والاستقرار عنده عبارة عن راحته وموجباتها وليس من ينكر ان موجبات الراحة ركن من اركان السكنى له من الاهمية ما للاسوار والجدران وانها تؤثر على الانسان وحياته اليومية وانها تفعل في وجوده الذاتي ووجوده في امته اكثر من غيرها

نتج من هذا ان الاستقرار في المسكن مادي ومعنوي والثاني اهم

وهو البحث الذي بقي علينا ان نبينه.

اما كون الثاني اهم فذلك حاصل بالضرورة لان تحسين السكنى واتقان نظامها هما اول حركة يشاهدها الانسان في الذين شخصوا الى الانتقال من حالة الاتكال الى حالة الاستقلال غير انهُ لما كان سبب ذلك غامضاً لا يبدو لاول نظرة وجب علينا ان نوضحه

اني ارى لكيفية السكنى المذكورة ثلاث نتائج في الاجتماع ولن تلك النتائج تؤدي الى تحويل الافراد وجعلهم استقلاليين.

الاولى طريقة السكن المذكورة تقوي في الانسان شعوره بعزته واستقلاله.

تخيل ايها القارئ ما استطعت مساكن الارلنديين الرديئة التي وصفناها لك او منازل الفعلة في مدننا وريفنا مما لا يقل عن تلك رداءة وقبحاً وليحضرك بعض اولئك السكان الذين عرفتهم تمام المعرفة ثم فكر في قوم شبوا منذ طفوليتهم في ذلك الوسط وعاشوا دائماً في ذلك البيت الذي هو عبارة عن جحر متوحش دخله شيء من التحسين لا شك انك تقتنع بانه وسط لا يقوي عند من تربى فيه حاسة العزة والاستقلال . قالوا ليس المرء بطيلسانه ونحن نرى ان للطيلسان شأناً فوق ما يظنون فكم من رجل لا قيمة لهُ الا بلباسه الذي يرتديه . هذا شعار قاض يحكم بين الناس وذاك زي الجندي وآخر وسام كذا وتلك شارات كذا ولها كلها تأثير كبير في عقول الناس وقد تحمل الكثيرين على النظر الى انفسهم بعين الرفعة والاعتبار فينبغي ان لا يهمل ما تحدثه الظواهر من التأثير

واهم تلك الظواهر تأثيراً هو البيت لانه يستولي على الانسان وهو في عيشته الذاتية وحياته الشخصية ولانه ثابت مستمر في كل يوم ولا شبهة في ان العامل الذي زرت مسكنه في (هوتردين) والصانع الميخانيكي الذي تناولت عنده الشاي في (بنكويك) كانا شاعرين بتأثير مساكنهما عليهما مباشرة وبما فيهما من النظام وحسن الترتيب وكانا بذلك يريان نفسهما ارقى وارفع من غيرهما وكانا يميزان تمام التمييز ما هما فيه من رفعة النفس والاستقلال وكان الواحد منهما اذا دخل بيته يحس من نفسه انه انسان شاعر بكرامته كما يقول الانكليز ٠ والرجل اذا عرف من نفسه الكرامة يكون ميالاً الى الزيادة فيها لانه يكون قد اجتاز العقبة الاولى في سبيل الارتقاء وهي الخطوة الاولى

الثانية طريقة السكنى المذكورة تهيئ المرء الى العمل وتقويه على الكد والاجتهاد

ان الامم التي اعتادت على المعيشة البسيطة والسكنى الساذجة تكتفي بالقليل ولا تلد الا افراداً يقفون عند الكسب اليسير فاطماعهم محدودة وبالقليل يقنعون ٠ وترى الواحد منهم يعيش راضياً متى حصل ما يخرجه عن درجة الخمول والانزواء ٠ لكن ليس الحال كذلك عند الامم الاخرى فالمعيشة الانيقة والمسكن المنظم يقتضيان الكد ويساعدان عليه خصوصاً اذا كان الرجل يعمل لينال الفائدة العاجلة المحسوسة ٠ ولقد يحضرني ذلك الصانع الميخانيكي في (بنكويك) وهو يطلب اقتناء اثاث قاعة طعامه او آلة طربه (بيانو) او بساطه الكبير الذي تحلت به غرفة استقباله فاراه

يزيد في همته تحت تأثير ما اتجهت اليه رغبته ويتفنن في اساليب العمل بما يسعه لاستزادة راتبه. وما الوف العملة الذين يحضرون دروس جمعية توسيع نطاق التعليم في انكلترا والولايات المتحدة بثمن يدفعونه من كسبهم الا امثلة حية تدل على ذلك الميل نحو الكد والعمل فهم لا يحجمون امام ذلك الاشتغال الزائد على ما هم فيه لطمعهم في نوال حال احسن وعيشة ارضى

رب قائل يقول ان روح الاقتصاد الذي امتاز به الكثير من عمالنا هو ايضاً من موجبات الحث على العمل والاجتهاد وهو مسلم الا انه باعث اقل عزماً واصغر تأثيراً لان الرجل الذي يدخر لاولاده يعمل لاجل بعيد ولغيره وذلك الغير لا يجني ثمرة العمل الا بعد وفاة صاحبه ولا يقدم على ذلك الا من بلغت الشجاعة من نفسه حد الاستقلال وتلك فضيلة قلما توجد بين الناس فان ادخر الرجل لنفسه كي يستغل ما ادخر ادركه الملل سريعاً خصوصاً اذا كان من العمال بما يتصوره من جسامة ما يجب ادخاره حتى يزيد في ايراده زيادة محسوسة فكم من الايام ينبغي له ان يعمل ليكنز مائة من الفرنكات على ان ذلك المبلغ لا يفيده من الربح الا ثلاثة فرنكات في السنة وهي نتيجة تظهر امام عينيه صغيرة بعيدة الامد ويراها لا تساوي المتاعب التي تبذل في سبيلها . انظر الى النظامات التي تخترع كل يوم لانماء حركة الاقتصاد عند العملة وتأمل كيف ان الربح منها يسير وانظر الى الفاعل الانكليزي السكسوني تره يدخر في تنظيم بيته وتوفير موجبات الراحة فيه مالاً اكثر كثيراً من دون ان يستعين بالحكومة او يكون له من احتفائها به باعث او مشجع . لا تقل ان ذلك مال مصروف لا مدخر

لانه وان صرف فليس بضائع سدى وانما هو يستغل بربح جزيل لا يقدر بثلاثة في المائة بل بمائة في المائة لكونه يستعمل في زيادة القوة على العمل. الا ترى ان ذلك الصانع الذي اشترى اثاث غرفة الطعام او آلة الطرب او البساط يتمتع بما اقتنى من ساعته وكل يوم . ثم قرب بين تمتع رجلين اقتصد احدهما مائة من الفرنكات ولا يربح الا ثلاثة في كل عام واقتصد الآخر مثلها فاقتنى بها ما تاقت نفسه اليه ليجعل بيته محبوباً لديه وليتمتع به في كل حين . ذلك فرق عظيم . ذلك فوز يشجعهُ الى كد جديد ليسكن بيتاً اوسع وللراحة ادعى او ليزيد في نظام مسكنه وتجميله وهو كلما حسن في مسكنه دب وراء تحسين جديد ارفع ذوقاً واحكم صنعاً واصبح يتأنق في الرغائب وهي تزداد في كل حين ولا سبيل لهُ في ارضائها الا بعمله فيعمل بجد يترقي . ولما كانت القدرة على الجد المتناهي من خصائص رجل الاستقلال وهي التي تميزهُ عن رجل الاتكال كان هذا الذي شرحنا حالهُ يتقدم نحو النشأة الاستقلالية وثبت ان طريقة السكنى هي اول بادرة من بوادر الترقي المذكور

الثالثة طريقة السكنى المذكورة تهيء الرجل الى ان يصير مهذباً

اني استلفت القراء بنوع خاص الى هذه النتيجة الثالثة لانها اهم في تمييز النشأة الاستقلالية والتفريق بينها وبين النشأة الاتكالية ولم نبدأ بذكرها لان تقريرها كان متوقفاً على ما تقدم من الكلام في ملجأ الانكليزي السكسوني

من لوازم النشأة الاتكالية وجود طبقات في الامة تمتاز كل واحدة

منها عن البقية امتيازاً تاماً . ومن الصعب ان ينتقل الانسان في تلك الامم من مرتبة وضيعة الى ارفع منها فلا يسهل على الاجير ان يصل الى درجة الاواسط واذا وصل اليها بما كسب من المال فانهُ يبقى اجيراً في ازيائه وعاداته واذواقه وكيفية معيشته فهو لا يترفه بالسهولة ولا يترقى بالسهولة . والسر في هذا ان ارتقاءهُ مسبب عن اقتصاده وقد بينت فيما سبق علة هذا الاقتصاد وزد عليه ان الاقتصاد لا يتأتى الا لمن يعيش في مسكنه عيشة ضيقة يحرم فيها نفسه من كل شيء فيقتصد من مسكنه ويقتر في ملبسه ويقلل من اثاث بيته وينقص من مصرف رياضته والذي يحرز الثروة عاجلاً هو الذي يقتصد كثيراً اي الذي يعيش حقيراً ومتى وصل الى الثروة رأيته استمر على المعيشة حقيراً لان العادة صارت حاجة بل اقول صارت مطلباً

رأيت في الاقاليم رجلاً يمثل هؤلاء القوم بدأ منذ اربعين عاماً بصنعة بياع متجول وكان يبيع السياط وما يتعلق بالسروجية على عربة يد ينتقل بها من قرية الى اخرى فلما اجتمع في يده مبلغ من المال اشترى مسبكاً صغيراً يدار بقوة الماء وجعل يصنع بنفسه اللجم والمشابك وجميع الانواع التي تصنع من الحديد او ما شابه للسروج . وقد عرفته في آخر حياته فوجدت عنده اربعين صانعاً واشترى من الاطيان ما يبلغ مائة هيكتولتر وثلاثة بيوت او اربعة في القرى المجاورة لمسكنه وصار لديهِ مال عظيم لادارة حركة المسبك . وقد توفي قريباً وتبعته زوجته ولم يتركا عقباً وقدرت ثروته باربعمائة او خمسمائة الف فرنك قسمت بين ابناء اخوته . وعاش هذا

الرجل الى آخر يوم من حياته كالاجراء (تلك طريقة مثلى في استعمال الثروة والمال) فبقي على لهجتهم في الكلام وازيائهم وهيئتهم وكان في الاصل ذا لهجة عامية وزي وضيع وهيئة رثة ولا اقول اكثر مما ذكر . شاهدته مراراً يبرد بنفسه بعض المصنوعات في مسبكه كاجير بسيط استخدم ليدير آلة من الآلات . وعليه فقد بلغ هذا الرجل ما بلغ من الثروة والغنى ولكنه لم يرتقِ في طبقات الاجتماع . وما سبب عدم ارتقائه الا انه لم يتعود في بيت ابيه منذ الصغر على هيئة حسنة ولم يعرف نظام المعيشة وموجبات الراحة في السكنى وما يتبع ذلك من لطف الشمائل وظرف الازياء

يوجد بين الاهالي في فرنسا قوم لهم استعداد كبير للتجارة وهم اهل (اوفرينا) كما ان لهم تفنناً عظيماً في الاقتصاد ولست اتعرض لبيان السبب في هذا الاستعداد ولكني اكتفي بالدلالة عليه . والرجل منهم قد يبلغ درجة معتبرة من الثروة ولكنه لا يخرج عن حالة التاجر الصغير ولا يتخلى عن عاداته وما الف بل يبقى على عادات فلاحي بلده وهي لا تستحسن من حيث الهيئة او النظافة او الازياء . وكل من زار تلك البلاد يعلم ما تقول وانه ليس في الوجود اقرب الى الطبيعة من مساكن فلاحي (اوفرينا) ولا اقذر منها ولا ازال اذكر ما قاسيته مع موسيو (روسيه) من الصعوبات في تناول الطعام بعض مرات بتلك البلاد وما كان يقوم بنفوسنا من الاشمئزاز مما هو طبيعي عند رجل ذاق التمدن طعماً وانا ما تغلبنا على انفسنا الا بشدة رغبتنا في استطلاع احوال اولئك القوم ومعرفة كيف يعيشون

نشأة الناس في تلك البيوت هي التي تعطل صفاتهم في التجارة وتعوقهم عن الارتقاء ادبياً بين الذين يخالطونهم مع ما هم عليه من القناعة والتعود على الاقتصاد والتوفير. وهذه الحال ظاهرة في وصف البياع الشراء الاوفرني في باريس (راجع كتاب الصناع في الدنيوين جزء رابع صحيفة ٣١١ و ٣١٢) حيث جاء فيه (تنقسم تلك الفئة الى قسمين اهل اوفرينا واهل نورمانديه وكلاهما فنوع ميال الى الاقتصاد يهرب من مخالطة العملة الباريسيين خشية من كثرة انفاقهم (ما اجمل) ويشتري الاوفرني الملابس البالية وبالاخص القبعات والاحذية التي لم تعد صالحة للاستعمال ولكنه غير ماهر في ذلك كمزاحمه لذلك يتخوف منه على الدوام اذا اجتمعا الاثنان في بيت لمساومة مبيع ما فترى الناس يركنون الى النورماندي بما امتاز به على رفيقه من الموادعة والادب وهو احسن منه لباساً واعذب منه لساناً وبمهارته يتغلب على صاحبه في جميع الاحوال على التقريب ومن اجل ذلك يترك الاوفرني مع ما اختص به من الثبات والمقاومة الاتجار في الملابس العتيقة على كثرة ربحه منها الى مزاحمه النورماندي ليشتغل في الخرق البالية والحدائد العتيقة والعظام وجلود الارانب)

ويعرف القارئ مما تقدم كيف ان التربية الخشنة الناتجة عن حالة سكنى البيت تمنع الاوفرني من الارتقاء حتى في تجارة لا تقتضي تربية عالية. ولا شك في انهم لو حسنوا سكناهم لاستفادوا مما يصرفون في هذا السبيل ربحاً جزيلاً وذلك الربح هو الذي يستفيده الانكليزي السكسوني من تنظيم ملجأه

ولنرجع الى عمال ضواحي ايذنبورج فهم تربوا ويربون اولادهم في ملجأ يعودهم على شيء من التحسين في السكنى وان كان بيتاً صغيراً كما يعودهم على لباس مخصوص ولهجة مخصوصة وشمائل مخصوصة فيصيرون بذلك مترفهين ومستعدين لان يترفهوا ان لم يكونوا كذلك من قبل فاذا سنحت لهم فرصة ارتقاء ـ وقدرتهم على العمل مما يخلقها ـ رأيتهم ينتهزونها ويجدون من حالهم الشخصي ما يجعلهم جديرين بها اذ ليس فيهم ما يمنع من نوال ذاك الارتقاء . والخلاصة ان نظام البيت عندهم حتى بيوت الاجراء يجعل الافراد قابلين لان يصيروا من طبقة المهذبين فلا يظهر عليهم في المراتب التي يرتقون اليها انهم ليسوا من اهلها

هذا واني اجد من نفسي دافعاً الى القول بان النشأة الاستقلالية لا تلد طبقة دنيئة وراثية كما هو الحال عند اهل النشأة الاتكالية اذ المشاهدة ظاهرة الوضوح والوقائع التي تحضر الذاكرة تؤدي الى تلك النتيجة وتبرزها في صورة قاعدة عمومية ومن اجل هذا اصبح اهل النشأة الاولى في مقدمة المتقدمين نحو حل المسألة الاجتماعية وعلى الخصوص مسئلة الاجراء واني اكتفي بايراد ثلاث مشاهدات للدلالة على قابلية تلك الامم للترقي

الاولى قلة عدد الخدام من الانكليز السكسونيين . فغالب الخدم في انكلترا وفي الولايات المتحدة اما سلتيون اصلاً او جرمانيون او لا تينيون ولا تجد خدماً من الجنس الانكليزي السكسوني الا من نوع مخصوص كالمربيات اللاتي هن طبقة ارقى من الخدم الاعتياديين وكالخادمات موقتاً وهن بنات الفعلة اللاتي يخدمنَ وقتاً محدوداً ليتعلمنَ بين قوم ارفع منهنَّ

ترتبة كيفية ادارة البيت قبل ان يتزوجنَ

الثانية وجود تلك الآلاف المؤلفة من الفعلة الذين مارسوا العمل بايديهم وارتقوا بكدهم الى ارفع المقامات من غير ان يكونوا فيها خارجين عن صفها بل لا فرق بينهم وبين المهذبين من اهل الطبقة التي وصلوا اليها وهذا امر معروف ومشهور وقد تكلمنا عنه في مجلة العلم الاجتماعي عند ذكر رؤساء احزاب الفعلة الذين اصلهم منهم فاصبحوا اليوم متربعين في مجلس النواب (مجلة اكتوبر سنة ١٨٩٣ وديسمبر سنة ١٨٩٤ ويوليو ونوفمبر سنة ١٨٩٥)

كان موسيو كليفلند رئيس جمهورية الولايات المتحدة صبياً عند احد البقالين بوظيفة ساع يقضي الطلبات من الخارج وكان يكنس المكان ويكسر الخشب ويوقد النار . وكان اللورد جلاسكو حكمدار بلاد زيلندا الجديدة صبي نوتي في احد المراكب مذ كان عمره ثلاث عشرة سنة . كذلك كان فرنكلان الذي طار صيته في الآفاق فاعلاً . وليس في ارتقائهم من ذلك الحضيض الى هذا النعيم ما يستوجب العجب ولكن الذي يندهش لهُ الانسان هو كثرة عدد الواصلين وان اصلهم الصغير لم يترك فيهم اثراً من الآثار التي نشاهدها في قومنا الذين يرتقون . قلت ان هذه مشاهدة غريبة وانا احيج كل انسان يعللها بغير طريقة الانكليزي السكسوني الاخير في السكنى

الثالثة وهي مهمة في بابها من المعلوم انه يوجد من قطارات السكك الحديدية ببلاد الانكليز عدد كبير ليس فيه عربات للدرجة الثانية لان

الناس اهملوها ومن جهة ثانية ارى الاحصائيات تدل على ان عدد مسافري الدرجة الاولى في تلك البلاد اقل من مثله في اوروبا وبينما انا اكتب هذه السطور علمت ان احدى شركات السكك الحديدية الانكليزية عرضت الغاء الدرجة الاولى وان اللجنة التي تشكلت للنظر في طلبها وافقت عليه محتجة بقلة عدد مسافريها واستدلوا على رأيهم بان الدوق (كامبرلان) صهر الملكة يسافر دائماً في الدرجة الثالثة ولا يجوز ان يكون السبب في ذلك محبة الاقتصاد اذ المعروف عن الانكليز والامريكانيين انهم يتوسعون في عيشتهم . وعلى العكس من ذلك نجد عدد السواح من الفرنساويين في الدرجة الاولى كبيراً مع ان ثروتهم اقل وميلهم الى الاقتصاد اشد . وجب اذن ان نبحث عن علة اخرى ولا اراها الا كيفية معيشة الطبقة الاخيرة من امة الانكليز السكسونيين وهيئتهم وزيهم . فنحن نتأفف من السفر مع رجل ذي هيئة رثة وعوائد منحطة خشنة ولكن هذا التأفف ضعيف عند الانكليز السكسونيين لارتقاء الطبقة السفلى بينهم ارتقاء محسوساً ومن اقطع الادلة على ذلك ان شركات السكك الحديدية وصلت في تحسين ادارة احوالها الى ايجاد تذاكر مشتركة للقاصدين انكلترا تبيح للمسافر ان يركب الدرجة الثانية ما دام سائراً في البلاد الفرنساوية فاذا بدأ السير في البلاد الانكليزية انتقل الى الدرجه الثالثة . وليلاحظ ان الانكليز باستعمالهم الدرجة الثالثة لم ينسوا موجبات راحتهم ومن اجل ذلك قد جعلت الشركات التي تلاحظ رغبات الناس عربات الدرجة الثالثة اكمل نظاماً واتم ترتيباً من عربات الدرجة الثانية عندنا وربما ضارعت درجتنا الاولى زخرفاً وحسناً في

بعض الفروع اما الاعتناء بها فيفوق الاعتناء بغيرها

وحينئذ يمكننا ان نستخلص مما تقدم ان حسن السكنى واستيفاء موجبات الراحة في البيوت مما يجعل الطبقات النازلة في الامة اهلاً لبلوغ اعلى المراتب بحيث لا يرى انهم دخلاء فيها بما يلوح عليهم من الشمائل والازياء وذلك يؤدي على الدوام الى محو الطبقة السافلة الوراثية في الامة التي هي داء الامم الاتكالية العظيمة

ليست المسئلة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما ان مسئلة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الادواء والعقاقير . اذ ليست المساعدة او العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما ادت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسئلة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل واحد منهم ان يقوم باود نفسه وان يرتقي بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية كما قدمنا تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل واحد ان يسعى اليها . وقولي هذا لا يروق في أعين الذين اتخذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة وضعف مدارك الطبقات النازلة وكانت فائدتهم في بقاء الناس دائماً على حالة يشبهون فيها القصر حتى يتيسر لهم ان يكونوا عليهم اوصياء . غير ان العلم لا يلتفت الى مثل تلك الملاحظات بل انه يجهلها ويسلك الطريق الذي تدل المشاهدات عليه

علمنا ان قابلية الترقي تنمو اولاً بتحسين المسكن عند اجناس الامم الاتكالية اذا اختلطت بالامم الاستقلالية وظاهر ان هذا الاختلاط مفقود

عندنا الا انه ليس من المستحيل ان يستعاض عنه بمعرفة حقائق الاحوال كما ينبغي . فالمعارف توصلنا الى ان نعمل بغير اختلاط ما تفعله بلا تأمل بل لمجرد الاحتكاك نخبة العملة الايقوسيين او الارلنديين في انكلتره وما تفعله كذلك نخبة المهاجرين من اوروبا القديمة الى الولايات المتحدة بامريكا

على الطبقات الوسطى منا ان تبدأ بهذا الترقي بنفسها لنفسها فهي الآن تجهد نفسها كثيراً وتنفق المال الجزيل لتعيش خارج البيت ولتكثر من علاقاتها مع المتطرفين والاصحاب العاديين وتكره الاقامة في الارياف كرهاً شديداً لان العلاقات والمعيشة الخارجة عن البيت هناك اصعب وتعتني في بيتها بفرش القسم المخصص للاستقبال بالاثاث الفاخر والزخارف وتعد من الفضلات تنظيم القسم المخصص لمعيشة العائلة نفسها وتوفير موجبات للراحة فيه . وهي بذلك تجعل البيت ثقيلاً عليها وعلى ابنائها فلا تخصص لهم غرفة يشعرون باجتماعهم فيها انهم في بيتهم حقيقة ويتعلمون من صغرهم طرفاً من الاستقلال . الا ان الاطفال هم ضحايا البيوت في فرنسا . والواقع ان بيوتنا اعدت للاجانب لا لانفسنا وهذا هو الذي يجب تغييره ليرجع المرء الى المعيشة الخصوصية فيقيم فيها كمن يحتل حصناً منيعاً ويجعلها بحيث تميل اليها النفس ميلاً كلياً ففي الحياة الشخصية قوة عظيمة لكنها مجهولة ولا سبيل الى الارتقاء لقوم لا يعرفون حقيقة ما ذكر

لكن اذا تيسر لطبقتنا الوسطى ان تخطو هذه الخطوة وذلك ممكن اذا ارادت وليس على كل واحد من افرادها الا ان يقدم على العمل لنفسه فالامر متعذر على طبقة العملة لاستحالة انها تعمل بنور العلم وحده ولان

الغـاية المقصودة بعيدة عنها بعداً عظيماً ولانه لا مساعد لها من الاحتكاك لعدم وجوده فهي محتاجة لمن يعينها

هنا اوجه الخطاب على الاخص الى الذين جعلوا من همهم السعي في ايجاد الوسائل لاعانة المحتاجين وهم في الغـالب يساعدون العامل ويتكلفون حمايته وجب ذلك او لم يجب ولا يحصلون من اتعابهم الا فوائد قليلة فضلاً عما يلحق بالعملة من اضعاف قابليتهم الى الارتقاء بانفسهم . وكل مساعدة لا يكون الغرض منها جعل المساعدة نفسها فضلة اي اعداد الناس لمساعدة انفسهم بانفسهم قد تصير مصيبة عظمى واللازم هو مساعدة تلك الطبقة على الارتقاء بنفسها باعانتها على تحسين مساكنها وتنظيم المعيشة الشخصية

اني الاحظ الآن بكمال العناية مشروعاً بدأ بتنفيذه احد اصدقائي . ذلك انه يوجد على مقربة من املاكه معمل صغير يشتغل فيه نيف وخمسون عاملاً تتألف منهم عشرون عائلة ساكنة بجوار ذلك المعمل في بيوت اعطيت اليهم باجرة سنوية ما بين خمسين فرنكاً وستين وهي في الواقع لا تساوي اكثر من هذه القيمة لانها عبارة عن عشش او اكواخ ابوابها وشبابيكها لا تقفل متى فتحت مما يجعل سكناها لا تطاق في زمن الشتاء وهي على الدوام تقصي الناظر اليها عا علاها من الاوساخ التي تفوق الوصف ولا اذكر شيئاً عن اثاثها فانه دون ما يتصور العقل بساطة وعلى حال لا يمكن نعتها أبداً ومن تمام الشقاء ان قسماً من تلك العائلات ينهمك في المسكرات كما يحصل ذلك غالباً . تلك هي المادة التي اشتغل صاحبي بالعمل فيها وظاهر انها من احسن الموضوعات في بحثنا وانها تجعل العمل من اهم

ما يلتفت اليه والمجاورة صاحبنا لاولئك القوم وتفرغه الناشئ عن الاقامة في الريف سهل الاجتماع بينه وبينهم وبدأ الاختلاط اذ جاءوه يطلبون منه دواء لابنائهم او لبعض المرضى فتمكنت زوجته بذلك من الدخول في تلك المساكن حيث قوبلت بالشكر والامتنان وعادت مقشعرة من تعاسة ما هم فيهِ وعلى الخصوص من اهمال الاطفال وعدم الاعتناء الكلي بما احتاجوا اليهِ من الاوليات كالنظافة ومراعاة الصحة وكان من اول احتفائها بهم ان وزعت عليهم الملابس على شرط الاعتناء بها وان ينظف الاطفال وتمشط شعورهم في كل يوم . ثم جعلت لهم في ازمان معلومة طعاماً خفيفاً وقت العصر يجتمع حوله ابناء العملة كلهم واشترطت ان لا يحضرهُ الا من حسنت هيئتهُ وبذلك ازداد الاجتماع بين الفريقين وتم تنفيذ هذا القسم من مشروع صاحبنا على ما ينبغي وكانت هذه اول خطوة نحو الغرض المقصود. ولم تكن حالة ما حول المساكن باحسن مما شرحناهُ عنها فاذا امطرت السماء رذاذاً اخترقت المياه الطريق فصار وحلاً وهو مرمى الاقذار على الدوام وأوكد انه كان يحتوي على كل صنف من اوساخ اخس الآدميين . ولم يمض شهر الا وقد اصلح الطريق وفرش بالحجارة وارتفع عن مستو الارض واتخذ على جانبيه قناتان لتصريف المياه عنه وزرع صاحبنا في مدخله امام المساكن صفاً من الاشجار النضرة ذات الازهار فكانت تلك الاشجار اشبه بدرس في الاشياء لدلالته على انه يجب الاعتناء ايضاً بما حول المساكن كالاعتناء بها ودلالته اشد فعلاً في النفوس من القاء النصح والارشاد . ويظهر ان اولئك المساكين ادركوا هذه الحاجة فتعهد كثيرون منهم بسقيا

الاشجار والاعتناء بها . تم ذلك شيء يسير الا انه جعل فيهم همةً وهيأ لهم عملاً يرتاحون اليه وهي فائدة كبرى . بقي الهجوم على اجحار الوحوش التي يأوي اليها اولئك التعساء لجعلها بيوتاً محترمة وترتيبها بحيث تنمي في النفس قيمة الانسان وتنبئه بكرامة المسكن الذي يتمكن صاحبه من الارتياح به والراحة فيه حتى تنبعث الهمة الى ترتيبه وتجميله وهنا محل الصعوبة كما لا يخفى . ولحسن الحظ حدث ان مدير المعمل تغير بمدير جديد ومن رأي هذا الاخير اصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح لصاحبنا ان يحمل اولئك السكان على تحسين مساكنهم . وقد وعد بأنه يراقب ذلك ويتتبع حالة العملة المذكورين في التغيير والترقي ويساعدهم عليه جهده ويسطر النتيجة التي يصل اليها . ولا يتيسر للانسان ان يقف على مجرى الاحوال كما ينبغي الا اذا انحصرت في دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها

ربما يخطر بالبال ان اكبر عائق في ترقي العملة من حالتهم الى احسن منها قلة ذات يدهم الا ان المشاهدات لا تؤيد هذا الظن لانه يوجد بين العائلات التي تشتغل في ذلك المعمل واحدة يرى انها اشدهم بؤساً فمسكنها اسحق المساكن وابناؤها الستة اتعسهم حالاً وهي مفلسة على الدوام لا تفتأ تطلب من المدير مقدماً جزءاً من اجرها وقد اثقلتها الديون وحجز على قسم من استحقاقها . ومما يدل على ما هي فيه من الشدة ان المرأة اشتغلت يوماً في بيت صاحبنا في نظير فرنكين فطالبتهما قبل ان تغادر البيت وقالت انها لا تملك فلساً واحداً تقتات به وزوجها واولادها . فمخاطبة مثل هؤلاء القوم في تحسين مساكنهم تظهر بادئ بدء كأنها سخرية واستهزاء اذ هم

لا يكادون يحصلون قوت يومهم

لكن انظر اذن الى الراتب الشهري الذي تأخذه تلك العائلة كما هو ثابت في دفتر المعمل

	فرنك
اجرة الرجل	٩٠
« المرأة	٦٠
« الولد البكري وعمره ١٩ سنة	٧٠
« البنت البكرية وعمرها ١٨ سنة	٣٠
المجموع	٢٥٠

فيؤخذ من هذا ان تلك العائلة التي تتألف من ثمانية اشخاص اربعة منهم قادرون على العمل تعيش تعيسة في بلاد الريف بأجرة قدرها ثلاثة آلاف من الفرنكات في السنة وهي لا تدفع مع ذلك الا خمسين فرنكاً اجرة مسكنها وهو منزل وبستان يمكنها ان تزرع الخضر فيه. ومما يستغرب له الانسان في فقر تلك العائلة المدقع انها لم تخل يوماً واحداً عن العمل ومضى عليها خمس عشرة سنة تقريباً وهي في خدمة ذلك المعمل ثم زاد حملها بكثرة اولادها الا ان اجرها زاد ايضاً على هذه النسبة

ولبيان العلة الحقيقية في حالة تلك العائلة ينبغي ان نسلم بأن المسألة الاجتماعية ليست منحصرة في اجور الفعلة كما يذهب اليه السواد الاعظم بل راجعة ايضاً الى سير الافراد واخلاقهم . وربما عنيت بهذا الموضوع يوماً ما . اذ لو كان الامر دائراً على الاجرة لزال الاشكال وانجلى المعمى بما

تراهُ من حال تلك العائلة لكنه ليس كذلك وانما السبب في تعاسة اولئك القوم وانتشاب مخالب الفقر فيهم هو سوء سيرهم وانعكافهم على المسكرات اذ هي منتشرة بينهم اكثر مما يظن وفي ميزانية الفعلة خروق تذهب منها الاجور كما في ميزانية الاواسط من الناس.

يعيش الرجل الوسط معيشة ضيقة ليتمكن من ارضاء شهواته فيما يتعلق بملبسه واعداد بيته للاستقبال او ليدخر المال لبنيه والفاعل يعيش مقتراً ليتأتى له الصرف في امور غير مفيدة اوهزئية او ممقوتة والذي يعوزهما معاً انما هو حسن السير والنظام لا قلة المال . واعظم طرق استعمال المال فائدة هو اتخاذ مسكن مقبول توفرت فيه اسباب الراحة على قدر الامكان وكل الذي قدمناه راجع الى بيان ذلك . والصرف في هذا السبيل هو في الواقع استغلال بربح عظيم لانه فضلاً عن كونه يثني صاحبه عن الصرف في امور كثيرة لا فائدة منها فهو ينمي فيه شعوره بمكانته وباستقلاله وميله الى العمل واستعداده الى الارتقاء

كل من توفرت فيه هذه الصفات الاساسية يكون قد توصل بالنظر لذاته الى حل المسئلة الاجتماعية وصار مالكاً لنفسه مستقلاً عن الآخرين

الباب الثالث

﴿ الفرنساوي والانكليزي السكسوني في المعيشة العمومية ﴾

يوجد بين الفرنساوي والانكليزي السكسوني في المعيشة العمومية من الفرق ما شاهدناه بينهما في المدرسة وفي المعيشة الخصوصية وقد خصصنا الابحاث الآتية لبيان ذلك واظن اننا نكون حينئذ قد اتينا على ذكر أهم الاسباب التي تجعل الانكليزي السكسوني في جميع طبقات الهيئة الاجتماعية ارقى من غيره ارتقاء يمكنه من النصر في التزاحم في الحياة ونكون ايضاً بينا السبيل الذي يجب علينا ان نسير فيه لكي نقاوم انتشار ذلك الجنس الذي يهدد العالم باسره

الفصل الأول

﴿ اهل السياسة في فرنسا وفي انكلترا ﴾

اذا اخذنا بالظواهر رأينا المجالس النظامية التشريعية واحدة عند جميع الامم الا اختلافاً يسيراً فالمتفرج الذي يشاهد مجالس النواب في المانيا وانكلترا وايتاليا وفرنسا يتأثر تأثراً واحداً تقريباً واذا حكم بمقتضى هذا الشعور قضى بان حكومات تلك البلاد متشابهة وان نظام مجالسها النيابية يكاد ان يكون

واحداً وان الخلف ناشئ على الخصوص من جهة تكوين الاحزاب وعدد رجال كل واحد منها

(هذا ما ظهر ولكن بقي ما استتر) كما يقول (باستيا) وما استتر هو الذي يهمنا كشف القناع عنه

ان الذي احتجب عن الابصار لانه ليس مما يدرك بالاعين عادة هو طبقات الهيئة الاجتماعية التي ينتخب منها النائبون عن الامم ونسبة عدد المنتخبين من كل طبقة وطائفة الى الآخرين . ولا شك في ان هذا البحث يؤدي الى معلومات مهمة في موضوعنا فمن البديهي ان لصناعة الرجل التي احترف بها تأثيراً في افكاره وقابليته لهذا العمل دون ذاك وفي كيفية نظره في الامور والاحوال . ولكل طبقة من الزراع والتجار واهل الصناعة والاطباء والمحامين والجند والموظفين نشأة خاصة بها وكلهم لا يرون الشيء الواحد من الجهة الواحدة وكلهم لا ينوبون عن المنافع بعينها . ثم ان تلك المنافع ليست متساوية من حيث ضرورتها في الامة بل بعضها أهم من البعض وعلى كل حال فانها ليست معتبرة بدرجة واحدة عند الناس وقد تختلف بل ربما تعارضت

نتج من هذا ان عناصر النيابة الملية تتغير تغيراً عظيماً تبعاً لحالة الامة وباعتبار ان اهل هذه الطائفة اهم من اهل تلك او ارفع قدراً او اشد بأساً ويتتج من ذلك ايضاً ان المجالس النيابية لا تبقى على حال واحد في اعمالها ونظرها في مصالح الامة بل تتغير نزعاتها وتختلف آراؤها تبعاً لرأي الفريق الذي يسود على البقية من اعضائها

ولنبين ما نقول ببيان كيفية تشكيل مجلس النواب عندنا

ولا يغيبنّ عن ذهن القراء انني ما وصلت الى معرفة عناصر ذلك المجلس الا بعد الجهد والعناء اذ لم يسبقني احد لذلك البيان فألجأتني ضرورة البحث الى النظر في ماضي كل نائب على حدته ومعرفة ما امتاز به عن اخوانه وتقسيمهم جميعاً بحسب صنائعهم وحرفهم

وقبل ان نورد ذلك التقسيم نلاحظ اننا لم نجد حرفة ندخل فيها ثلاثة واربعين عضواً لاننا لم نهتدِ لهم على طائفة معينة يمكن الحاقهم بها فنهم ستة من العملة ربما صح الحاقهم في صف ارباب الصحف ومنهم من تعذر الوصول الى معرفة حالهم على ان هذا النقص الجزئي لا يؤثر بشيء في التقسيم العام كذلك لم يتغير ذلك التقسيم في المجلس الجديد الذي انتخب اعضاؤهُ بعد نشر هذا المبحث الا يسيراً بل ان النواب من ارباب الحرف الادبية زادوا فبلغوا ٢٨٦ بعد ان كانوا ٢٧٠ نائباً

جدول

﴿ تقسيم مجلس النواب الفرنساوي ﴾

﴿ تقسيم مجلس النواب الفرنساوي ﴾

مهنة	نواب الشمال	نواب اليمين	جمع	مجموع عمومي	اجمال	
ملاك اطيان	٠٨	١٧	٢٢*	٧٢	اهل الفلاحة	٧٢
زرّاعون	١٣	٣٧	٥٠			
صنّاع	٢٧	١٤	٤١	٤١	اهل الصناعة	٤١
تجّار	١٤	٠٣	١٧	٢٢	اهل التجارة	٢٢
ارباب بيوت مالية (بنوكه)	٠٢	٠٣	٠٥			
اعضاء جمعية المعارف	١٢	٠٠	١٢	١٢	اهل الحرف الادبية	٢٧٠
اطباء	٤٧	٠٣	٥٠	٥٣		
صيدليون	٠٣	٠٠	٠٣			
مهندسون ملكيون	٠٥	٠٢	٠٧	٠٧		
ارباب جرائد	٥٤	٠٥	٥٩	٥٩		
مدرسون في علم الحقوق	٠٥	٠١	٠٦	١٣٩		
موثقون	١٤	٠٣	١٧			
وكلاء الدعاوي	٠٩	٠٠	٠٩			
محامون	٨١	٢٦	١٠٧			
روحانيون	٠١	٠١	٠٢	٠٢	اهل الدين	٢
ضباط بريون	٠١	٠٢	٠٣	٠٦	اهل السيف	٦
ضباط بحريون	٠٠	٠٣	٠٣			
قضاة	١٢	١١	٢٣	٩٥	اهل الوظائف الادارية	٩٥
موظفون	٣٩	٣٣	٧٢			
بدون حرفة	٢٢	٢١	٤٣	٤٣	بدون حرفة	٤٣

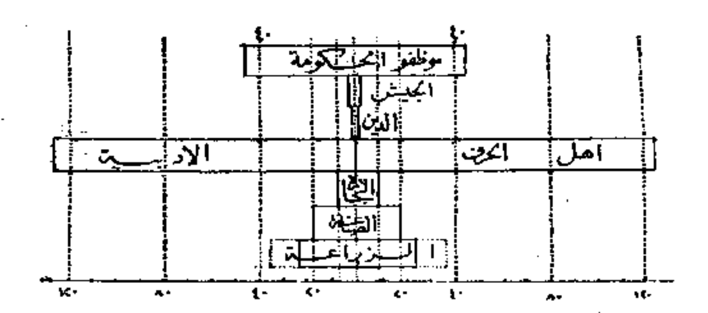
(*) في العمود الافقي الثالث خطأ في الجمع كذا في الاصل وصوابه ٢٥ بدل ٢٢ وصواب المجموع العمومي امام اهل الفلاحة ٧٥ بدلاً من ٧٢

ولنترجم عن هذا التقسيم بشكل مادي ليتمكن القارئ من الاحاطة بحقيقة النيابة الملية تماماً وتجلي النسبة بين الطوائف والطبقات وقد وضعنا الجدول الآتي لذلك وقسمناهُ بخطوط عمودية جعلناها نقطاً والارقام التي فيها تدل على عدد النواب

والذي يستلفت النظر اولاً في هذا الجدول هو عدم انتظامه الناشئ من فقد التناسب فقداناً تاماً بين الاعداد الدالة على الطوائف وثانياً هو ان نصيب الحرف العامة وهي الزراعة والصناعة والتجارة من ذلك العدد قليل وان الحظ الاوفر في النيابة عن الامة لارباب الحرف الادبية وموظفي الحكومة . وتتبين أهمية هذين الامرين اكثر من ذلك اذا قورن بين تشكيل مجلس نوابنا ومجلس نواب انكلترا وقد وضعنا جدولاً ثانياً لبيانه ولو انا ادخلنا في هذا الجدول اعضاء مجلس اللوردات لزاد عدد النواب من اهل الزراعة كثيراً لان هذا المجلس مؤلف كله من هذه الطبقة الا قليلاً . اما مجلس السناتو (الاعيان) في فرنسا فانه لا يختلف كثيراً في تشكيله عن مجلس نوابها وقد كتب موسيو (تاين) كلاماً مفيداً جداً اثبت فيه ان الانكليز يرون النيابة الطبيعية عنهم راجعة الى اهل الزراعة فمالوا الى انتخابهم (راجع كتابه مذكرات على انكلترا صحيفة ٢١٦ الى ٢٢٤)

*

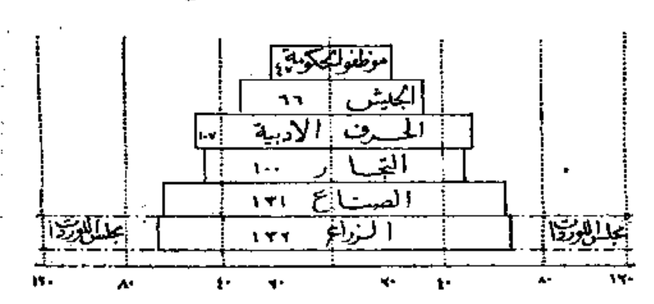
تشكيل مجلس النواب في فرنسا



وبهذا الجدول يمكننا ان ننظر الى جميع الحرف التي يتألف منها مجلس نوابنا نظرة واحدة ولنفرد الكلام على كل حرفة منها

يرى المطلع على هذا الشكل الذي يشبه الهرم انني وضعت الزراعة والصناعة والتجارة في اسفله لانها الاساس الاول فهي التي يحصل المرء بواسطتها عيشه اليومي وهي التي تقوم بها جميع الاعمال الاخرى وهي التي اذا اعتلت اصبح جسم الامة سقيماً وان بادت باد معها كما ينعدم الجسم الانساني لقلة الغذاء

تشكيل مجلس النواب في إنكلترة



وقد يتصور الانسان ان امة تعيش بدون محامين واصوليين ووكلاء دعاوي واطباء وموظفين ولكنه لا يسلم ان تعيش امة بغير زراع ينتجون لها مادة غذائها الاولى وصناع يصنعون حاجاتها التي لا بد منها في الحياة وتجار يوزعون هذا وذاك في الاماكن المحتاجة اليهما.

وجدولنا يدل على ان النيابة عن الحرف الثلاث الاولية قليلة جدًّا وهذا امر لا يخلو من الخطر بذاته ويظهر لنا الخطر عظيماً اذا امعنا النظر في كل حرفة على حدتها

اما الزراعة فيجب ان تكون هي الاساس الذي يبنى عليه ما عداه لانها اشد لزوماً في الامة من الصناعة والتجارة لا لمجرد انها هي القائمة بامر

الحياة مباشرة بل لكونها ايضاً آمن جميع الحرف واثبتها قدماً وثباتها من ثبات الارض التي هي محلها ولا يعتريها التغير الفجائي الكلي كما يعتري الصناعة والتجارة فالزراعة مستقرة الى حد انها صارت طبيعية في الامم. لذلك قيل في الزراع هكذا وجدنا آباءنا واستقرارها يجعلها الاس المتين في الامة لانها تجذب قسماً منها وتجعله ملتصقاً بالبلاد متمسكاً بتقاليدها وقلما تجد النظام والدوام عند غير الزارعين . وقد تبين ان هذا العنصر الذي به حياة الامة لا يوجد في مقدمة النيابة الملية عندنا على نسبة ما له من الاهمية الاجتماعية فما عدد الزراع في مجلس النواب الا اثنان وسبعون وهو قليل جداً بجانب المائتين والسبعين من اهل الحرف الادبية وهذا العدد على قلته يجب تنقيصه اذا لوحظ انني ادخلت فيه اصحاب الاراضي الذين لا يحترفون بحرفة ما وليسوا كلهم مشتغلين بالزراعة او مهتمين لها باكثر من مد اليد لتناول الايراد او الصياح من سوء الحال والكساد

ومن اولئك النواب اثنان وعشرون لا يصدق عليهم من الزراعة الا تسميتهم بالزراع لانهم يسكنون في باريس طول السنة ولا يقيمون في الريف الا يسيراً ويرتبكون في جواب من يسألهم عن حركة الزراعة واحسن الطرق فيها ومقدار ما ينتجه (الهكتار) والفرق بين منفعة السماد المعتاد والسماد الكيماوي وطريقة صنعه وهكذا . ولهذا رأيت من الواجب تمييزهم بعلامة مخصوصة حتى يكون التقسيم مطابقاً للواقع فدللت على نسبتهم بخط من النقط

اذن لا يوجد في مجلس النواب من اهل الزراعة الحقيقيين الا خمسون.

عضواً ومع ذلك لست على يقين من انهم يستحقون هذا الاسم جيماً والاولى ان لا ندقق البحث فيهم

وليس من الطبيعي ان تكون تلك المهنة على ما قد علمت من الاهمية لما يرتبط بها من المنافع العمومية ولكثرة عدد المحترفين بها وان يكون هذا عدد النائين عنها ولا بد لهذا التباين في النسبة من مؤثر قوي قديم العهد نشأ عنه عندنا هذا الاثر الذي لا يشاهد مثله في الامم الاخرى ولا اراه الا هرب كبار اصحاب الاطيان من الزراعة وهجرهم الريف بسكنى المدن وقد بدأ بهذه الهجرة منذ قرنين العدد العديد من الاشراف اصحاب الاراضي الواسعة وتكاثفوا بين جدران مدينة (فرساي) حيث اصبحو حاشية للملك وتباعاً في معيته واتبعهم في ذلك اواسط ارباب الاملاك من اهل الريف

ليس من بلد اهملت فيها الزراعة واحتقر الاحتراف بها مثل ما اهملت واحتقرت في فرنسا حتى ان الرجل لا يرضى ان يكون ابنه زراعاً الا اذا رآه لا يليق للاحتراف بغيرها واصبحت معيشة المرء في ارضه اشد وقعاً على النفوس من اتعس المنافي ولقد يفضل الفرنساوي وظيفة في (برسلونيت) على المعيشة في ارضه التي يملكها وارادت الجرائد الجمهورية سنة ١٨٧١ ان تحط من منزلة بعض اعضاء الجمعية الملية العمومية فاكتفت بان وصفتهم بانهم (ريفيون)

اصبح التباعد عن الزراعة وما يتعلق بها امراً عادياً عندنا حتى ان قساً من قسس باريس قال ذات يوم لاحد اصدقائي وكان من سكان ولايته « كيف تكلف نفسك ان تعيش في الريف وفي امكانك مع ما انت فيه من

سعة المال ان تعيش عيشة راضية في باريس)

اذا كانت هذه الافكار مما تقرر في الاذهان حتى عند اعظم الرجال كمالاً ووقاراً لم يعد من المستغرب ان تفقد النسبة بين اهل الزراعة وبين عدد النائبين عنهم في مجلس النواب ولا ان ينوب عنهم من كان اقلهم جدارةً واستعداداً . ولا حق لارباب الاملاك الواسعة ان يلوموا الاّ انفسهم على سقوط اعتبارهم عند المنتخبين الذين يفضلون عليهم غيرهم من الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوي والمحامين كما سنبينه

لست انسى حادثة شهدتها في مجلس (لا بلي) وهي انهُ جاءه في اليوم الثاني للانتخابات العمومية رجل من اصحاب الاملاك الواسعة في اقليم (صانتر) وشكا اليهِ من ان الانتخاب لم يصبه وكان يتألم كثيراً من ذلك لانهُ واباه من قبله وجده كانوا نواباً عن اهل ناحيتهم وصار يصخب ويفوق سهام الملام على المنتخبين ويندب فساد الافكار وانتشار مبادىء الثورة الى غير ذلك من الاقوال فقاطعه (لا بلي) سائلاً (سيدي الكونت اين كان يسكن جدكم قال في ارضه وكان لا يأتي باريس الاّ نادراً قال واين كان يقيم والدكم قال لما تزوج ابي اتخذ مقامه الحقيقي في باريس قال واين تقيمون قال وانا كذلك فقال لهُ (لا بلي) وقد اخذ في كلامه ما كان يعرف عنهُ من انبهار مخاطبه احياناً اذن لا حق لك في شكواك من المنتخبين . هب انهم اقاموا على الولاء لك بعد ولابيك الى يومنا هذا مع انك تركت الاقامة بينهم والاهتمام بمصالحهم وصرف المال الذي تأخذه من بلدهم فيها لكنهم سئموا طول المدى فاختاروا لهم رجلاً اقل صفاته انهم يرونه في كل

يوم وانهم يرجعون اليه كلما مستهم الحاجة لطلب المعونة او احتاجوا الى المشورة وقد اخذ ذلك الرجل مكانك لانك تخليت عنه منذ جيلين ، ولا اذكر اني رايت ذلك النائب الذي استولى اليأس عليه عند (لابلى) مرة اخرى

هذا مثل الكثير من اتراب صاحبنا وربما صار يوماً مثل ارباب الاملاك العظيمة في الاقاليم الغربية الذين لا يزال الاهالي يرسلونهم الى مجلس النواب والسبب في انهم لم يتركوا الى الآن طول الزمن الذي قضاه اباؤهم بين اولئك الاهالي

واما الصناعة والتجارة اللتان عليهما مدار العمران بعد الزراعة فنصيبهما في مجلس النواب اقل من نصيبها لانا لا نجد فيه الا واحداً واربعين صانعاً واثنين وعشرين تاجراً مع ان عدد اهل الصناعة والتجارة عظيم والمنافع التي هي بين ايديهم ذات اهمية كبرى ولا بد من سبب ادى الى ضعف النيابة عنهم . وهنا لا يمكن اتهامهم بانهم تركوا حرفهم كما فعل اهل الزراعة لان الصناعة والتجارة تطلبان مباشرة اصحابهما كل يوم مع العناية والاهتمام واذا ابتعدوا او فترت همتهم ولو قليلاً تقهقروا لساعتهم بتغلب المتسابقين وافضى بهم الحال الى الافلاس . ولكن هذه الضرورة التي تلجئهم الى مباشرة اعمالهم ولا تمكنهم من اغفالها يوماً واحداً هي التي لا تتفق مع نظام المجالس النيابية عندنا لان السلطة في بلادنا مجموعة في يد الحكومة العالية فاليها يرجع الفصل في جميع المنافع عظيمها وحقيرها وكلها يجب عرضها على المجالس النيابية لتبدي رايها فيها ولذلك تستغرق جلسات هذه المجالس اكثر ايام

السنة بتمامها . ومما يطيل اوقات الاجتماع ما اعتادوا عليه أثناء انعقاد الجلسات من كثرة المقاطعة وحشو المباحث بالامور التافهة والانتقال منها الى الشخصيات والجنوح الى السفسطة والصبيانيات ولذلك اسباب سنأتي على ذكرها فيما بعد . كل هذا يستغرق وقتاً طويلاً ويستلزم ادامة الجلسات الا قليلاً . وليس في استطاعة اهل الصناعة والتجار ان يتركوا اعمالهم هذا الزمن كله لذلك تراهم يفضلون العزلة عن الانتخابات ولا يترشحون الى النيابة . ومما يزيدهم رغبة في العزلة حالة الترشح التي صارت بحيث لا تروق في اعين اهل الجد والكمال الذين تعودوا الاخذ والعطاء في الامور المهمة اذ ينبغي لمن يترشح لعضوية المجالس ان يعرض نفسه للمطاعن القادحة التي يوجهها اليه سوء النية وللشتائم والسباب التي ترميه بها الجرائد المضادة لمذهبه . كذلك ينبغي له ان يحضر الاجتماعات العمومية وليس الهدو وسلامة الذوق من مميزاتها . وليس في الاستطاعة مقاومة تلك الامخاخ المائجة الا اذا كان الرجل متعوداً على الكلام عارفاً بطرق التمليق والاكثار من الوعود حتى ما عز الوفاء به عالماً باساليب التفيهق ورص الجمل الطنانة التي لا معنى فيها وتلك حال لا يحسنها من تفرغ لاعمال الصناعة والتجارة الكبرى فانها اعمال لا تؤهل صاحبها الى مثل ذلك ولا تجعله يرغب فيه . اما اهل الصناعة والتجارة الذين يقتحمون اخطار الانتخاب فهم واحد من اثنين . فاما رجل امن على مكسبه وصار بذلك قليل الاهتمام بحركة صناعته او تجارته فخرج عن مجرى الاحوال فيها واما رجل خاب في صناعته او تجارته فلم يبقَ لديه ما يخاف عليه ان تركها

تلك هي الاسباب التي لاجلها اصبحت الحرف الملية الحقيقية اعني الزراعة والصناعة والتجارة وليس لها من النواب الا القليل ونوابها هم في الواقع ابعد اهلها عنها

بقي علينا ان نعرف من النائب عنا

يرى القارئ فوق تلك الحرف الثلاث تجسماً هائلاً حيث ينبعج الشكل ويتمدد تمدداً كبيراً فيكاد عدد اهل الحرف الادبية يبلغ نصف عدد النواب كلهم لانهم مائتان وسبعون نائباً اعني ضعف اعضاء الزراعة والصناعة والتجارة . والعنصر الغالب فيهم هم الاطباء وارباب الجرائد والموثقون وعلى الخصوص المحامون . ولندخل بين ذلك الجمع لنقف على حقيقة تركيبه

يبلغ الاطباء والصيدليون ثلاثة وخمسين عضواً فعددهم كعدد اهل الزراعة تقريباً ويزيد على عدد اهل الصناعة والتجارة معاً وليس ذلك لان صناعة الطب توجد في الانسان استعداداً مخصوصاً لمداواة الهيئة الاجتماعية من امراضها فانا مهما اجتهدنا لا نرى ارتباطاً بين الطب الباطني في الامراض والوقوف على حقيقة ما تشكو الامة من الآلام . كذلك لا توجد نسبة بين سعادة الامة وعدد الاطباء فيها كالنسبة الموجودة بين تلك السعادة وبين عدد الزراع والصناع والتجار . ولا نحسب الاطباء ايضاً يتأثرون باختلال سياسة الامة وشبوب نيران الثورة الاجتماعية اكثر من غيرهم ولو كان الامر كذلك لظنناهم اشد الناس اقداماً على سد الخلل ومنع الخطر . لكنا نرى الامر بعكس هذا فبينما الصناعات الثلاث الاولى تصبح كاسدة بل تقف حركتها بما يطرأ على السياسة من الاختلال نشاهد صناعة الطب

غير متأثرة ابداً لانها انما تتعلق بسوء حال الاجسام والامراض الطبيعية في الانسان لا بحسن حال الاجتماع . ومما يدهشنا ان يكون عدد الاطباء كثيراً الى هذا الحد في مجلس النواب مع ما تحتاجه تلك الصناعة من استمرار مزاولتها والعمل فيها واذا غاب الطبيب تركته الزبائن لان المريض لا يقوى على الاصطبار ومن هنا جاء ان اغلب الاطباء في مجلس النواب ليس لهم زبائن اما الذين كثر عملهم ففائدتهم في الاحتفاظ على زبائنهم ولا يفضلون عليهم اقتحام مخاطر الانتخاب وطلب النيابة من مواطنيهم ولا يبيعون مرتزقاً مأموناً كثير الربح بحالة قل كسبها وبعيد ان تدوم . اذن ليس اولئك النواب نخبة بني حرفتهم وعليه فليسوا بعضد قوي للنيابة الملية

ولكي نقف على سبب انتخاب هذا العدد العظيم منهم ينبغي ان نعرف الامرين الآتيين

الاول   ان اولئك النواب هم في الغالب من حزب الشمال فمن الثلاثة وخمسين طبيباً وصيدلياً خمسون من الحزب المذكور وثلاثة فقط من حزب اليمين . ولا شك في ان صناعة الطب ليست هي التي غرست فيهم تلك الاميال حتى ضاعت النسبة كما ترى لاننا اذا رجعنا الى مجموع الاطباء كلهم لا نرى فيهم هذا الميل الى هذا الحد وسببه ظاهر لان صناعتهم ورغبتهم في تكثير عدد زبائنهم تجعلانهم لا يشتغلون بالسياسة الاَّ قليلاً . ولقد نسلم ان هذا النقد لا يصدق على الاطباء من النواب الذين ليسوا هم من خلاصة اهل الفن ولا ممن كثرت زبائنهم ولكننا لا نسلم بأن تأخرهم في صناعتهم هاج خواطرهم والقوا الاثم على الهيئة الاجتماعية فالوا الى

المتطرفين في السياسة انتقاماً منها اذ اننا لا نرى سبباً يمنعهم في هذه الحالة من الانحياز لحزب اليمين الذي يلتقي مع حزب الشمال في محاربة نظام الهيئة الاجتماعية الحالي مع ان لهم في الانحياز اليه مزية تمكنهم من اتهام الحكومة بانها السبب في اخفاقهم . والذي يؤيد ان هذا الدليل لا قيمة له هو تساوي عدد المحامين الذين لا يجدون ما يشغلهم من القضايا في حزب الشمال وحزب اليمين تقريباً اذا لوحظت النسبة بين جميع الاحزاب في المجلس

الامر الثاني ان اغلب هؤلاء الاطباء يحصل انتخابهم من جهات الارياف والسر في هذا ان اصحاب الاملاك الواسعة لا يقيمون غالباً في الارياف كما قدمنا وان عددهم قليل ايضاً في مجلس النواب فلما اختفوا عن اعين الاهالي قلت معرفتهم بهم وضاع ميلهم اليهم وهم في ذلك مصيبون ورأوا انهم لا يستحقون ان يقوموا بالنيابة عنهم اذ لم يعد لهم بينهم من المآثر غير جمع المال منهم لينفقوه في المدن التي يسكنون فيها . وارباب الاملاك الواسعة هم في الغالب من المحافظين فالنواب من اهل الزراعة في المجلس خمسة وسبعون فيهم اربعة وخمسون من حزب اليمين وواحد وعشرون من حزب الشمال وبتركهم الريف يضيع نفوذهم بين اهله وينتقل بالطبيعة الى اعدائهم في السياسة الذين هم من حزب الشمال فينتخبون بدلاً منهم. ولا يوجد في الارياف من يصح له ان يقوم مقام اولئك الملاك الغائبين الا الاطباء والمحامون والموثقون فلهذه الطوائف الثلاث نفوذ طبيعي بين الناس عظيم لكثرة من يخالطون والافضاء اليهم باسرار العائلات وما يقومون به

من الخدم اما بالارشاد مجاناً واما باقراض الاموال . ثم هم نخبة النبلاء في الارياف بعد الملاك فلا غرابة حينئذٍ اذا اصابهم الانتخاب وجلسوا في مجالس النواب

تلك مشاهدة صحيحة وهي الصحيحة وحدها بدليل انك اذا راجعت عدد الاعضاء من كل طائفة في كل حزب في مجلس النواب رايت الموثقين ووكلاء الدعاوي يكثرون حيث يكثر الاطباء فالموثقون سبعة عشر منهم اربعة عشر في الشمال وثلاثة في اليمين ووكلاء الدعاوي تسعة كلهم في الشمال .. ثبت اذن ان اهل تلك الحرف لم يدخلوا مجلس النواب الا لهروب اصحاب الاملاك . اما البلاد التي حفظ كبار الملاك فيها نفوذهم ومكانتهم فلا يزال اطباؤها وموثقوها ووكلاء دعاويها يقومون بخدمتهم للمرضى والارامل والايتام وكل الناس هادئ مسرور

ولست اذكر شيئاً عن المهندسين الملكيين لانهم سبعة نواب وهو عدد يسير سببهُ ان حرفتهم لا تمكنهم بطبيعتها كالحرف السابقة من اجتذاب القلوب واستمالة الاهالي

واما ارباب الصحف فكثيرون اذ اراهم تسعة وخمسين كعدد اهل الزراعة على التقريب واكثر جداً من اهل الصناعة والتجارة ولا اظن ان احداً يدعي انهم لازمون في الامة لزوم الزراع وانهم اشد لزوماً من ارباب الصناعة واهل التجارة معاً . وزد عليه ان ارباب الصحف لا يهمهم صلاح الحال في البلاد وهدو الافكار واستتباب النظام العام كالزراع والصناع والتجار فحياة الجريدة من الحوادث تزداد اعدادها ايام الاضطراب ولذلك

تنشر باحرف كبيرة اشد الاخبار اقلاقاً للراحة العمومية وتقل تلك الاعداد متى ساد السكون على الناس الا ان الجرائد لا تعدم سبيلاً للرواج فتختلق الحوادث وتعظم ما صغر منها وتيقظ اللاَّهي وتحض على تهييج الافكار لانها في حاجة اليه .. انظر كيف يزداد عدد الجرائد في ازمنة الاضطراب وكل من لم يطمس الله على بصيرته يقول ان تقدم الزراعة وارتقاء الصناعة ورواج التجارة انما يقوم بقتل الصحف وموت الجرائد

يقال ان ارباب الجرائد قد استعدوا للبحث في المسائل السياسية لانهم يخوضون فيها كل يوم . نعم اسلم انهم مستعدون للكلام في كل موضوع الا انهم يتكلمون كما تتكلم الجرائد . وصاحب الجريدة مضطر بطبيعة حرفته الى التفكر عاجلاً والحكم على الاشياء عاجلاً والكتابة عاجلاً فما لاحت لهُ بارقة فكر الا كتب فيها من حينها اذ ليس عنده زمن ليمعن النظر فيها وكبار اهل الجرائد يعرفون ذلك ويشكون منهُ اما الآخرون فلا يخطر لهم هذا على البال بل يعتقدون في انفسهم ما شاء الله ان يعتقدوا ويقولون غير هازلين انهم ارباب زعامة في الامة واهل سيادة على الافكار

صاحب الجريدة محتاج الى تغليظ صوته ليسمع الناس ويحول الافكار اليه ضرورة قضت بها مهنتهُ واستلزمتها حياة جريدته فهو يبالغ بطبيعة الحال كما اننا نأكل او ننام . ان قال في رجل انه نذل او وغد فمعناه ليس بأكثر من انهُ واياه في الرأي مختلفان وليس لكلامه غاية يقصدها ولكن هكذا اقتضت لهجة الجريدة فوجب الصراخ حتى يسمع الناس كما يقع في الموالد والاسواق حيث الوسيلة في الفات القوم كثرة الجلبة على الابواب وذلك

هو ما يسمى بالمظاهرة

اتظن يا صاح ان تلك الخلال هي التي ينبغي للامة ان تطلبها من اولئك السياسيين وانت تعلم ان البحث في منافع الامة العامة وحكومة البلاد لا يتأتى الا لقوم اتصفوا بالحكمة وبعد النظر وسلامة الحكم والمسالمة وحسن الذوق ومعرفة الاعمال المفيدة ؟ لا انكر ان بعض اهل الجرائد يعرفون ذلك الا انها صفات ليست هي الغالبة في تلك الطائفة بالبلاد الفرنساوية ولذلك نشاهد ان النواب من ارباب الجرائد لم يساعدوا على ايجاد الهدو في المناقشة واستعمال الحكمة في مباحث المجالس النيابية وما كثر عددهم في سراي البوربون الا لان الصحف في تصرفهم والصحف هي رسل الانتخاب

ارباب الصحف ليسوا على نسبة واحدة في الاحزاب فعددهم تسعة وخمسون منهم اربعة وخمسون في الشمال وخمسة في اليمين وسبب هذا الاختلاف ان حزب الشمال يعتمد على الفعلة وحزب اليمين يعتمد على الفلاحين واولئك يقرأون الجرائد اكثر من هؤلاء وبهذه الواسطة اشتد تقرب ارباب الجرائد الجمهورية من مجموع المنتخبين في المدن اكثر من تقرب اخوانهم المحافظين الى اهل الريف . ولو ان اهل الريف قرأوا الجرائد لتضاعف عدد المحامين في مجلس النواب . وبينما السبب في اغارة الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوي على المجالس النيابية هو تمتع كبار الملاك حتى فقد اهل الريف رؤساءهم الطبيعيين نرى السبب في اغارة ارباب الصحف آتياً من اهل الصناعة الذين تركوا الفعلة بغير قائد فأصبحوا عرضة لغواية

الجرائد ولا حامي يحميهم ولا دافع يردها عنهم فالرؤساء هم المسئولون في الحالين .

اكثر النواب من ارباب الحرف الادبية هم اهل القانون الذين بلغوا مائة وتسعة وثلاثين عضواً غير القضاة وامثالهم ممن هم في عداد الموظفين لانهم وان اتحدوا معهم في الصناعة لكن سبق وجودهم في خدمة الحكومة جعلنا نفرد لهم قسماً مخصوصاً وهو قسم الموظفين . وقد ذكرت بين اهل القانون مدرسي الحقوق الستة لمجرد البيان فقط ثم اشركت معهم الموثقين ووكلاء الدعاوي وقد سبق الكلام عليهم . بقي عندنا العدد الاكبر وهم المحامون .

يبلغ عدد المحامين مائة نائب وسبعة واريد بهم اولئك الذين توجد اسماؤهم في جدول المحامين الرسمي ولا يزالون يشتغلون بحرفتهم اما عدد حائزي الشهادة في علم الحقوق فيزيد في المجلس على ثلاثمائة ولسنا نعلم امة من الامم الماضية او الحاضرة نشأ فيها متعلموا علم الحقوق بكثرة كما هو حاصل عندنا في القرن التاسع عشر فهم غارة حقيقية بل طوفان وهم اصحاب الكلمة الحقيقيين في مجلس النواب وفي فرنسا كلها وقد وضعوا يدهم تمام الوضع على سير المجالس النيابية مما لم يسبقهم بهِ اهل حرفة اخرى

كيف لا يكثر عددهم والمحاماة فن يسهل تركه كما يسهل الرجوع اليهِ وليس في تركه ضرر برأس مال فعدة المحامي مكتبه ومكتبه في الغالب قسم من مسكنه والنيابة طريقة من طرق الظهور لانها تتيح للمحامي فرصة بيان فصاحته ونشر بلاغته وفي سراي البوربون منبر ارفع من منابر المحاكم . هناك يتكلم الواحد من علو عظيم ويسمع صوته من بعيد . اذن

في وظيفة النيابة مزية للمحامي تعطيه زبائن ان لم يكن لهم احد منهم (وقد حصل) او تكثر عددهم . ثم ان ضرورة الكلام في الاندية العمومية والمجتمعات التي يحجم عندها كثير من اهل الزراعة هي من الامور المقبولة عند المحامي فالكلام صنعته ومن هنا كان لهُ على المتسابقين معهُ مزية كبرى

غير ان المحامات لا تهيء الانسان الى ادارة مصالح البلاد كما تسهل له الدخول في مجلس النواب لانها لا تتأثر باعتلال الاحوال العمومية كما هو الحال في الزراعة والصناعة والتجارة بل الظاهر انها تستفيد من ذلك الاعتلال لان قوامها الدعاوي وهذه تكثر كلما كسدت الاعمال فتتولد القضايا السياسية في ازمنة الاضطراب وتتولد القضايا بين الاقارب متى فسد نظام العائلة وعلى هذا فسوء حال المحامي في قضاياه لا يدله على سوء مجرى الاحوال السياسية بل بالعكس

يقال انهم تعودوا على المباحث القانونية واختبروا القوانين فأصبحوا قادرين على التشريع وصحيح انهم يعرفون بمقتضى مهنتهم قوانيننا واحداً بعد واحد وواقفون على المذاهب التي ذهبت في تفسيرها وهم بذلك يفيدون النيابة الملية الا انهم لسوء الحظ ميالون الى تغليب الجانب النظري الذي هو ميدانهم على الجانب العملي والمنافع الحية التي ليست بين ايديهم

قضوا حياتهم بين النصوص فكان منهم ان حسبوا لها تأثيراً لا مرد له والتأثير في الواقع غير موجود واعتقدوا ان الامم انما تساس بوضع القوانين فقللوا من تأثير القوة الحيوية الذاتية واضعفوا تأثير الصنائع والفنون الجارية وهذا الميل هو الذي حمل اهل القانون في الزمن القديم على الدفاع اي دفاع

عن حقوق الملوكية حتى اطلقوها من كل قيد اضراراً بحقوق الرعايا وحرية الافراد واستقلال البلاد وهم الذين لم تفتر لهم همم. في زمننا هذا من حزب اليمين كانوا او من حزب الشمال عن جمع سلطة البلاد في قبضة الحكومة العليا فادخلوا يدها الثقيلة في كل ناحية ولم يرفعوا اصواتهم بالشكوى منها الا اذا رأوها في جانب خصومهم السياسيين وهم المسئولون قبل سواهم عن اتساع دائرة المصالح الاميرية والدواوين الفرنساوية التي اضرت بمالية البلاد ووقفت حجر عثرة في سبيل انتشارهم الافراد . وعليهم نصيب في سقوط منزلة النظام الشوروي لان عادة ارتجال القول فيهم حملتهم على اطالة المباحث بكلام فصيح لكن بغير فائدة بدلاً من المداولات المقيدة العملية التي تقتضي معارف مخصوصة واصبحنا نسمع الناس يصيحون في كل مكان طالبين مجلس نواب يقصر همه على الاعمال ووزارة تثني العنان عن النظريات اقول وزارة لاني ارى المحامين قد شغلوا اهم مركز بين النظار والعيب في هذا راجع الى نظام مجالسنا لانهُ يطلب في الوزير قولاً رجيحاً لا عملاً مليحاً ويشترط فيهِ من الصفات ما يزهو بهِ الانسان لا ما تظهر فوائده الحقة للعيان . ترى النائب ان رام الكلام وجب ان يرقي منبر الخطابة لا ان يتكلم من مكانه كما في مجلس نواب الانكليز ومتى توسط ذلك المقام لزمه ان يقدم مقدمة قبل الدخول في الموضوع ويختم بخاتمة اذا انتهى فيضيع جزءا ثميناً من الوقت في فيهقة ورص الفاظ ضخام ويقصي من المناقشة جميع النواب الذين لا قدرة لهم على طلاوة اللسان واولئك هم الذين في الغالب يعرفون حقيقة الاحوال الخبيرون بحاجات البلاد بدليل ما هو

مشاهد في اللجان حيث يظهر فضلهم وكان الواجب ان يبقى القول قولهم في الجلسات العمومية فمن المقرر ان اكثر النواب عملاً اقلهم كلاماً ونظامنا يبعدهم في زوايا الخمول ويصدر للناظرين كل منطيق فصيح

والخلاصة ان المحامين قد يفيدون النيابة الملية بما لديهم من المعارف الخصوصية ولكن لسوء الحظ زاد عددهم عن نسبة اهميتهم في الامة فصاروا اصحاب النفوذ في المجلس ووجهوا حركته الى حيث تسوء العقبى

وبقدر ما اغار المحامون على المجالس النيابية تأخر اهل الدين والجنود فلا ترى من الاولين في المجلس سوى رجلين اما لانهُ يصعب على الرؤساء الروحانيين ان يجتازوا متاعب الانتخاب واما لخوف الناس من تسلطهم على الحكومة . والسبب في ان رجال الجيش لا يزيدون على ستة نواب حظر القانون على جميع الضباط الذين في الخدمة الدخول في المجالس النيابية فلا يمكننا حينئذٍ ان نذهب مذهباً في قلتهم

هذا وقد استوى الموظفون على قمة الشكل الذي رسمناه وهم الفريق الاكثر عدداً بعد اهل الحرف الادبية وليلاحظ انا نعد الموظفين باعتبار وظائفهم التي كانوا يشغلونها قبل الانتخاب لان النيابة والوظيفة لا تجتمعان . وهم ينقسمون الى ثلاثة وعشرين قاضياً واثنين وسبعين موظفاً ادارياً فالمجموع خمسة وتسعون عضواً وهو عدد اكثر من عدد الزرّاع والصنّاع والتجار معاً . واكثر اولئك الموظفين من رجال القانون ولكنهم زادوا على معارفهم الاصلية خبرة باحوال الناس وتعودوا بمقتضى وظائفهم على احترام اعمال الحكومة وعرفوا جميع الطرق التي تؤيد فوزها وتوجب نصرها وقوم

هذه صفاتهم يظن انهم أولى بالانتخاب لكونهم ادرى بمصالح البلاد واحق ان يكون لهم العدد الاوفر بين النواب واعدل القضاة للحكم في المنفعة العامة ولبيان ما في هذا الظن من الخطأ او الصواب نبحث في المنفعة العامة

المنفعة العامة تقتضي ان يكون ثمن الحكومة رخصياً حتى لا تكلف الامة من المال الا يسيراً لكن منفعة الموظفين تقتضي ان يكون ذلك الثمن رفيعاً الى حد الامكان فبقدر ضخامة الميزانية توجد الوظائف تحت تصرف الحكومة وتمتد الاطماع لنوالها . الا ترى في كل سنة ان النفوس تميل الى التوفير والاقتصاد سداً للعجز الذي يزداد عاماً بعد عام حتى اذا حان زمان البحث في ابواب الميزانية وتتابعت الفصول اثر بعضها تغير شعور مجلس النواب وانحرف ذلك الميل الاولى وتحرك الخمسة وتسعون موظفاً بحركة شديدة لا دافع لها امام تلك الميزانية التي هي دجاجة البيض الذهبي عندهم وقاموا يدافعون عن حوزة المال الذي عاشوا منهُ واليهِ المصير اذا خرجوا من مجلس النواب . ولهم في دفاعهم نصير من اهل الحرف الادبية لاملهم اذا ضاقت عليهم رواتب المجلس ان يجدوا في الحكومة ملجأً يأوون اليهِ كما يفعل فار القصة المشهورة في الجبنة الهولندية . ولما كانت الحرف التي تقدم الاموال للحكومة اقل عدداً في المجلسين من التي تعيش من ذلك المال ينتهي الامر بالاقرار على الميزانية ويؤجل الاقتصاد الى اجل غير مسمى الا ان الامر لا ينقضي بالاقرار على المصروفات لذلك يركض النواب نحو الاقتراض ووضع الضرائب الجديدة رغماً عن وعودهم التي وعدوا الذين استنابوهم وهكذا يعظم العجز سنة بعد اخرى

المنفعة العمومية تقوم بتبسيط مصالح الحكومة وعدم الاكثار انواع فروعها حتى تسهل على الناس معرفة جهات اشغالهم وتقضي شؤ كما ينبغي في زمن قصير . ومن مصلحة الموظفين بقاء التعقيد الحالي يلحون على الدوام في تأييده رغماً عن المعارضين في بقائه او عن مشرو الاصلاح التي تقدم في كل حين . اما فائدتهم من بقائه على ما هو فهي ان التعقيد يجعل وجودهم لازماً لحل مشكلاته ويوسع في اختصاص ويصير التنقيب عليهم عديم الجدوى وبهذا يصيرون اقوياء مس غير مسئولين

ومن المنفعة العمومية ان لا تتداخل الحكومة في الاحوال الخصو المتعلقة بالافراد او بالقرى كل واحدة على انفرادها وان لا تعيق هم الا عن العمل بما ينبعثون اليه في طلب مصالحهم وان لا يجدها الانسان ا كسور من حديد يصده كلما تحرك يميناً او شمالاً او كلما اراد ان يدير بنفسا الاعمال او يؤدي اقدس الواجبات . ومصلحة الموظفين تخالف كل هذ تقوم الا اذا تداخلوا في كل شيء يتعلق بالقرى والعائلات وكلما تدا زادوا عدد الوظائف وزيادة الوظائف تجر زيادة الموظفين وهذا حال ض عظيم خصوصاً وانهُ عام تشترك فيه جميع الاحزاب فمن الخمسة وتسعين واحد وخمسون من حزب الشمال واربعة واربعون من حزب اليمين و شيء نختلف فيه هو حبنا جميعاً للميزانية في كل عام

يقال ان كثرة عدد الموظفين في الشورى غير معيب لانهم اد حكومة البلاد كلها فاكتسبوا الخبرة التامة في اعمالها وعرفوا ما يضرها

بفعمها واصبحوا نواباً محنكين . والحقيقة ان خدمة الحكومة لا تربي الا اشد الرجال العموميين بغضاً عند الناس لانها تقتل في الرجل همته الذاتية والاستقلال وتميت شعوره بتبعة ما يجري على يديه من الاعمال وهي الصفات التي لا بد منها فيمن تعرَّض لسياسة الامة . فان كان الموظفون من الحزب القابض على ازمة الاحكام رايهم تبعاً للحكومة قد اهدوها استقلالهم بما يرجون من حفظ مركز او نوال وظيفة عندها . وان كانوا من خصومه فهم اعداؤه لانهم خصومه يحاولون سقوطه لكي يسقط فهم ثورويون طبعاً بمحض انهم خصماً .. ضع نفسك بينهم تجدهم بين امرين اما الموت او الحياة لان الخدمة لم تؤهلهم الى كسب عيشهم بأنفسهم فاصبحوا ولا عيشة لهم الا في مخادع الوظائف العمومية . اذن لا عجب ان يحولوا وجههم الى قبلة واحدة الا وهي خراب بصرة اي قلب حكومة الاخصام

لهذا يجب ان يكون في مجلس النواب اغلبية من اصحاب المنافع الحقيقية في البلاد حتى تضم الموظفين وتحيطهم بدائرة لا يظهر معها ضررهم . ويجب ان تتألف تلك الاغلبية من اهل الحرف الثلاث التي وضعناها في اصل الشكل الذي قدمناه وهي الزراعة والصناعة والتجارة وقد رأينا ان عدد نوابها قليل وانهم ليسوا من الاخيار

هذا هو عيب نظام حكومتنا ولذلك فالموازنة مفقودة في مجالسنا تدوم دوام اليقطين لان الاغلبية مؤلفة من الموظفين واهل الحرف الادبية فقد بلغ عددهم جميعاً ثلثمائة وخمسة وستين في مقابل مائة وخمسة وثلاثين نائباً عن

الحرف الجارية الثلاث

رأى القراء ان الشكل الذي قدمناه اليهم يشبه الحجارة العظيمة المتزعزعة لقيامها على اساس ضيق تموج في كل صوب لاقل صدمة تلاقيها اما تلك الاحجار العتيقة فثابتة اعني انها تقاوم تقلبات الحوادث رغماً عما بها من الاهتزاز وتمر عليها الاجيال وهي باقية ومن سوء حظنا ان الحال ليس كذلك عندنا فالنيابة الملية في فرنسا تجري مع كل ريح تهب من جانب الافكار وتسقط الى حيث تميل تارة في الشمال وتارة في اليمين فتهشم في سقوطها المنافع الثلاث التي رزحت تحت اثقالها وامست عاطلة مع انها هي المنافع العمومية الحقيقية في البلاد

الفرق بين حالنا وبين حال الامة الانكليزية في هذا عظيم · ترى شكل نظام النيابة في تلك البلاد لا يمثل ذلك الحجر الذي اختل مركز ثقله ولكنهُ يمثل اهرام الفراعنة ذوات القواعد العريضة القوية · هناك ترى نسبة التوازن مرعية وكل عنصر من عناصر الامة مستوياً في مكانه ونسبته نغيره على قدر المنفعة العمومية التي يشخصها · وترى الحرف الادبية قد انحصرت في دائرة مقبولة فزال شرها بل صارت كما ينبغي ان تكون زخرفاً ملياً وركناً مهماً من اركان التقدم في الافكار والآداب وملطفاً لما عساه يتأتى من الافراط من جانب اهل الحرف الجارية

الضرر عندنا كل الضرر من انهُ لم يعد لنا نواب طبيعيون

واذا اردت ان تعرف من النائب الطبيعي فاقرأ ما كتبهُ (تاين) (مذكرات على انكلترة صحيفة ٢١٧ الى ٢١٨) حيث يقول (انا نعجب باستقرار

الحكومة الانكليزية ولكن لا عجب لانها الخلاصة الطبيعية لتلك العناصر الحية التي علقت بالارض في جميع انحاء البلاد . واذا فرضنا ان حركة ثوروية كحركة اللورد غردون قامت في تلك البلاد وادارتها يد اكثر تجاربا وامهر سياسة واضفنا اليها مطالب الفوضويين وضممنا اليها رجال الجيش وان كان محالاً وحسبنا ان النتيجة العاجلة الكلية هي تقويض اركان المجلسين ومحق اثار العائلة الملوكية ثم نظرنا الى البلاد بعد ذلك رأينا ان قمة الحكومة هي التي عفت اثارها وما دونها باقٍ لم يمسسهُ سوء لانك تجد في كل قرية وكل ولاية عائلات ثابتة الدعائم تجتمع حولها عائلات مثلها ورجالاً ذوي مكانة رفيعة من المهذبين واهل الاحساب تبعثهم هممهم الى قيادة الزمام والتقدم الى الامام وللناس فيهم ثقة فيتبعونهم لانهم ابناء بجدتها بما عرفوا بهِ من قبل من علو المنزلة وسعة المال وسابق الخدم وبما اتوا من التربية وحازوا من النفوذ ومنهم الضباط والقواد التي تلتف حولهم الجنود المتشتتة فيرجع الجيش على الفور الى نظامه بخلاف الامة الفرنساوية فان اواسط الناس فيها والفعلة والشرفاء واهل الارياف كل يحذر من رفيقه وكلهم متخالفون متباغضون خائفون ولا رئيس الا الموظفون الذين هم عنهم اجنبيون والذين هم في وظائفهم واجفون مؤقتون والذين لا يطيعهم احد الا طاعة الخوف بلا ميل قلبي ولا احترام شخصي قد احتملهم المحكومون وهم في احتمالهم مسيرون لا مخيرون . هكذا كانت حكومة الانكليز ثابتة لان للانكليز نواباً طبيعيين) وقال في موضع آخر صحيفة (١٩٠) (ليست المدن في بلاد الانكليز كما هي عندنا الموطن المختار فانا اذا استثنينا المدن الصناعية

لا نرى احداً يسكن عواصم الارياف مثل مدينة يورك الا الباعو
الشرَّاؤن اما خلاصة الامة وعظماؤها فبعيداً عن المدن يسكنون و
العزب والارياف حتى ان مدينة لوندره نفسها اصبحت ملتقى اهل ا
لا موطناً لاكابر الرجال)

ما اسعد الامم التي اسندت ظهرها الى نوابها الطبيعيين فتمكنت من ايجاد النسبة بين عناصرها في النيابة الملية

الفصل الثاني

﴿ السبب في ان الانكليز السكسونيين ﴾

﴿ أبعد عن مذهب الاشتراكيين من الالمانيين والفرنساويين ﴾

الحوادث الاجتماعية كالنبات لكل نوع منها منبت مخصوص
فيه والبزرة الواحدة لا تنبت في جميع الاقاليم بكفيه واحدة بل للوسط
عليها كما ان له تأثيراً في كل شيء

ومذهب الاشتراكيين لم يشذ عن هذه القاعدة ومن الواجب ان
نعرف تاريخه كما ينبغي حتى نقف على حقيقة ذلك المذهب وترقيه

اصل نشأة مذهب الاشتراكيين واول تكوينه كان في البلاد الا
ففيها منبعه ومنها انتشر في بقية ارجاء المسكونة • ذلك ما اجمع
الاشتراكيون والذين كتبوا على مذهبهم قال موسيو (دولافلي) في ك

(مذهب الاشتراكيين في العصر الحاضر) صحيفة (٥) نقلاً عن (بابمبرجر) احد النواب الالمانيين ما نصهُ (من الغريب ان افكار الاشتراكيين لم تجد مجالاً في اي بلد كما وجدت في المانيا فانها لم تقتصر على الفعلة بل انجذبت اليها الطبقة الوسطى حتى سمعنا اهلها مراراً يقولون ربما صار الحال احسن مما هو الآن اذا جرى العمل بالمذهب المشار اليهِ وانهم لا يرون سبباً يمنع من التجربة . وقد اخترق ذلك المذهب الطبقات العالية في الامة ودخل في جمعية المعارف واستوى على كراسي المدرسين . والعلماء هم الذين رفعوا اصواتهم بالشكوى من الحالة الحاضرة فتبعتهم جمعيات الفعلة والصناع والمحافظون هم الذين نددوا بالاختصاص في الاملاك ونادوا بالويل على رأس المال ولسنا نرى نظيراً لذلك في بلد اخرى) وقال في مقدمة ذلك الكتاب نقلاً عن نائب الماني اخر في كلام لهُ امام مجلس النواب ما يأتي (لقد حط جيش مذهب الاشتراكيين رحاله في البلاد الالمانية وتربى عندنا التربية الفلسفية والعلمية)

وفي الواقع يجد الباحث في المانيا جميع شيَع هذا المذهب فنهم الثوريون ومنهم المحافظون ومنهم الانجيليون والكاثوليكيون والمدرسون في المدارس . وهذا الانتشار يدل بذاته على ان جو البلاد الالمانية يلائم هذا المذهب ويساعد على انتشاره وهو يظهر كثيراً ايام الانتخابات فللثوريين من اهله قسم كبير في مجلس النواب وكان عدد الاصوات التي اصابت المترشحين منهم في الانتخابات الاخيرة قريباً من مليون ونصف مليون فاذا اضفنا اليهم اهل الفرق الاخرى كانت الاغلبية في مجلس النواب

الالماني للاشتراكيين

تختلف فرق الاشتراكيين في مقاصدها ومطالبها الا انها متفقة على امر واحد هو لبّ المذهب ورايته التي تخفق فوق رأس الجميع وعلا الخاصة وهو وجوب حل جميع المسائل الاجتماعية بالقانون او بتد الحكومة فكلها تعلل النفس بحكومة تقرر طريقة الشغل وتحدد ال وتقدر الاجور وتتكفل باسعاد الامة في مجموعها وفي كل واحد منفرداً بحيث تصير الحكومة رئيساً عاماً للكل وبالجملة فالحكومة هي الامال الجديدة التي يحج اليها الاشتراكيون على اختلاف مشاربهم. و يتبين هذا نأتي على طرف من احوال كل فريق

اقربهم الى المعقول هم الثوريون لانهم يذهبون برأيهم الى ما يؤدي اليهِ وتكاد الفرق الاخرى لا تعمل الا لخدمتهم اذ من د الفكر الانساني متى قذف بهِ في منحدر ان يسير حتى يبلغ النهاية وهذا السبب في ازديادهم على الدوام ومن بينهم نبغ استاذ مذهب الاشتراك الحالي الذي اكمل مبانيه وكان لرأيه تأثير عند جميع الفرق حتى المحافظ والمدرسين وهو (كارل مركس) ورأيه مبسوط في كتابه المسمى (را المال) كتاب كله قضايا عقلية كقضايا الحساب بل هو اصعب منها فر واتعب فهماً ومبنى طريقتهِ عدة استنتاجات مترتبة على حدود وتعار وفرضيات وحدسيات . فباحدى القضايا يهدم المجتمع الانساني الحا وبثانية يبنيه على اسٍ جديد. ومن رأيه (ان العمل هو الوحدة الحقيقية ا يمكن تقدير قيمة جميع المصنوعات بحسبها ومعرفة الفرق بين الانو

وبعضها) اذن فالعمل وان شئت فقل العامل هو الذي يوجد رأس المال وعليهِ فرأس المال كما وجد اليوم انما هو نتيجة تعدٍّ واغتصاب ومن هنا وجب رد المال لمالكه الحقيقي والمالك الحقيقي هو مجموع الفعلة والعمال اعني انهُ يجب رد المال الى الجمعية ذاتها وهي الكل . وهكذا اخذ المؤلف يترقى من رتبة الى رتبة حتى انتهى باعتبار الحكومة رئيساً عاماً هو الذي عليهِ ادارة العمل كله وتقسيم ثمرته بين الجميع بالعدل والانصاف . وقد تلقى الاشتراكيون الثورويون هذه المبادئ واستخلصوا منها طريقة قرروها بينهم سنة ١٨٧٧ في مؤتمر (غوطا) واليك اهم ما تقرر

(ان العمل منبع كل ثروة وكل تمدن ولما كان العمل العام المفيد لا يتيسر الا للامة كلها فالثمرة كلها ملك لها اي لجميع افرادها ولكل واحد الحق في نصيب يناسب حاجاته التي يقبلها العقل وعلى الجميع ان يعملوا

(ان آلات العمل في الهيئة الحاضرة محتكرة بين ايدي ذوي الاموال ومن ذلك كان الفعلة مسيرين بامرتهم وهذا هو السبب في الشقاء والاستعباد على اختلاف طرقه واحواله . وعتق الناس من هذا الحال يقتضي ان تصير تلك الآلات كلها ملكاً عاماً للهيئة بتمامها وعليها ان تضع نظاماً لجميع الاعمال وان يكون عمل الكل لمنفعة الكل وان تقسم الثمرة على الجميع بلا غبن ولا تمييز)

اما كيفية الاجراء في الهيئة الجديدة التي يطلبونها فهو ان يصير كل فرد عاملاً في عمل حيث كان ويعطي لكل عامل اجر على كل عمل اتمه باعتبار متوسط الساعات التي تلزم لاتمام ذلك العمل ويدفع له في ذلك وثائق تدل على عمله ليستبدلها بما يريد من المصنوعات وتوضع هذه المصنوعات في

مخازن عمومية يصرح للموكلين بها باستبدال البضائع بالوثائق والوثا
بالبضائع وتصيير العقارات بانواعها ملكاً للحكومة ويعيش كل انسا
العمل او الوظيفة التي كلف بها فلا يدخر الرجل الا اليسير ولا يترك ل
الا ما كان مالاً منقولاً

واشهر رؤساء فريق الاشتراكيين الثورويين في هذا الحين هم موسيو (ببيل) و (ليبكنخت) و (فولمار) والاول كان صانعاً بيد احد المعامل والثاني من اهل الطبقة الوسطى والثالث من اقدم الما العظيمة في بلاد (بافيير) وكان من ضباط الجيش الالماني والجيش الب واولئك الرؤساء الثلاثة يشخصون حقيقة مذهب الاشتراكيين في الما ينبغي ويدلون على ان جذوره تمتد في اعماق الطبقات النازلة وتنتشر فر بين الاواسط حتى تصل اعلى درجة في الناس . وقد اصبحت المانيا متد بهذا المذهب من تحتها ومن فوقها على اختلاف في الدرجة وتفاوت في الانتشار . . ومع هذا فريدو الطائفة الثوروية هم من الطبقة النازلة الا ا واما الاواسط والاشراف فانهم يفضلون الطوائف الاخرى لانها اكـ اعتدالاً وهي التي بقي الكلام عليها

قدمنا انه يوجد في المانيا بين فرق الاشتراكيين فرقة تسمى بالمحافظ ولاحظ موسيو (دولافلي) صحيفة (٣٣) ان كلمتي اشتراكيين ومحافظ متنافرتان لان الاشتراكي يرمي الى هدم ما بناه المحافظ ومع هذا فقد و حزب اتخذ الكلمتين اسماً له وليس من المجازفة ان نقول ان اشهر رئيس هو البرنس دي بسمارك على نوع ما . ولا تذهب هذه الفئة كسابقتها

وجوب القاء آلات العمل كلها بين يدي الحكومة وانما يصدق عليها اسم الاشتراكيين لانها تذهب الى حل جميع المسائل الاجتماعية بوضع نظام محكم وبزيادة تداخل الحكومة حتى تصير مناطة بادارة العمل وتقدير الاجور وسن القواعد لجميع طرق الانتاج والتحصيل . ورجال هذه الفئة هم في الغالب من الاواسط الذين يخافون من مذهب الثورويين ويريدون الهرب من غائلتهم بدفع الامة كلها الى حما الحكومة كانهم يقولون لها (اعملي انت ما هم عاملون ان في ذلك نجاتنا اجمعين) وكل يعلم مسارعة امبراطور المانيا الشاب الذي يرى انه خبير بكل شيء الى تلبية هذا النداء . لذلك اتى بمظاهرات عدة كانت عقيمة العاقبة بمقدار ما دوت في الارجاء وهو اليوم الرئيس الحقيقي لحزب الاشتراكيين المحافظين

واما فئة الاشتراكيين الانجيليين فسميت كذلك لان رؤساءها من رعاة الكنيسة الرسمية وقد قامت كالتي قبلها لتؤيد الملوكية في الاذهان وتساعد على انتشار نفوذ الملك متذرعة في ذلك بمذهب الاشتراكيين . وهي ايضاً تطلب حل المسائل الاجتماعية من الزيادة في وظيفة الحكومة وتأييد تداخلها حتى تكون الرئيس العام لجميع الناس . واليك طرفاً من مقاصدها

(ان حزب الفعلة الاشتراكيين المسيحي مؤسس على الاعتقاد الديني والولاء للملك والوطن وهو يطلب من الحكومة ايجاد طوائف للحرف ممتازة عن بعضها بحيث يكون لكل منها نظام قانوني في جميع المملكة ويكون من مقتضى ذلك النظام تحديد شروط الاحتراف تحديداً دقيقاً .

وان تشكل مجالس تحكيم تكون قراراتها نافذة على اصحاب الشأن فيها ـ وان تنشأ صناديق لاعانة الارامل واليتامى وعجزة العمل ـ وان تحدد ساعات الشغل على حسب طبيعة العمل ـ وان تستغل املاك الحكومة واملاك القرى لفائدة الفعلة ويزاد على تلك الاملاك كلما كان ذلك مفيداً من الجهتين الاقتصادية والفنية ـ وان يضرب على الايراد خراج يترقى بزيادته وان يضرب رسم على التركات يترقى بحسب اهميتها وبعد قرابة الوارث من المتوفي)

فاقصى ما يتخيله هذا الحزب هو ان يحكم البلاد مستبد عادل تكون سعادة الكل في سيادته

واما فئة الاشتراكيين الكاثوليكيين فكثيرة العدد وتألفت على اثر الكتاب الذي نشره موسيو (كيتلير) قس (ميانس) وسماه (مسئلة الفعلة والنصرانية) وكان له شأن كبير في البلاد الالمانية وقد نقل في كتابه هذا كثيراً عن (لاسال) الاشتراكي وتخلص مثله الى وجوب تأسيس شركات للتعاون والعمل يكون الغرض منها وضع رأس المال في يد الفعلة فتنحل بذلك مسئلة الاجور. ولكن الذي عمم فكرة المؤلف وانتزع من كتابه طريقة اتفق عليها اهل المذهب انما هو احد تلامذته وهو موسيو (موفانج) شماس كنيسة (ميانس) واليك بيان المهم منها

(ان اجور الفعلة غير كافية بحاجاتهم فوجب تداخل الحكومة وهي تداخل لتؤيد النظام الذي تضعه طائفة كل حرفة لابنائها وعليها ان تقرر ساعات العمل وتقدر الاجور وتبين علاقة الصبيان مع الرؤساء والعمال مع

اصحاب المعامل وان تقرض جمعيات الفعلة ما تحتاج اليهِ من المال . وهنا يظهر ميل تلك الفئة الى الاشتراك . قال موسيو (موفانج) (لست اوافق على المعامل التي يشير بها موسيو (لويز بلان) ولكني لا ارى سبباً يمنع الحكومة من مساعدة جمعية الفعلة اذا اسست على نظام متين) ومن مقاصدها ايضاً ان تجعل الحكومة حدّاً لظلم ارباب الاموال ولكنها لم تبين طريقة الوصول الى ذلك قال موسيو (موفانج) (اني لا اتعرَّض للغنَى ولا للاغنياء ولكن الذي انددّ عليهِ هي الطريقة التي يغتني بها اليوم اولئك الاغنياء والموسرون)

وليس بين هذا المذهب ومذهب الاشتراكيين الثورويين الا تفاوت يسير واهم ما يفترقان فيهِ هو اعتماد احدهما على الدين . نعم ان اصحابه لا يقولون بوجوب جعل الاراضي كلها مشتركة الملك ولكنهم ليسوا بعيدين عن هذه الغاية لان مبادئهم توصلهم حتماً اليها فهم يطلبون ان يكون رأس المال مشتركاً بين جمعيات الفعلة ورأس المال جزء من ذلك الكل . وعلى كل حال فهم يطلبون جهاراً ان تكون الحكومة هي الرئيس العام في العمل وعليهِ تكون هذه الفئة تابعة حقيقة لمذهب الاشتراكيين كما عرفناه . وتكون تسمية نفسها بهذا الاسم حقيقية

والاخيرة هي طائفة الاشتراكيين المدرسين الا ان رجالها غير متفقين على المبادئ لذلك يوجد بين مدرسي علم الاقتصاد من يقول بمذهب الاشتراكيين لكن على حذر وتهيب ومنهم من يتمشى فيهِ الى اكثر من ذلك حتى جهر بعضهم كموسيو (وجنير) الى القول بوجوب تحديد الملكية

الشخصية والتوسع في الملكية المشتركة ولكنهم كلهم متفقون على رأي من حيث وجوب حل المسائل كلها بواسطة وضع نظام دقيق للعمل وال في تداخل الحكومة

وما سقت هذا البيان الآ لابرهن على ان المانيا وسط يتخلله مذ الاشتراكيين من اسفل الطبقات الى ارفع المقامات فيها . وقبل ان ننتقل هذا الموضوع ينبغي ان نأتي بالاختصار على السبب الذي ادى الى الحالة في تلك البلاد

كان ظهور مذهب الاشتراكيين في الوجود معاصرًا لتبدل الا- الاجتماعية في الامة الالمانية بقيام سلطة الملوكية المطلقة مقام سلطة ال والاقاليم كما حصل ذلك في اسبانيا منذ ثلاثة قرون ايام فيليب الثاني فرانسا منذ قرنين ايام لويز الرابع عشر والمطلع على التاريخ يعرف كيف ملوك البروسيا بهذه الحركة وكيف ان امبراطرة الالمان يهتمون منذ ١٨٧٠ باتمام ما بدأ بهِ الاولون وادخال التحسينات فيهِ حتى اصبحت ا كلها في قبضة البروسيا والبروسيا كلها في قبضة الحكومة . وقد م. زمن طويل على حكومة البروسيا وهي تعمل بمبادئ الاشتراكيين وان لم بها. فالتوسع في الجندية حتى عمت جميع الناس وتنظيم المصالح الادارية شكل غير بسيط يزداد تعقيداً في كل حين يشبهان من جهات كثيرة يرمي اليه الاشتراكيون من النظام الذي يودّونه للامة بتمامها في المستقبل ومن المعلوم ان الحكومة البروسيانية تضع يدها على كل رجل منذ الطفو فتبتدي سلطتها عليه اولاً بواسطة المدارس ثم بواسطة الجندية لتربي

حسب مشيئتها على المبادي التي تختارها

واكبر من ذلك كلهُ اننا نجد في القانون المدني البروسياني نصوصاً مطابقة لمبادي الاشتراكيين . جاء في الفقرة الاولى من الباب التاسع عشر ما نصه (يجب على الحكومة ان تقوم بمعيشة الذين لا يقدرون على الارتزاق بانفسهم من مطعم وغيره او الذين ليس في قدرتهم ان يتحصلوا على معيشتهم ممن هو مسؤل عنها بمقتضى القانون) ـ الفقرة الثانية (يعيّن للذين لا عمل لهم شغل يليق بحالة كل واحد منهم) ـ الفقرة الثالثة (الاشخاص الذين يحملهم الكسل او حب البطالة او اي سبب آخر من الاسباب الرديئة على عدم الكسب وتحصيل وسائل المعيشة يستخدمون في الاعمال النافعة تحت ملاحظة الحكومة) الفقرة السادسة (للحكومة الحق كما هو واجب عليها ايضاً ان تؤسس مصانع ومعامل يكون فيها قوام حياة المحتاجين وتهذيب اخلاق المسرفين) ـ السابعة . (لا يجوز للحكومة بأيِ حال من الاحوال ان تأتي عملاً من شأنه حمل الناس على الكسل خصوصاً الطبقات النازلة او يلهي عن الاشتغال) ـ العاشرة . (على جهات الادارة البلدية في القرى ان تقوم بمؤونة فقرائها) ـ الحادية عشرة . (وعليها ان تبحث عن اسباب ذلك الفقر وتحيط به السلطة العليا لتتخذ التدابير الواقية منه)

ولا شك ان الامة التي تساس بمثل هذا النظام الذي يجهر بحق الناس في العمل ويقضي بتداخل الحكومة حتى يكون ذلك الحق تحت رعايتها ويوجب التداخل الى هذا الحد في حياة الافراد الخصوصية تكون مهيأة بالطبع الى قبول مذهب الاشتراكيين والعمل بما جاء فيه . هكذا

تدرجت تلك الامة في مباحثها طالبةً حلاً لمسئلة الفعلة فوصلت الى وجوب مساعدة الحكومة لكل فرد بذاته وانه ينبغي تغيير نظام الاجتماع ذاته ولم تطلب الدواء من همة كل واحد بالذات . واذا تأملنا وجدنا ان هذه المبادئ التي قرأناها في قانون البروسيا المدني وهي التي يجاهر بوجوب اتباعها ملوك البروسيا واميراطرة المانيا ويعملون هم بها تأييداً لسلطتهم المطلقة هي بعينها مبادئ الاشتراكيين ولا فرق بينهما الا ان الاشتراكيين اتخذوا تلك المبادئ صيغاً تجري على ألسنتهم ومطالب قالوا انها هي مطالب الانسان اي الامم

ولقد كانت الطبقات الوسطى وطبقات الاشراف مستعدة لقبول هذه الاوامر كالطبقات النازلة فان الافراط في الجندية وبلوغ الادارة ذلك الحد العظيم من الجسامة والاتساع عطل في هاتين الطبقتين وظائف العمل اولاً ثم انتهى فجعلهما يعتبران الحكومة مصدر كل شيء في حياة الامة . وهم مستعدون لذلك اكثر من نظرائهم في فرنسا لان تعدد الثورات عندنا اضعف كثيراً من سلطة الحكومة وان كانت الجندية والادارة سواء عندنا وعندهم . ولا شك في ان القابضين على زمام الاحكام لا يسوسون الامة اليوم كما كانت تساس ايام الملك لويز الرابع عشر

ومما تقدم يتبين لك ان السبب في ان الامة الالمانية صارت بمقتضى حكم الزمان منبعاً لمبادئ الاشتراكيين هو تأخرها قرناً كاملاً عن بقية امم الغرب الاوربي في سبيل الترقي

ويتأيد هذا اذا ثبت ان مذهب اولئك القوم انما ينتقل الى غير تلك البلاد منها وبواسطة الالمانيين انفسهم واثبات ذلك امر سهل يقوم بتتبع

سير المذهب في البلاد الاخرى

في فرنسا كان مذهب الاشتراكيين خاملاً الى سنة ١٨٨٦ كما جاء في كتاب (وانترير) المسمى (مذهب الاشتراكيين العام) صحيفة ١٤٩ نقلاً عن احدى جرائد الاشتراكيين الالمانيين اذ قالت متأسفة (يتقدم مذهب الاشتراكيين تقدماً حقيقياً لكنه بطيء)

ومن ذلك الحين اخذ احزاب ذلك المذهب في الظهور والاستقلال والنمو وكان القائم بحركة النمو على الخصوص انصار مذهب (كارل مركس) الالماني . واهم الرؤساء فيهم رجلان موسيو (جول جيزد) وموسيو (لافارج) وكان يطلق عليهما اسم مركستيين نسبة الى ذلك الرجل لاجتهادهما في ادخال مبادئه التي وضعها في كتابه (راس المال) بالبلاد الفرنساوية . ومن المعلوم ان موسيو لافارج النائب عن مقاطعة (ليل) سابقاً كان مصاهراً لذلك الاشتراكي الشهير لذلك لما نجح مؤتمر المركستيين في باريس سنة ١٨٨٩ صاح الاشتراكيون في المانيا طويلاً باصوات الفرح والانتصار . وفي هذا المؤتمر صرح موسيو (جيزد) بين تصفيق سامعيه بان مذهبه انما هو مذهب الاشتراكيين الالمانيين (راجع كتاب (وانتر) المذكور صحيفة ١٧٤)

ثبت اذن ان مذهب الاشتراكيين في فرنسا مأخوذ عن مذهبهم في المانيا وانه يسمى باسم احد الالمانيين وانه ينتسب جهاراً الى المانيا

وفي بلاد البلجيك اختلط مذهب الاشتراكيين بمذهب الفوضويين والمتطرفين وبقي زمناً طويلاً تتجاذبه عوامل الخلف والنزاع ولم يخلص ويستقل الا بعد جهد وعناء . وفي ابان استقلاله رأينا اثنين من رؤسائه في

المـانيا وهما موسيو (بيبيل) وموسيو (بيرنستين) جآءا الى البلجيك على الخصوص ليرشدا هذا الضبو النـاشيء الى الطريق المستقيم وكان لهذا التداخل تأثير اثبته احد مؤرخي مذهب الاشتراكيين هو (واتر) صحيفة ١٢٢ حيث قال (كان مذهب الاشتراكيين في البلجيك منقسماً على نفسه بغير نظـام فاصبح اليوم في نوع من الترتيب والانضمام على نسق المذهب الالمـاني)

والذي ادخل مذهب الاشتراكيين في بلاد هولنـده رجل كان من رعاة الكنيسـة وهو (دوملا نيوڤانهويس) وقد سافر هذا الرجل منذ ثلاث سنين الى برلين (ليتعلم من الاشتراكيين الالمـانيين طريقة عملهـم في الانتخابات) وهذا الامر وحده كاف في بيان ان المذهب في هولنده مستمد من المانيا حتى انهم لا يقتصرون على الاخذ بمبادئهم بل يأخذون عنهم ايضاً كيفية اعمالهم في الانتخاب

وهذا حال بولونيا فلما عقد مؤتمر الاشتراكيين في باريس سنة ١٨٩٠ كان النائب فيه عن اخوانهم في بولونيا سيدة يقال لها (جانكويسكا) وقد جاء في تقريرها عن اهل حزبهـا (انهم يجتهدون دائمـاً في تقليد اخوانهم الالمانيين على قدر الامكان في طرق نشر المذهب وكيفية السير واثارة الافكار) فالمانيا هي صاحبة الصوت ايضاً في بولونيا

اما الروسيـا فلم يكن لمذهب الاشتراكيين فيهـا من الرسل الا المدميون والفوضيون حتى هـذه السنين الاخيرة غير ان الحـال تبدل منذ بضعة اعوام كما ذكر ذلك في مؤتمر باريس فكان للروسيا مندوبان اثنان فيه

احدهما (لاوروف) الثوروي الشهير القديم ومن قوله في ذلك المؤتمر ان الثورة في الروسيا تقترب كل يوم من حزب الاجتماعيين وان حزبها (يتقرب الى مذهب الاشتراكيين الالمانيين ويعمل على طريقتهم) هذا وقد نشر موسيو (بايكانو) احد زعمائهم في الروسيا كتاباً هو في الحقيقة مذهب كارل مركس بتمامه واسس حزب الاحرار الاجتماعيين الروسيين جريدة سماها باسم اشهر جرائد الاشتراكيين في المانيا ونقل عنه الكلمة التي اتخذها شعاراً وهي (يا ايها التعساء من كل بلد ألا فاتحدوا) وكان ظهور تلك الجريدة الروسية في (جنيف) سنة ١٨٨٨ والغرض منها كما جهرت به نشر مبادئ مذهب الاشتراكيين الالمانيين في الروسيا

ومذهب الاشتراكيين لا يزال نبتاً حديثاً في بلاد رومانيا ومع ذلك فقد قال نائبها في مؤتمر باريس وهو (ماني) القائم بالحركة في تلك البلاد ما يأتي (يتقدم مذهب الاشتراكيين حتى بين الفلاحين واكبر المساعدين له هم المعلمون في مدرسة (جاسي) وطلبتها لانهم ترجموا كتب كارل مركس و (آنجل) و (لاسال) وهؤلاء هم اقطاب المذهب الالماني

وقال موسيو (وانتر) (ولد مذهب الاشتراكيين في سويسرا من المذهب الالماني وكان بينهما على الدوام روابط محكمة العرى فانا نشاهد الاشتراكيين السويسريين بجانب اخوانهم الالمانيين في كل مكان يتقابلون في المجتمعات ويتحدون في الادب والمبادي ويتضافرون في مقاوماتهم ويتعاونون على ما يطلبون) ولا عجب بعد هذا من ان الاشتراكيين في مدينة (بال) احتفلوا في الرابع من شهر ستمبر بتذكار وفاة (لاسال)

الاشتراكي الالماني وانهم عقدوا في اليوم الثاني اجتماعاً عمومياً دعوا اليه موسيو (ليبكنخت) وهو ايضاً اشتراكي الماني لينشر بينهم مذهب كارل مركس . وللاشتراكيين السويسريين جرائد خاصة بهم الا ان قائدهم لا تزال تلك الجريدة الالمانية الشهيرة فانها روح مجتماعاتهم في (زوريخ) و (انترتور) و (آرو) و (بال) و (فروانفلد) و (صان غال) و (شافوز) و (كوار) و (زوج) و (نيوشاتيل) و (لوزان) و (جنيف) وغيرها . وعليه فسويسرا هي اذن ضحية من ضحايا المذهب الالماني

كذلك يأخذ التليان مذهبهم عن المانيا ويكفي للدلالة عليه ان نذكر التلغراف الذي بعث به اعضاء نادي المتطرفين في رومه باسم الاشتراكيين التليانيين الى الاشتراكيين الالمانيين بمناسبة فوزهم في الانتخابات وهو (ان النادي .... يسلم على الاشتراكيين الالمانيين الذين هم دعاة الثورة الجديدة طلباً لتقرير العدل الاجتماعي ولا يزال الاحرار التليانيون يذكرون مفتخرين ما انبأهم به (منزيني) منذ سنين عديدة مع ما كان عليه من كراهة مذهب كارل مركس وهو ان المانيا الجديدة وايتاليا الجديدة هما اللتان يقومان في المستقبل بحل المسئلة الاجتماعية)

ويتضح مما تقدم باجلى بيان ان المانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وانها هي التي تبثه وتنشره في الامم الاخرى

ويؤخذ منه ايضاً ان جميع البلاد لا تقبل مذهب الاشتراكيين بدرجة واحدة فنها ما تكون ارضها مستعدة لنمو بزوره كالتي ذكرناها ومنها ما ليس كذلك كبلاد نرويج وانكلتره والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التي

احتلها العنصر الانكليزي السكسوني

اما كون بلاد النرويج غير صالحة لانتشار المذهب فثابت من رسالة نشرتها جريدته الالمانية الشهيرة وفيها يشكو المكاتب مر الشكوى من ذلك الحال ويعزوها لما عليه تلك البلاد من التمسك الشديد بالدين وهو تعليل ضعيف لاننا رأينا في المانيا كثيراً من الكاثوليك والبروتستانت وفي مقدمتهم رعاة الكنيسة قد اعتنقوا مذهب الاشتراكيين

وما من شيء يستوقف النظر كحيرة مؤرخي هذا المذهب عند الكلام عليه في انكلتره فانهم لا يجدون او يكادون ان لا يجدوا شيئاً يذكرونه عنه في تلك البلاد اللهمّ الا ما قاساه موسيو (اقلين) من الاتعاب ـ هو ايضاً صهر لكارل مركس ـ التي ذهبت ادراج الرياح (وهنا ايضاً دليل على وجود الاصبع الالماني) وكذلك اتعاب الشاعر (مورّيس) ومسيو (هندمان) وهما رجلان خرجا عن تقاليد قومهم فلم يلتفت اليهما احد الا ساخراً . وقد اتت الرسالة السنوية التي ينشرها الدكتور (لودويج ريشتر) في كل سنة عن حالة المذهب في جميع البلدان خالية من ذكر انكلتره والسبب الذي ذكره لذلك هو (انه لا يوجد شيء يقال) وحاول موسيو (ويزيوا) في كتابه (حركة مذهب الاشتراكيين في اوروبا) صحيفة ٢٠٩ بيان علة عدم انتشاره في انكلتره فقال (ان الانكليز شخصيون بفطرتهم يريدون ان يتركوا لانفسهم ليحصل كل واحد منهم رزقه بالطريقة التي يرضاها وطباعهم تأبى ان يتجندوا تحت اي لواء كان وان يتنازلوا عن استقلالهم الذاتي طلباً لعمل مشترك وهذا فيما أرى احد الاسباب التي تجعلهم لا يميلون

(٢١٨) الانكليز ابعد الامم عن مذهب الاشتراكيين

الى مذهب الاشتراكين)

واذا انتقلنا الى الولايات المتحدة رأينا كذلك ان هذا المذه
يدخل بين العنصر الانكليزي السكسوني لانه يقاومه كما يقاوم كرم
البلاد آفة العنب (فيلوكسرا) وليس له في تلك البلاد احزاب الأمر
الارلنديين وعلى الخصوص من الالمانيين كما شهد به موسيو (واترير
كتابه (مذهب الاشتراكين العام) صحيفة ٢٣٣ حيث يقول (انا ء
هذا الفصل للكلام على مذهب الاشتراكين في امريكا وكان حقه ار
يعنون بمذهب الاشتراكين الالمانيين في امريكا لان احزابه في تلك ا
واخص القائمين به فيها لا يزالون من الالمانيين ومن رؤسائهم من كار
عضواً في مجلس النواب الالماني ولقد كان كارل مركس يرجو النجاح لمذ
في الدنيا الجديدة واشار بنقل مجلس ابحاثه الى تلك البلاد نخاب رجا
وقال احد الاشتراكين الالمانيين يصف المذهب في امريكا (ان
الحزب لا وجود له الا بالاسم لان اصحابه لا يمكنهم انّى كانوا ان يـ
حزباً سياسيّاً . والمذهب نفسه يخال انه اجنبي في الولايات المتحدة
كان الى عهد قريب لا يقول به غير المهاجرين من الالمانيين الذين
يتكلمون بلغتهم ولا يعرفون اللغة الانكليزية الا قليلاً ثم ان لهؤلاء المهاج
رأياً مخصوصاً في وسائل انتشال الفعلة من التابعية التي هم فيها لا يفهم
النذر اليسير من الفعلة الاميركيين) . ولقد اجتهدوا كثيراً في استمالة ا
امريكا الى مذهب الاشتراكين فبعثوا اليهم كثيرين من الالمانيين نذ
من بينهم موسيو (ليبكنخت) واحدى بنات كارل مركس التي تزو

موسيو (اقلين) فضاع كل ذلك سدى ورفضت جمعيات الفعلة الانضمام الى حزب الاشتراكيين وخسر الالمانيون ما بذلوا من الفصاحة وذلاقة اللسان . ثم عمد بعض الاشتراكيين الى الانضمام في سلك بعض طوائف الفعلة العظيمة التي بلغ اعضاؤها اكثر من مليون من النفوس وحسبوا انهم بذلك (يتوصلون الى نشر مبادئهم شيئاً فشيئاً ولكنهم لم يفلحوا) وقال لهم رئيس الطائفة الاعظم ان رغبته موجهة الى (تطهير طائفته من تلك العناصر الثوروية المتطرفة) وعرض بعضهم رأياً مبناه الاقرار على مجرد الميل الى استعمال الوسائل الثوروية فرفض الطلب بمائة وواحد وخمسين صوتاً ضد اثنين وخمسين

كذلك لم ينجح الاشتراكيون لدى حزب الفعلة المجتمعين اذ اقصيت منه جميع اللجان التي تلوثت بمذهبهم بقرار صدر من الجمعية العمومية في (سيراكيز) والى الآن لم تنجح المساعي في نشر جريدة واحدة للاشتراكيين باللغة الانكليزية وللمذهب عشر جرائد كلها باللغة الالمانية وهو امر فيه نظر عظيم .. ومن هنا يتبين السبب في انه لم يأتِ في مؤتمر الاشتراكيين الاخير بباريس من امريكا الا المحازبون الالمانيون واضطر المندوب المقرر وهو موسيو (كيرشنر) الالماني ان يقول في تقريره (ان الفضل في كون الفعلة الامريكيين اخذوا يدركون معنى التحزب راجع بالاخص الى المهاجرين الالمانيين فانهم لم ينثنوا عن ارشاد تلك الجموع التي لا يزال الجهل يعمي بصائرهم وتنظيم شتاتهم

ثبت اذن ان القائمين بنشر مذهب الاشتراكيين في بلاد الانكليز

في بلاد الانكليز السكسونيين هم الالمانيون وانهم لا ينجحون مهما اجتهدوا وثابروا وهو امر جديد لم نعهده فيما مضى وهذا هو ما تمتاز به تلك البلاد على التي ذكرناها من قبل فهم فريق قائم بذاته اهم صفاته انه نفور من مذهب الاشتراكيين

والسر في هذا الاستثناء ان نشأة العنصر الانكليزي السكسوني استقلالية محضة كما ان نشأة العنصر الالماني اتكالية بالمرة و بينما نفوذ حكومة الالمانيين يمتد امتداداً فوق الحد الذي ينبغي حتى امات الهمم النفسية ومحق حركة القوى الذاتية نرى حكومة الفريق الثاني لم تتمكن من الاستيلاء على سلطة كبرى بل وقفت على الدوام عند حدها بما تلاقيه من اتحاد القوتين حياة كل فرد بذاته واستقلال كل قرية بخصوصها . فالمانيا هي اليوم الوسط الذي بلغت فيه اثرة الحكومة منتهاها و بلاد الانكليز السكسونيين هي الامم التي عاش افرادها مستقلين وحكموا انفسهم بانفسهم . ومن البديهي حينئذٍ ان لا ترى الاولى سبيلاً لحل المسئلة الاجتماعية في غير تداخل الحكومة وسن اللوائح وجعل آلات العمل مشتركة بين جميع الناس من اهلها وان الثانية لا تطلب النجاة الا من همم الافراد وترفض كل الرفض ذلك الاشتراك الجديد الذي يعرض عليها

ولست في حاجة الى تكرار الاسباب التي اوجبت هذا الاختلاف العقلي بين الامتين ولكني احيل القراء على ما كتبته عن ذلك مفصلاً في الجزء الثالث صحيفة ٥٥٨ وما بعدها والجزء الرابع صحيفة ١٣١ وما بعدها من مجلة العلم الاجتماعي واكتفي بان الاحظ ان اثر هذا الاختلاف في النشأة

يتناول الموضوع الذي نحن فيه

ثبت مما قدمناه ثلاثة امور : ان المانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وان الالمانيين هم الذين ينشرون مذهب الاشتراكيين في الدنيا وان مذهب الاشتراكيين لا ينتشر في الامم التي نمت فيها همم الافراد الذاتية وقل تداخل الحكومات

ولم يبقَ عندنا الاَّ البحث فيما اذا كان مذهب الاشتراكيين الالمانيين هو الافضل في حل مسئلة الفعلة ام استقلال الانكليز السكسونيين وفيما هو الحل الذي يدخره المستقبل

واني ارجو من القراء ان يعتقدوا بان نظام الاشتراكيين ليس بالجديد ابداً كما يميل الى اعتقاده اولئك الذين ادعوا انهم اخترعوه بل اقول انهُ قديم قِدَماً عظيماً حتى انصرم عمره وانقضت ايامه وصار من السهل الوقوف على ما يأتي منهُ في المستقبل بمعرفة ما نتج عنهُ في الماضي

ونحن اذا جردنا المذهب من تلك الالفاظ المقمرة ورجعنا بهِ الى صورته الحقيقية رأيناه انما يتقهقر بنا الى ما كانت عليهِ الامم الغابرة تقهقر البسطاء ان لم اقل تقهقر الجهلاء وسنرى ان كان هذا النظام يليق بالمستقبل ولنقتصر الآن على العلم بانهُ كان نظام الزمن الذي مضى وانقطع

يريد الاشتراكيون كما عرفنا ان تكون الملكية وآلات العمل وهي وسائل العيش في الدنيا مشاعاً للمجموع وان المجموع يكون هو الرئيس الاكبر وهو الذي يوزع ما تحصل من العمل على كل عامل بحسب شغله او بحسب حاجاته ولم يهتدوا تماماً الى الاتفاق على طريقة التقسيم

هذا هو مثال الجمعية التي يطلبها الاشتراكيون وفي ظني انهُ غير
عندنا فهو الذي ساد على الامم في الاعصر الاولى ومع ما كان يوج
تلك الامم من اوجه الافتراق والاختلاف كانت كلها قائمة على ا
المشتركة

فكانت الارض عند بعضهم كالرعاة الرحل ملكاً لجميع السكان
الجميع يستغلّونها اقساماً بحسب العائلات والقبائل التي يرجع نسلها الى
واحد . كذا كان حال اقوام الزبور وقبائل العرب والمغاربة وغيرهم فلما اس
تلك العشائر النقالة في نواحيها اقامت كل عائلة وكل قبيلة بالطبع كما
من حيث شيوع املاكها والاشتراك في منافعها . وكان هذا شأن جميع
القديمة كالعبرانيين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم ممن كانوا يقسمو
الاراضي بين الجميع كل حين . ومن الامم من اسلمت ملكية ارضه
الوازع وصار هذا سيداً عاماً مكلفاً كما يتمنى الاشتراكيون بتوزيع
بالقسط بين الناس وتقسيم ثمراته عليهم وايجاد معاش للارامل والن
واكبر مثال لهذا النظام هي مصر ايام الفراعنة واني اكتفي هنا بذكر
هذه المسائل المعروفة عندنا وارجع القراء ان ارادوا زيادة الشرح الى ما
في مجلة العلم الاجتماعي (رسالة الفنون ايام الرعاة ورسالة الزراعة بالاش
جزء اول وثاني وثالث وعاشر ورسالة مصر القديمة لموسيو (بريڤيل
تاسع صحيفة ٢١٢ و ٥٤٩ وجزء عاشر صحيفة ١٦٠ و ٣٣٨ وجزء حادي
صحيفة ٨٠ و ٢٥٢ وجزء ثاني عشر صحيفة ٦٩ وغيرها)

على ان نظام الروكية ليس خاصاً بالامم السالفة بل ظل موجود

بعض جهات المسكونة الى يومنا هذا ولا يزال سائداً بين اهل اسيا وافريقا الشمالية بل وجميع بلاد اوروبا الشرقية . فمن المعلوم ان القرية التي تسمى عندهم (مير) عبارة عن روكية عظيمة هي التي تملك الاراضي وتقسمها بين روكيات العائلات في كل حين بحيث لا يكون تحت يد كل عائلة من الاطيان الاَّ بنسبة عدد الذين يعملون من اعضائها فالشغل مشترك كملكية الاراضي

ثبت اذن ان الروكية ليست حلاً جديداً بل هي موجودة من يوم خلق الله الدنيا ولا يزال بعض الامم يعيش فيها

ودفعاً لما عساه يقال من انهُ حل مرضي ينبغي لنا نتوسع في البحث حتى نرى الاشياء كما هي وأبدأ باستلفات القراء الى المشاهدتين الآتيتين

الاولى علمنا من التاريخ ان احدى امم الازمان السابقة تقدمت كثيراً على البقية وانتهى بها التقدم ان سادت على من سواها واعني بها الامة الرومانية ومما يستوقف النظر ان الامة الرومانية هي التي تمكنت من التخلص من الروكية بدرجة لم تصل اليها امة سواها ولذلك اسباب شرحها موسيو (بريڤيل) في مجلة العلم الاجتماعي الصادرة في شهر يناير سنة ١٨٩٢ ضمن رسالة على الرومانيين في مصر القديمة . نعم انها لم تخلص منها تماماً لان ذلك الحظ لم يتوفر لامة من امم الازمان القديمة غير انا لا نجد امة عظمت شأن الملكية الشخصية وبالغت في احترامها مثل الامة الرومانية وفيها وصلت اثانية الانسان الى اعظم نمُوّ اتيح لاهل تلك العصور وفيها صار الانسان مسئولاً عن نفسه وعن عمله وفيها عرف الانسان انه لا ينبغي لهُ الاعتماد

الا على نفسه وتأسست الملكية الخصوصية التي هي نقيضة الملكية المشت
وصار للملكية الافراد على الارض من الاعتبار ما وصل الى حد العبادة
انهم جعلوا حدود الاملاك من الامور المقدسة وقالوا بوجود اله يسمو
الحد واقاموا اعياداً دعوها الحدّية وتقرر ان الحد متى تقرر لا يجوز نق
وقد جاء في قصصهم ما يدل على هذا حيث نسبوا الى (جوبيتير) ء
الالهة انهُ اراد ان يبني لهُ هيكلاً على جبل (كابيتولان) ولكنهُ لم يتمَ
من نزع ملكيته من مالكه اله الحد وعدَّ الذي يهدم الحد او يزحزحه خا
على الله ومارقاً في الدين وجاء في قوانينهم القديمة ما يشير الى ان الرجل
اصاب الحد بطرف محراثه يصير ضحية هو واثواره لالهة النيران

وعلى هذا فالامـة التي ارتقت وسمت فوق كل الامم في الاء
البعيدة عنا كانت اقلهم اتكالاً

المشاهدة الثانية   ان استقرأ احوال الامم الحاضرة يدلنا على ان
لا تزال النشأة الاتكالية فيها شديدة هي اعظمها تأخراً واقلها مالاً واض
جانباً قد سبقتها في كل شيء جميع الامم التي نمت فيها الملكية الشخصية و
فيها تأثير المرء منفرداً وذلك امر لا نحتاج فيهِ الى دليل غير النظر في احـ
الامم الشرقية التي هي الاتكالية والامم الغربية التي هي الامم الاستقلا
على اختلاف بينها حيث تبدو لنا الاولى غارقة منذ قرون عديدة في سبـ
عميق وتبدو لنا الثانية في مظهرها العظيم وقد ابلغت العمل الى الـ
القصوى ورفعت قدر الانسان الى اعلى الدرجات وجعلتنا حائزين
افضلية لم تنلها امم قبلنا مما نفتخر بهِ ونتيه على الملا . وما كنا لنعرف سـ

اعجابنا قبل قيام العلم الاجتماعي

واذا اجلنا النظر رأينا ان اكبر امم الغرب همة في العمل وارقاهم في زراعتها وصناعتها وتجارتها واشدهم بأساً في التنافس الذي تخشاه الامم الاخرى واسرعهم الى احتلال الاقاليم التي لا تزال خالية في الدنيا هي تلك الامة الانكليزية السكسونية التي لا تمارى والتي ضاقت بها بلاد انكلتره فتدفقت في الجهات الاربع وترعرع في امريكا غصنها القوي فكانت الولايات المتحدة وكل يرى هذا حتى الذين لا يبصرون . ومن المعلوم ان الامة الاستقلالية الحقيقية بين امم الغرب هي الامة الانكليزية السكسونية وانها ابعدهم عن النشأة الاتكالية وانها هي التي بلغت عندها همم الافراد منتهاها ووصلت سلطة الحكومة الى ادناها

هكذا كانت الامتان اللتان تمكنتا من عناق العالم في الزمنين امة الرومان في العهد القديم وامة الانكليز السكسونيين في هذا الزمان ابعد الامم عن الاتكال وما هذا الاتفاق بصدفة فان الصدفة محال وانما هو لازم من لوازم نشأة الاستقلال والاقتناع بما نقول سهل ميسور

ولقد يمكننا ان نلخص الموضوع في كلمتين : ما اعتمد الانسان على غيره وانتظر المعونة من المجموع الا وقلت همته وقعد عن الكد بنفسه ليكسب معيشته . وما عرف الانسان الا انهُ لا اعتماد له الا على نفسه ولا معونة الا من عمله الذاتي الا وكبرت همته واشتد على الكد ساعده ليحصل رزقه ويترقى على الدوام

حال الافراد في الامم الاتكالية كحال موظفي النظارات ومستخدمي

المصالح وهي حال لا تربي في المرء ميلاً الى العمل كما هو معروف لانه نظام يقتل في الانسان ملكة العمل وتقدير فوائده العظمى . فاذا تناول ذلك النظام امة بتمامها انتشرت آثاره بحسبه واذا دام توارثه زمناً طويلاً من الآباء الى الابناء اشتد ظهور تلك الآثار على قدر مدته فتضعف القدرة على العمل نوعاً في الولد بعد ابيه ويشتد الضعف في بنيه وهكذا حتى يصل الجيل الاخير الى خمول ذلك الرجل الشرقي الذي لم يبقَ له من القدرة على العمل الا ما يحصل به القوت كيلا يموت جوعاً . ومهما قلبنا الحوادث وفتشنا في بطون التواريخ لا نستخلص غير نتيجة واحدة هي ان النشأة الاتكالية قد اضعفت الهمم في كل زمان وعطلت استعداد الافراد الى العمل وجعلت اهلها من الضعفاء المتأخرين فان الاتكال وسادة لينة تليق بمن يميل الى النعاس ولكنه ما كان يوماً بوقاً يقوم على صوته من رام النهوض

ولعل قوماً يقولون ان ذلك لمن احب الاشياء اليهم وانهم يفضلون النوم على القيام لان غاية المتمني في الحياة ان يستريح المرء مهما استطاع لا ان يشقى ما استطاع وانهم يرتاحون لخمول اهل النشأة الاتكالية ولا يبتسمون لذلك الكد والعناء التي تميه النشأة الاستقلالية . وانا ادرك هذا الاعتراض بل اقول ان فيه رفقاً وحناناً بالناس وليس فيه عيب الا ان ما يطلبون محال لسببين

الاول ان الاسباب الطبيعية التي تولدت عنها النشأة الاتكالية في الازمان الماضية لم تعد مؤثرة في هذه الايام ولا عامة كما كانت . فالاصل في وجود تلك النشأة حالة البداوة الاولى التي ظهرت في سهول آسيا الفسيحة

ذات الاعشاب الكثيرة حيث بدأت الانسانية في الترقي فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الاولى وادخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير الا على حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه فخضعت لسلطانها جميع الامم القديمة كما بيناه لانها كانت قريبة العهد بمولدها ولان تلك النشأة كانت لا تزال كما وجدت باقية في البلاد المجاورة لاعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم ان البداوة لم يعدلها ذلك التأثير على الامم خصوصاً في الغرب لانها بعيدة عنها زماناً ومكاناً ولوجود الامم الاستقلالية في الغرب من يوم ظهور الدين المسيحي لاسباب وظروف شرحت في مجلة العلم الاجتماعي ولا حاجة بنا الى تكرارها (جزء اول صحيفة ١١٠)

ثبت اذن ان السبب الاول المؤثر في وجود النشأة الاتكالية لم يعد صالحاً اليوم لغايته وانهم يريدون احياء تلك النشأة بسبب صناعي هو القهر اي سن القوانين اي تداخل الحكومة حتى تصير الرئيس الاعظم على الكل في المجتمع الاشتراكي الذي يتألف في خيال الاشتراكيين . وبديهي ان هذا الخيال لا يتحقق اللهمَّ الا اذا اصطدم مع طبائع الاشياء فغلبها وناطح جميع المنافع المتألبة طبعاً عليه فانتصر عليها لانه عبارة عن تجريد كل من كان في يده مثقال ذرة من الارض او يسير من آلات العمل مما ملك ولسنا نرى كيف الوصول الى هذا السبيل على فرض ان الناس كلهم سهل يلين لكل مطلب ولكن الاشتراكيين لا يتحيرون

هب انهم نجحوا ـ ولا ادري كيف انهم ينجحون ـ فادخلوا نظامهم الاشتراكي في البلاد التي لهم في هذه الايام بعض النفوذ بين سكانها

اذ ذاك تنتصب امامهم العقبة الثانية ولا غالب لها فتسد في وجههم الطريق سدًا مكيناً وهي السبب الثاني الذي بقي الكلام عليه

الثاني اذا تم فوز الاشتراكيين بما يشتهون لا يلبثوا ان يروا جميع نتائج النشأة الاتكالية قديماً وحديثاً بادية بين جموعهم الاشتراكية عملاً بسنة الملة بذاتها تنتج المملول بذاته ابداً . ويكون فعل تلك النتائج في الناس اشد لان النظام الذي يطلبه الاشتراكيون الالمانيون اقسى واحرج من الذي عرفناه عن زمن الفراعنة في الامة المصرية . هنالك يستولي الضعف بعينه على دعائم تلك الامم ويدخل الانحلال الى اعصابها الحيوية وهو الذي رمى بامم الزمن القديم بين يدي الرومان . نعم لسنا نخاف اليوم من الرومان الا انه يوجد في طريق الامم الاشتراكية خصم اشد بأساً واصعب مراساً وهو الجنس الانكليزي السكسوني الذي همّ بالاستيلاء على الدنيا بما اوتيه من نمو همة افراده الى الحد المستطاع . أصحيح بعد هذا ان الزمن مناسب لبث روح مذهب الاشتراكيين بين الامم

وكيف يخطر بالبال ان تلك العقول النيرة لا تجد من الاصلاح ما تشير به علينا الا نظام الشرق مع زيادة في القيود وتشديد في التعاليم وانهم يختارون لتقديم هذه المشورة ذلك اليوم الذي بلغت فيه قوة الغرب على الشرق منتهاها . اجل لن تبطئ عنهم نتيجة عملهم هذا وقد نبأنا بها التاريخ على ان ما يجري اليوم كاف للدلالة عليها

يجري اليوم ان امم الغرب تحتل سائدة امم الشرق وتنشيء فيها المستعمرات وتقيم الحكومات او تضمها الى املاكها ضماً لا تحتاج فيه الى مشورة

او استئذان . يجري اليوم ان تلك الامم الاتكالية اصبحت كانها خلقت ليحتلها قوم آخرون . والامة الانكليزية السكسونية هي التي تتقدم جميع الامم في هذه السيادة العامة فلو انا وضعنا انفسنا موضع امم الشرق لزدنا في سبق الانكليز السكسونيين علينا ولقدمنا اليهم فريسة اخرى . وليست الحرب سجالاً بين أمتين امة نمت فيها الهمة والاقدام بين افرادها وامة باتت فيها الهمم مضغوطاً عليها فتعطلت بل لا بد ان تستعلي الاولى على الثانية

أهذا هو الذي يخطر باحلام الاشتراكيين الالمانيين وهل يرون من انفسهم ميلاً الى ان يصيروا الى ما صار اليه هنود امريكا امام الانكليز من سكانها

ومع ما تقدم كله فلسنا ممن يقول بانهُ ليس في الامكان ابدع مما كان بالنظر الى الحالة الراهنة كما يذهب اليهِ فيما يظهر بعض الاقتصاديين . الاَّ ان خطأ الذين يسعون وراء حل مرضي للمسئلة الاجتماعية يأتي من الميل الى زيادة تداخل الحكومة والضغط على همم الافراد الذاتية والواجب العكس فان الحقيقة التي تبرهن عليها الحوادث هي انهُ يجب علينا ان نحذو على الدوام حذو الامم التي تقدمت على غيرها في الماضي وفي الزمن الحاضر لا بقوة السلاح بل بما هو اشد بأساً منها وهي قوة النظام الاجتماعي

ومن المشاهد ان هذا النظام هو اليق الاحوال لحل المسائل التي اختلف عليها المشتغلون بالعمل في جميع البلاد واعني بها مسئلة العملة التي يدعي الاشتراكيون باطلاً انهم عثروا على مفتاحها . والدليل على ما نقول

ان الامم الاستقلالية هي التي اصبح فيها عاملا العمل وهما السيد والفاعل في احسن الاحوال الموافقة لفض جميع المنازعات التي تحدث بسبب اتساع النطاق في المعامل الصناعية . ولا حاجة بي ان ابرهن على ان النشأة الاستقلالية تنمي بذاتها في الرؤساء الهمة والاقدام وتسودهم على الاعتماد على انفسهم وتربي فيهم ملكة استنباط المشروعات اكثر من النشأة الاتكالية بدليل الفرق بين امم الغرب وبين امم الشرق . ولا مشاحة في ان هذه الصفات المتعددة لازمة للنجاح في ادارة العمل بالنظر الى الظروف والاحوال الجديدة الدقيقة التي طرأت على الصناعة بعد اكتشاف مناجم الفحم . كما انهُ لامراء في ان مثال الرئيس الكبير ذي الكفاءة التامة والاقدام قد نمى وتقدم في الامة الانكليزية السكسونية اكثر مما عليهِ اهل الامم الاتكالية او التي تميل الى الاتكال وهذا التقدم هو الذي جعل لتلك الامة افضلية يخشاها الجميع في الصناعة

قالوا (وما الذي يفيد هذا في تحسين حال العامل وهو المقصود اولا وبالذات) والجواب على ذلك بسيط

فاول شرط في اطمئنان الفعلة على وجود ما يعملون فيهِ باكبر ما يمكن من الفائدة لهم ان يكون الرؤساء ذوي اهلية كافية لانجاح صناعتهم ولا شك في ان النظام الذي يربي في الرؤساء ذلك الاستعداد يكون مناسباً لتحسين حال العمال اذ متى نمت صناعة الرئيس تيسر لهُ ان يدفع لعماله اجوراً طيبة وسهل عليهم تخصيص نصيب من اموالهم لايجاد المنشئات التي تدفع عن رجالهم جوائح الزمان فتعينهم اذا احتاجوا وتكفل لهم رزقهم اذا

اقعدوا وهكذا وذلك لايتيسر للرؤساء الذين ضعف استعدادهم وقل اقدامهم وصعبت عليهم الاعمال .

يقال ان قدرة الرؤساء على القيام بتلك الاعمال لا يترتب عليها انهم يقومون بها وقد يجوز كما شوهد انهم ينتهزون نجاحهم في اعمالهم فرصة لزيادة كسبهم غير ملتفتين اقل التفات الى تحسين حال العمال

وهو اعتراض وجيه غير انهُ يتيح لنا في الجواب عنهُ ان نبين افضلية النشأة الاستقلالية على النشأة الاستقلالية لانها مع عظمها لم يلتفت الباحثون اليها كما ينبغي وتلك الافضلية حاصلة عند الفعلة كما هي ثابتة للروساء .

النشأة الاتكالية تجعل العامل غير اهل لاي حركة ذاتية عظيمة دائمة بل تصيره آلة صماء كما كان عامل الزمن القديم وكما هو حال العامل الشرقي في هذه الايام وكما هو العامل الالماني على التقريب فان هذا الاخير اصبح آلة في يد المقلقين يجندونه تحت لوائهم بسهولة ليس لها مثيل لا فرق بين المقلق الاشتراكي الثوروي او المحافظ او الانجيلي او الكاثوليكي او غيرهم ولا قوة في الظاهر لرؤساء المذهب الالماني الا بهذا الاستسلام فقد لانت في ايديهم طينة العمال فيصورونهم بالشكل الذي يريدون ويسوقونهم كالاغنام حيث يشاؤن وهذا هو السر في اندهاشهم من استعصاء الامر عليهم يوم جاؤوا الى انكلتره والولايات المتحدة لنشر مباديهم بين تلك الامم واندهلوا لانهم وجدوا الفعلة لا يسمعون لهم نداء وتلك هي دهشة الرجل الاتكالي الذي يصطدم في طريقه مع الرجل الاستقلالي . لذلك وصف احد

اولئك المقلقين عمال الانكليز السكسونيين محتقرًا بانهم (قوم لا يبصرون) واليك ما كتبه موسيو (ويزيوا) احد مؤرخيهم في كتابه (الاشتراكيون في اوروبا صحيفة ٢١١) قال (لا يوجد في اوروبا بلد تحصل العملة فيه على الذي نالوه في انكلترا لتحسين حالتهم فانهم اكثروا فيها صناديق الاقتصاد وشركات التأمين وجمعيات التعاون واصبحوا بطريقتهم المسماة (ترادسينيون) من اهل الاموال ولكنهم حصلوا كل هذا بغير مذهب الاشتراكيين ومن دون ان يفكروا في تغيير النظام الاجتماعي الحاضر) ومعناه انهم حصلوا كل هذا بدون ان يرضوا بقيادة المقلقين والمتطفلين على السياسة وهذا هو ذنبهم الذي لا يغفره اولئك المقلقون

والذي يحب الوقوف على ما اتى به العملة من الانكليز السكسونيين في انكلتره والولايات المتحدة بانفسهم وبمحض قوتهم الذاتية واقدامهم وبدون ان يطلبوا معونة الحكومة بل مع رفضهم تلك المعونة ينبغي لهُ ان يقرأ تاريخ جمعياتهم المسماة (ترادسينيون) المذكورة فلا شيء افيد منهُ ولا اقطع حجة على تقدم العملة من اهل النشأة الاستقلالية تقدماً يفوق الوصف وعلى ما توجده تلك النشأة فيهم من الاستعداد للتقدم والترقي

ومما يلاحظ في تلك الجمعيات هو انها متشبعة باستقلالها كامتها وانها ليست كالجمعيات الالمانية التي تتوق الى تعميم نظامها بين العملة عند جميع الامم او عند امتها وترمي الى تغيير الهيئة الاجتماعية بتمامها وانما هي شركات استقلالية تتألف كل واحدة من فريق مخصوص يجمعها مقصد معين محدود ولا تتألف منها جمعية هائلة يقودها بعض المقلقين ويستعملونها في اقامة

مباني مجدهم بل هي جمعيات متعددة مستقلة عن بعضها او لا يربطها الا رباط صغير . و يشعر الانسان اذا فكر في نظام تلك الشركات انها وجدت في امة تميل الى الاستقلال والاطلاق لا في امة تعشق التقييد والاستبداد والتاريخ شاهد على ما نقول فقد نشر موسيو (كاستلو) رسالة في (جريدة الاقتصاديين) الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩١ لخص فيها كتاب موسيو (هويل) كاتب سر مؤتمرات هذه الشركات الذي سماه (النزاع بين العمل ورأس المال) ومما جاء فيها (لقد جاءت شركات ترادسينيون للصناع الانكليز مدرسة تهذيب واخلاق وعوناً على الترقي ولا تزال حافظة لاستقلالها النوعي وبعبارة اخرى لم تخرج عن تقاليد النشأة الاستقلالية - يلاحظ ان الكلمة بذاتها وردت في الرسالة - التي قامت حجاباً بينها وبين انضمامها الى جمعية واحدة تدخل تحتها جميع الهمم الذاتية ومكاسب المشتركين كلها فخابت بذلك كل المساعي التي بذلت في هذا السبيل) وقد بلغ اعضاء تلك الشركات في انكلترا وحدها مليوناً ونصفاً وبلغ دخلها مليونين من الجنيهات الانكليزية اعني خمسين مليوناً من الفرنكات وعندها مبلغ احتياطي مثل ذلك بالتمام . تلك هي قوّة العمال الهائلة التي اوجدها الاقدام الذاتي فلتأتِ لنا المانيا بمثل هذا

ولا تنقص قوة العمال في الولايات المتحدة عن ذلك كما بيناه عند الكلام على رفضهم الدخول في مذهب الاشتراكيين

ومما يجب الالتفات اليهِ ان تلك القوة العظيمة لم تكن قائمة في وجه (الهيئة ذات رأس المال) كما يقول الاشتراكيون منضمين بل الغرض الوحيد

منها تحسين حال العمال فعلاً بالمعارضة في تخفيض الاجور واقتصاد جزء مما يكسبون لتخفيف البطالة التي قد تأتي عفوًا وكل ذلك من دون ان يمدوا ايديهم الى طلب مساعدة الحكومة ابدًا

امر مجلس النواب باجراء تحقيق عن حالة الفعلة فقرر اغلب رؤسآء العمل ـ رؤسآء العمل هل انتم سامعون ـ ان العمال الذين من تلك الشركات هم امهر في عملهم واخلص في شغلهم من بقية العمال الذين معهم . قال المؤلف السابق (وعلى العموم فانهم اكتفوا باستعمال الطرق الشرعية للحصول على ما بهِ يصيرون جمعاً من شأنهِ انمآء الهمم واحترام المرء لذاتهِ ولم يطلبوا في الوصول الى غرضهم من الحكومة الا ان ترفع عنهم القيود التي كانت تغلهم عن الترقي في هذا السبيل دون ان يلتمسوا منها منةً او معونةً . وقد مضى على تلك الشركات نحو قرن من السنين ولم يحيدوا عن طريقهم هذا لانهُ الطريق الجد وبهِ الفخار ولهُ الوقار وهو الذي حمل اقلّ الناس ميلاً اليهم على ان يقوموا لهم بواجب الاحترام ذلك بانهم نخبة العمال وقد عرفوا بما عرفت بهِ الامة البريطانية من ثبات الاخلاق والبقآء هادئة في مباديها)

هكذا تمكنت النشأة الاستقلالية من ايجاد رجال بين رؤسآء وعمال هم اقدر الناس بانفسهم على حل المسئلة الاجتماعية

والآن نفرض ـ والامر واقع لا شك فيهِ ـ ان بعض الرؤساء لا يدركون حقيقة مصلحتهم فيبتزون اموال الفعلة ويأكلون حقوقهم بالباطل ويعتبرونهم كآلات يستعملونهم متى شاءوا ويتركونهم متى شاءوا ويحملونهم ما لا طاقة لهم بهِ من الاعمال ولا ينقدونهم الا الزهيد من الاجور ولا

يحتاطون اقل احتياط لمنع البطالة ومعونة الشيوخ على مصائب الدهر . ألا يكون الفعلة من اهل النشأة الاستقلالية اعظم استمداداً واكبر قوةً وأشد بأساً لاسترداد حقهم المسلوب اضعاف اضعاف ما عليه الفعلة الاتكاليون . انهم اقوى لان قوتهم تأتيهم من انفسهم ولانهم يلاقون مايعترضهم من الصعاب بالمقاومة الذاتية مباشرة وهم ناجحون . ان اجحف بحقوقهم في امر معين وجدتهم يشكون شكوى معينة ويطلبون الانصاف بما لا يخرج عن حد المعقول والامكان لا كما يفعل رؤساء الاشتراكيين من سرد المبادي ورص القواعد والقاء الخطب المهيجة ونشر الرسائل في الجرائد وتحضير المشروعات الخيالية التي يطلبون فيها قلب نظام الهيئة الاجتماعية بتمامها والفعلة في خلال ذلك يموتون جوعاً

لذلك نقول ان انكلتره والولايات المتحدة اسبق الامم في حل مسئلة الفعلة خصوصاً بالنظر الى من كان منهم استقلالياً محضاً وهؤلاء يجتمعون تحت لواء شركات (ترادسينيون) واما الفعلة الذين هم اقل من اولئك فلا تزال المسئلة دقيقة بالنظر اليهم في هذين البلدين وكذلك عمال الحرف الصغيرة التي لا تقتضي فناً مخصوصاً كالحمالين في مخازن لوندره العمومية . الا ان اولئك العملة ليسوا من اهل النشأة الاستقلالية الذين استعدوا للتزاحم في الحياة بل يمتازون عنها بما فيهم من النقائص الشخصية او لانهم من النشأة الاتكالية كالارلنديين والايقوسيين ومهاجري الالمانيين والتليان وغيرهم واولئك هم العناصر الذين ينتحب الفقر من بينهم اهله ورجاله في انكلتره والولايات المتحدة وهم الذين يجد مذهب الاشتراكيين من بعضهم ميلاً الى

مبادئه وهم الذين يحتشدون تحت لوآء اهل الثورة والاضطراب

وهذا ايضاً يؤيد ما استخلصناه من الابحاث المتقدمة وهو تأخر اهل النشأة الاتكالية عن اهل النشأة الاستقلالية بمقدار عظيم

انما المستقبل للامم التي تمكنت من الخلاص من تلك النشأة والحكمة تقضي علينا ان نقول بهذه الحقيقة ونقررها فذلك اولى من التمسك بما يدعونهُ حلاً لما نحن فيهِ وهو خيال لان ذلك المذهب اصبح بالياً ودل ماضيه على انهُ كان سبباً في استيلاء الضعف على قومه في ازمنة الفراعنة كما انه ينتشر اليوم في الدنيا كلها بواسطة امة هي اشد امم الغرب خضوعاً لسلطان الحكومة المطلقة

الفصل الثالث

﴿ في ان تصوُّر الوطنية يختلف عند الفرنساويين ﴾

﴿ والانكليز السكسونيين ﴾

يجب على الباحثين الذين يميلون الى اختبار الافكار بالحوادث ولا تخدعهم شقشقة الالفاظ ان يفقهوا معنى كلمتي (وطن) و (وطنية) كما ينبغي وهما كلمتان كبيرتان اعتاد قومٌ على النطق بهما ذات اليمين وذات الشمال من غير امعان ولا تمييز وبعضهم ينطق بهما معجباً مختالاً فلا يقبل فيهما بحثاً ولا تأويلاً واخرون يلفظونهما مغضبين محقرين بلا قيد ولا ميزان فبينما هؤلاء

يمجدون الوطن ويدأبون على اثارة الوطنية في الافكار يسعى اخرون في الحط من معاني هذه الكلمة ويقولون ان الوطن امرأة تدعى الأمومة تطفلاً وان ذلك الوهم اقام زماناً وانقضى ولم يعد موافقاً لمقتضيات الايام الحاضرة وان كل الناس اخوان ويعلنون على رؤوس الاشهاد انهم لا وطن لهم غير مبالين بما يحسهُ مواطنوهم من الخجل لسماع مثل هاته الاقوال :

هذان مذهبان مختلفان يتعذر التوفيق بينهما غير ان لكل مذهب سبباً يعللهُ ومصدراً يرجع اليهِ وينبغي لنا ان نبين حقيقة الوطنية ونشرح صورها في الاذهان بحسب تقلب الازمان وتقف على اسبابها ونتائجها ليتبين ان كان العالم صائرًا الى تأييد تلك الحقيقة او اضعافها او تحويرها فنعلم اي الحزبين اصدق رأياً واصح فكرًا فاذا بلغ منا العلم انهما محقان من جهة ومخطئان من جهة اخرى بحثنا عن درجة خطأ كل واحد منهما

تلك مسئلة عويصة دقيقة تحتاج من كاتب هذه السطور ومن قرائهِ الى روية كبيرة وحرية فكر واسع فيجب علينا جميعاً ان نطرح ولو الى حين كل ميلٍ الى الحزب الذي ننتسب اليهِ وكل تحزُّب للبلد الذي نحن منهُ ونفرض انا نوجد في كوكب غير قارتنا حيث نشرف منهُ مطمئنين على جميع حوادث الارض وما يجري فيها

اول شيءٍ يراه الباحث هو ان الوطنية لا تمو بدرجة واحدة عند جميع الامم لانها ثمرة اسباب شتى فهي تتنوع بحسبها ولها صوَر مختلفة تمتاز منها اربع عن البقية وهي : الوطنية الدينية اي التي يكون مدارها على الدين والوطنية التجارية اي المبنية على التنافس في التجارة والوظيفة السياسية اي

التي تبنى على التطلُّع السياسي والوطنية الشخصية وهي التي ترجع الى حرية كل فرد في معيشته الذاتية

الوطنية الدينية

تمتاز بالوطنية الدينية امم العرب والتركمان ويقال لهم (التواريج)[1] والاتراك وامثالها وقد بينت في غير هذا الكتاب الاسباب التي تحمل تلك الامم التي نشأت في الصحاري على الخضوع لسيادة الطوائف الدينية[2] فيوجد في هذه الايام بين تلك الامم كما وجد في جميع ادوارها الماضية طائفة يرى الناس كلهم انها صاحبة الحق في السيادة فلا ينازعها احد ولا يخرج عن حكمها احد وليس رجال تلك الطائفة من قبيلة واحدة بل هي تتألف من كل متعصب انى وجد لذلك تجد فيها قوماً من شمال الصحراء وقوماً من جنوبها على بعد ما بين المركزين . وتمتاز تلك الطائفة بقوة البأس وبامتداد نفوذها حتى كانها الجامع العام لتلك القبائل والعشائر . وهي التي وقفت في وجه جميع الفاتحين الذين حاولوا اختراق الصحراء كما وقفت امام الانكليز على حدود السودان المصري كانها حصن عزيز المنال وهي التي

(١) التوارج امة من البرابرة منتشرة في صحراء افريقيا بين بلاد (القوات) شمالاً وتنبوكتو جنوباً والنيجر غرباً وفزان شرقاً وهي تعتقد انها من سلالة الترك وتحتقر العرب ورجالها طوال القامة شديدو القوى خفيفو الحركات وديانتهم الاسلام وهم اشد القبائل باساً في وسط الصحراء واصعبهم مراساً وهم الذين ابادوا الارسالية الفرنساوية التي توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة الميرالاي فلاتر لتخطيط السكك الحديدية في تلك الاصقاع

(٢) راجع مجلة المؤلف (العلم الاجتماعي) صحيفة ٣١٥ وما بعدها من الجزء الخامس عشر

تصدم امامها الامة الفرنساوية في حدود صحراء الجزائر

اولئك هم ملوك الصحراء واسمهم الطوائف الدينية واسم رجالهم (الاخوان) والخلفاء اسم للرؤساء كما يقال لهم المشايخ وغير ذلك من الاسماء واحياناً يسمونهم المهديون او رسل الله اذا حميت نار الاعتقاد وظن بعضهم نزول الوحي عليهِ من السماء والويل الويل لمن يحاول الدخول عندهم في مثل هذه الازمان

ولهذه الطوائف (زوايا) في جميع الواحات وهي معابد تابعة للجامع الاكبر ففي واحة (غِمار) بالصحراء اثنا عشر مسجداً واربع زوايا مع ان سكانها لا يزيدون على سبعمائة او ثمانمائة . وللاخوان كلمة سر يفهمونها واشارات تعارف مخصوصة وهم درجات بعضها فوق بعض مقررة لديهم اجمعين تبتدي من السيد الاكبر او الخليفة الى حامل العلم الى الحارس وهكذا ولهم جمعيات عمومية يتلقون فيها اوامر السيد السرية او يحتفلون بدخول بعض المريدين في الطريقة او يهيئون في البلاد ثورة ضد عدو يريد الاغارة عليهم سواء كان من داخل البلاد او خارجها وكلهم وطنيون وهم غلاة الوطنية في الصحراء

الى هذه الوطنية يرجع نظام العشائر التي كانت تسكن اقليمي اشور ومصر في الازمان الخالية اعني في الدور الاول من تاريخ تلك الامم التي كانت تتألف من الشعوب الوافدة حديثاً من الصحراء ولذلك خضعت لحكم الطوائف الدينية وقسس الاله (آمون) خضوعاً كلياً او جزئياً واليها ايضاً يرجع محمد (صلى الله عليه وسلم) واتباعه وجميع القبائل والشعوب التي

اجتمعت تحت رايته في وديان العرب او الصحراء واطرافها من بلاد اسيا الصغرى الى بلاد الاندلس . كذلك يدخل فيها الترك فانهم اخذوا عن الاسلام اشكال حكومتهم وكانوا يجهلونها لما هم فيه من البداوة غير مستقرين في مكان

ويكفي في بيان حقيقة هذا النوع من الوطنية ذكر هذه الامم فالمتمسكون بها لا يطيقون الجدال فيها ولا يشفقون اي اشفاق على اعدائهم لان مرجع الوطنية فيهم الدين وهو لا يقبل التحوير ولا يحتمل التساهل والتفسير . واهم شيء يوجب الخشية منها هي انها لا تقتصر على اخضاع الاجسام الى سلطانها ولكنها تبسط سيادتها ايضاً على الافكار والارواح فلا تكتفي برضوخ من تتغلب عليه الى حكمها وتكلفه اعتناق مذهب اصحابها فاما الايمان واما الاعدام . ولقد اهرقت هذه الوطنية دماء كثيرة خضبت بها تاريخ اجيال عديدة وهي اليوم تنكشف الى الباحثين مثقلة بالفظائع والآثام

ان الدين اذا اتخذ الارهاب سلاحه بدل الدليل والاقناع لم يكن الاَّ غضباً وهياجاً ومن الواجب التنكيل بهذه الوطنية بكل ما في الجهد ومغالبتها حد الاستطاعة وهذا الواجب انما يطلب من المؤمنين لانها تحط من قدر الاحساس الديني والعدالة الصمدانية وهما اشرف الامور واعلاها مقاماً ذلك لان مثل الذين يدعون هذه الوطنية كمثل ارداء الزنادقة واخبث المنافقين تراهم يحملون السيف او العصاء ويأتون موارد شهواتهم ومواضع انتقامهم ومرامي اطماعهم باسم الدين وتحت ستاره[1]

---

(١) نحن لا ندرك معنى لحصر هذا النوع الممقوت من الوطنية في الامم التي تقطن

الوطنية التجارية

تمتاز بها امم شواطىء البحر الابيض المتوسط قديماً ايام كان ذلك البحر شبيهاً بحوض ذي سور مقفل اعني ايام كانت سواحله آهلة بالمدائن والشعوب التي تمتد على شواطئ فينيقيا واسيا الصغرى واليونان وجنوب ايتاليا والاندلس وافريقيا الشمالية وكلها تطلب الرزق من التجارة . ولا بد من ان التنافس كان شديداً بين تلك الامم وان حياة كل واحدة منها كانت متوقفة على فوزها دون غيرها وليس التاريخ القديم الا عبارة عن قصص تلك المنافسات التجارية

الاقطار الاسلامية والاقتصار على ذكر العرب والترك والتركمان فان كان يريد التعريض بالاسلام فانه لم يصب محجة الصواب لان الاسلام لا يلزم احداً من مغايريه في الدين ان يصير مسلماً بعد ان يدين لحكمه والتاريخ اصدق شاهد على خلاف رأيه وكتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم صريحان في حقن دماء غير المسلمين ومسالمتهم الا الوثنيين منهم . هكذا جرى العمل حتى في زمن الفتح ايام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعاً في مذهب غير المسلمين فانا نورد على عبارة المؤلف ما قاله حضرة العالم الشهير الكونت هنري دي كستري صاحب كتاب الاسلام في الفصل الثاني عن ملاينة الدين الاسلامي وكيف انه عامل المسيحيين وقربهم اليه في مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف ان يرمي مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون اخوانهم في الغرب لان المذهب واحد فان كان الدين هو الذي اغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه ان يعم حكمه على البقية وان كان غيره فقد فسدت قاعدة رايه ولعله كان يقرب من الحقيقة لو اطلق شرحه على الوطنية الدينية من غير ان يقيدها بامة دون اخرى لان فعل الدين في النفس واحد نصرانياً كان الرجل او مسلماً او يهودياً او مجوسياً

ومن اجل ذلك احتاجت كل امة من تلك الامم ان يكون نظامها موافقاً لحاجاتها خصوصاً ما يتعلق بدفع الاعدآء ومهاجمة الخصوم اذ كان لا مناص لكل منها من الاعتماد على نفسها وهذا هو السبب في اعتنائها كلها بتربية شبانها على التمرينات الجسمية حتى صارت القوة والمهارة وخفة الحركات والحذق في رمي النبال اعز صفات الشبيبة فاقيمت ميادين الالعاب العمومية وعظم الاهتمام بها وما ذلك الا لانها كانت في الحقيقة مظاهر للوطنية في ثوب مخصوص

هنالك كانت الوطنية محلية اي قاصرة على اهل كل مدينة او طائفة دون جارتها ومن هنا جآء اسم المدينة والبلد بمعنى الوطن مما ملئت به كتب المتقدمين لجميع الاعمال العظيمة والوقائع الشهيرة التي احتفظنا عليها كأنها من الدين وجعلنا نحشو بها اذهان ابنائنا في المدارس من غير نظر ولا تأمل كلها صورٌ من تلك الوطنية التجارية . وقد افتخرت كل مدينة بشجعانها كما افتخرت بحكمائها لان الفريقين غرس ارضٍ واحدة هي حالة تلك المدن الاجتماعية في هاته الازمان . قال (استرابون) عن (كروتون) انهُ كان يعتني على الخصوص بتربية الشجعان حتى توصل الى اختصاص رجالهُ بالغلبة في ميادين الالعاب العمومية وقيل ان اضعف رجل من رجالهِ كان يعد في مقدمة اليونانيين . وكان الناس يعظمون الظافرين في تلك الالعاب تعظيماً لا مزيد عليهِ فيخلعون عليهم احسن الحلل ويختصونهم باكبر علامات الشرف والامتياز ويتسابق المصورون الى اقامة تماثيلهم في كل نادٍ . هكذا اقيم في (اولمبيا) تمثال (استيلوس) وهو من تلامذة كريتون المذكور وقد

تمت لهُ الغلبة في ثلاثة ألعاب متواليات • وتمثال (فيليب) صاحب الانتصارات الباهرة في تلك الالعاب وكان اجمل اهل زمانه وتزوج ابنة (تيليس) ظالم (تيباريس) وعدّ بعد وفاته من اكابر الابطال • وتمثال (فايلوس) وكان مكتوباً عليهِ انهُ كان يقفذ خمسة وخمسين قدماً ويرمي بالكرة على بعد خمس وتسعين خطوة • واشهرهم (ميلون) الكريتوني فقد بلغت انتصاراته ستاً وعشرين على اختلاف الالعاب وسارت الركبان بقوته الى اقصى الشرق وبلغت مسامع كسرى الفرس واقيم لهُ تمثال من النحاس وكان لهُ شأن خطير في حروب قومهِ مع (سيباريس).

وكانت جميع المدائن تطمع في الانتصار في ألعاب اولمبيا وان تفوقها بالعابها ولذلك اقام سيباريس وكروتون في نواحيهم الالعاب العمومية وجعلوا للفائزين فيها وسامات من الفضة رجآء ان يجتمع اليها يونان ايتاليا وسيسيليا ومدائن اسيا الصغرى وتلك الالعاب هي الاصل الاصيل الذي نشأت عنهُ ألعاب الرومانيين المسماة (جلادياتور) وكانت من افظع الشنائع ايام سقوط الدولة الرومانية

تلك هي صور الوطنية التي عظمت عند امم البحر الابيض المتوسط في قديم الزمان • والذي الجأهم الى ذلك احتياج كل امة الى رد غارة غيرها بتجارتها وهي وطنية ترجع الى المال وكان من لوازمها الاثرة والشره ولم يكن السبب في تلك الوقائع والحروب التي رواها لنا مؤرخو تلك الاعصر موشاة بما يعجب القرآء الا الرغبة في اذلال الخصوم بالقوة القهرية بعد العجز عن مغالبتهم بالمهارة في التجارة والتفنن في اساليبها • ولم يكن لحب الوطن الخالص

ورغبة التفاني في الذود عنهُ من صدور اولئك التجار الأ مكان صغير في الحقيقة لا كما يتصوره الناس عنهم والدليل عليهِ انهُ لما تمت الثروة لتلك المدائن وملئت خزائنها من الذهب والفضة لم تعد تطلب حمايتها من قومها وعمدت الى تجنيد جيوشها من الاجرآء . قال (جوستان) انكسر ابطال (كريتون) سنة ٥٦٠ في احدى الوقائع فاهملوا من ذلك الحين صناعة الحرب والقوا السلاح ومالوا الى الانهماك في اللذائذ والانغماس في الشهوات مثل (سيباريس) وكذلك كان شأن (تارانت) فانهُ بعد ان اشتهر بالشجاعة وسرت بذكر فضلهِ الركبان اضاعها في التنعم والفساد

والواقع ان تلك الوطنية التي بالغ الناس في الاطرآء بها ترجع الى رواية ذات قسمين ففي القسم الاول نشاهد تلك المدائن تثير الحرب على بعضها لتأخذ حظها من التجارة وفي القسم الثاني نشاهد التي ظفرت منها قد تولاها الانحطاط ودمرت بيد متغلب جديد خرج من مجتمع يخالف نوعها

الوطنية السياسية

مهدها عند الامم التي عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة في رؤسائها واعظم مثال لها الامم الفرنساوية والالمانية والروسية والتليانية والاندلسية (الاسبانية) في زمننا هذا ومثالها في الزمن القديم الامة الرومانية

وليس القائم بالحكم في هذه الامم الطوائف الدينية او المجالس البلدية المؤلفة من التجار كما في النوعين السابقين بل القائم عليهِ رؤساء من رجال الحرب او ممن جمعوا حولهم الجند المجندة وامتدت سلطتهم في اقطار شاسعة

وجمعوا تحت تصرفهم وسائل عظيمة من المال والرجال وخضع لاوامرهم المدد العديد من الجيوش والموظفين وهم لذلك اقدر من غيرهم على اقامة الحروب لولايتهم على جميع عناصر البلاد الحية اذ كل شيء خاضع للدولة من جهة ما وليس لاحد من العمال ارادة غير ارادة الحكومة التي تنقده راتبه ملكياً كان او عسكرياً . وفي مثل هذه الاحوال تميل الجيوش الى الحرب اكثر من ميلها الى السلم كما انهم لا يعظمون الملك او الوازع الاكبر في الجمهورية الاَّ بقدر ما يكون لهُ من الغزوات وما يؤتاهُ من الانتصار ومن اجل هذا كان رؤساء الحكومات ميالين طبعاً الى الحرب وكثيراً ما يكون الحرب سبيلهم الوحيد في الاستئثار بمرغوب او في دفع منافس يخشون مزاحمته . وهذا هو السبب في تلك الحروب العديدة التي منشأها التنازع على الملك بين العائلات او الاطماع الذاتية للملوك والنفس تنخدع عادة بالاستيلاء على سلطة تجعل المرء في سعة ونعيم والناس يعترفون بهما ويقدسونهما متى تم النصر للمغير

غير انهُ يلزم للظافر بعد ظفره ان ينظر في استبقاء نصره والبقاء ليس بالامر اليسير على حكم واسع الاكناف لا بد فيهِ من اغضاب قوم وجرح عواطف آخرين لعلة انهُ تكفل بالقيام مقام الكل في التفكير والتدبير حتى لقد يخشى على تلك الحكومات الضخمة ان ترزح تحت هذه الاحمال الثقيلة التي جلبها عليها استعلاؤها وسلطانها الرفيع فاذا وصلت الدولة الى هذا الحد التمست مخرجاً منها بالحرب لتلوي افكار الامة عن النظر الى الصعوبات الداخلية . وهذا ايضاً هو السبب في حروب كثيرة مما خلده التاريخ وسطره الكتاب . ومتى انتصر اولئك الملوك زادت سلطتهم وتمكنت سيادتهم

وحينئذٍ تراهم يثيرون الحروب ليزدادوا بسطة في الملك لا ليثبتوا املاكهم وليمدوا حدود ممالكهم العظيمة التي يفرح بها المؤرخون وتحزن لها الامم. اولئك هم اكابر القياصرة وعظماء الاملاك والاكاسرة الذين غصت باسمائهم صفحات التاريخ واتخذهم المؤرخون بياناً لمراحل الاجيال

على ان هذه الدول العظيمة لا توافق طبيعة الاجتماع لما يلازمها من ارتكاب اكبر الفظائع في الحياة العمومية وجلب اعظم المصائب والرزايا في الحياة الخصوصية ولذلك فبقاؤها محدود ودوامها محال تراها تخرّ مهشمة عقب موت شجاعها وكثيراً ما يدركها الدمار في حياتهِ . هنالك تهب نار الحروب ثانيةً بين الخلفاء وتستمر من جيلٍ الى جيل وفي الغالب يكون انتشاب تلك الحروب رغم انف الامم لاحتياجها الى السلم كي تتفرغ الى السعي وراء رزقها والحرب تعطل الاعمال غير ان صوت الامة ضعيف في مثل هاتيك الدول فان من شأنها الضغط على حرية الافراد فيما عساهُ يأتي من عندياتهم بما استلزمهُ نظامها من جمع السلطة كلها في يد قومٍ معدودين . اما العامة التي تزاول الاعمال النافعة وتكب على الاشغال التي تأتي بالثمرة وتمكنها من اداء الضرائب والخراج فانها مطروحة وراء السلطة العمومية التي انتهبت منها رويداً رويداً قدرتها على الاعمال العامة واضعفت فيها بواعث الاجتهاد ومصادر الانتاج وجعلتها لا تعرف من امورها الا الطاعة والانقياد فهي تخضع الى الحكومة والموظفين كما تخضع لاهل السياسة او المشتغلين بالسياسة وما علمنا ان الامة ابدت حراكاً امام رغائب فيليب الثاني ولا تحت حكم لويز الرابع عشر او حكومة الثورة او نابوليون الاول

ومعلوم ان هذه الحكومات العظيمة التي جمعت من العدد والعدد ما يمكنها من ارضاء اطماعها السياسية لا يتيسر لها تسيير اممها وحملها على احتمال ما تطلبه منها من الرجال والاموال الا اذا تذرعت لديها بمنفعة الوطن واثارت في نفوسها عواطف الوطنية . ترى تلك الحكومات تتفانى في حب السلام وما من احد يسبقها في الجهر بهذا الميل وتقول ان الحرب اكبر المصائب واعظم البلايا حتى لقد جاء ذكر السلم اثني عشرة مرة في خطاب امبراطور المانيا الذي القاه في (كيل) ومع هذا يقضون حياتهم في الحروب او في تجهيز معداتها وتهيئة لوازمها وتلك الاستعدادات التي لا حد لها هي في الواقع اشد تدميراً واعظم تخريباً من الحروب فانها تستنزف ما في الامة من الرجال والاموال وكلما اشتد وقر هذا النظام اشتدت الحاجة في الحكومات الى الاستنجاد بالوطنية ومن الصعب معرفة درجة ما تفعله الوطنية في نفوس امة بلغت منتهي الاضمحلال من جرآء هذه الاحوال كما لا تسهل معرفة مقدار ما تؤول اليه من الخراب اذ بلغت الوطنية منها حدها الاقصى ومع هذا قد يتأتى الالمام بذلك اذا نظرنا الى حالة الامة التليانية لان البحث في حالتها العلمية والاجتماعية يفيدنا فائدة كبرى ويرشدنا الى الغاية التي نحن صائرون اليها . كذلك نهتدي الى غرضنا بالتأمل في حالة بلاد الاندلس (اسبانيا) وانا نكتفي بتوجيه ذهن اهل العالمين الى هاتين الامتين ونضيف اليهما جمهوريات امريكا الجنوبية لمن رغب الاستزادة في البيان

قال بعضهم ونعم قوله (لو انا امعنا النظر في حقيقة معنى وطن لتركنا الطريق وقفلنا راجعين) ومن المحقق ان الوطنية هي التي كانت سبباً في

قسم عظيم من الفظائع والمنكرات التي ملأت التاريخ وصيرت قرآءته معيبة مخالفة للآداب . نعم انا عالم باني احدث بمقالي هذا اضطراباً في نفوس بعض القرآء واراهم لغلوهم في الوطنية يشددون النكير عليَّ ويفوقون نحوي سهام اللوم والتنديد ولذلك فاني اخصهم بمقالي واسألهم ان كانوا حقيقةً في وطنيتهم صادقين . واريد بالوطني من يبرهن على ادعائهِ بالافعال لاني لست اجهل ان عدد الوطنيين بالقول لا يحصى غير ان الكلام في بحثنا لا يفيد وانا اخشى ان يكون السواد الاعظم مغروراً جذبتهُ الاوهام فادعى بما ليس فيهِ

انما الوطنية تقوم بامرين مهمين دفع ضريبة المال واداء ضريبة الدماء ولست انكر انهم يؤدون الخراج بالتمام ولكن رأس الحكمة مخافة الجباة . على انهُ لا محيص من الاداء والدليل عليهِ انهم جميعاً يستغيثون من فداحة المصروفات ويشنون الغارة على استرسال الحكومة في توسيع دائرة مصالحها واذا جاءهم مترشح في المجالس النيابية وجعل يخطب فيهم انهُ يميل الى تخفيف الضرائب والاقتصاد في المصروفات اقبلوا عليهِ واهدوهُ اصواتهم مهللين ومكبرين . الا آني اقسم انهم بما يعملون يبرهنون على انهم في وطنيتهم التي لست ارضاها كاذبون لانهم لا يجهلون ان النظام الذي يدافعون عنهُ خلافاً لرأيي يقتضي المال الكثير فلو كانوا في ادعائهم الوطنية صادقين اي لو كانت الوطنية فيهم غير مجرَّد التشدُّق في المقال وكانت مفهومة لديهم بغير ما يتظاهرون بهِ من الحركات التي لا يرضاها العقلاء لما ساوموا الحكومة على المال الذي تحتاج اليهِ في تغذية تلك الوطنية وصيانة دعائمها . انهم انما

صدقوا لدفعوا المال ولم يشكوا اذ كلما دفعوا انتصرت وطنيتهم وكلما انتصرت استبشروا وفرحوا . اما انا فلست من المبتهجين لاني غير راض عن نظام الهيئة الحاضرة القائم على تلك الوطنية ولا حق لهم ان يغضبوا غضبي لانهم ان غضبوا فقد خالفوا انفسهم وتناقضوا

ايها الوطنيون العلامة الثانية على الوطنية كما تفهمونها هي ضريبة الدماء فلننظر كيف انتم بها قائمون اذن ليس بخاف على احد ان كل اهتمام الفرنساويين حتى غلاة الوطنية منهم موجه الى التخلص من الخدمة العسكرية مدة ثلاث سنين هم واولادهم وانهم نظموا حياتهم للسعي في هذا السبيل . فان كانت الخدمة ثلاث سنين لازمة فما سبب الهرب منها وان كانت غير لازمة فلمَ الدفاع عنها . الا تشعرون انكم متناقضون في دفاعكم عنها وهربكم منها . انا نشاهد المدارس التي اعفيت تلامذتها من الجندية مدة سنتين بمقتضى قانون العسكرية الجديد اصبحت غاصة بالطلاب وكان الكثير منها في درجة سيئة من الانزواء لقلة الراغبين فيها فاقبل اليوم اليها العدد العديد حتى ان مدرسة الحقوق خفضت من شدة الامتحان وسهلت الدرس تسهيلاً لنوال شهادتها التي تعفي حاملها من الجندية سنتين كاملتين . وكأني بالمدرسين وقد تنبهوا الى انهم آباً وان غلوهم في الابوة يربو على غلوهم في الوطنية . وارجع الى النواب والاعيان في المجلسين فلا تجد منهم عشرة يؤدي ابناؤهم خدمة الجيش ثلاث سنين . هكذا يصادق الرجل منهم على جعل الخدمة ثلاث سنين ولكنهُ لا يقر على دخول ابنه فيها

وبالجملة فالوطنية التي نحن بصددها قائمة على المطامع السياسية بواسطة

الحروب وتوسيع نطاق المصالح العمومية غير انها وطنية صعبة الاحتمال على الامم فهي تفرح بها في اول الامر ثم لا تلبث ان تشعر بثقلها فترغب في التخلص منها وحينئذٍ تتكاكل تلك الاحمال على الضعفاء والمساكين والبسطاء اعني على الامة فتميتها وتضعفها ثم يضيق بها الخناق يوماً فتثور ثورة واحدة وتتخلص من مثل لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابوليون غير انها لا تخرج من حكم هولاء الا لتدخل في حكم لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابوليون لان اولئك المسيطرون على الدوام موجودون في مثل ذاك النظام

الوطنية الشخصية

يوجد هذا النوع من الوطنية عند الامم التي تفهم من هذا اللفظ معنى غير المعاني الثلاثة السابقة فالرجل من تلك الامم يرى ان الوطن في بيته وان المنفعة التي يجب عليهِ الدفاع عنها هي استقلال ذاك البيت وساكنه وان الوطن السياسي لامفهوم لهُ الا ايجاد وسائل ذلك الاستقلال الشخصي وان الرجل لم يخلق للوطن خاصة كما في النوع السابق بل ان الوطن انما وجد لخدمة الانسان فهو لا يهتم كثيراً بان يكون وطنياً من امة عظيمة وانما جل اهتمامه ان يكون وطنياً مستقلاً وبالجملة فانهُ يرى نفسه رجلاً قبل ان يكون وطنياً

هذه وطنية تخالف وطنية الامم اللاتينية وكان اول ظهورها في غرب القارة الاورباوية نحو القرن الخامس من المسيح فادخلها قوم (الفرنك) في بلاد (الغلوا) والسكسونيون في بريطانيا العظمى والفرنك والسكسونيون من هيئة اجتماعية واحدة هي التي سميناها بالامم الاستقلالية لانها خالفت

الجميات التي ترجع في اصولها الى الامة الرومانية القديمة فجعلت الشخص اي الفرد الواحد راجحاً على الدولة

ورجحان الفرد على الدولة هو الذي كان السبب في تجزئة البلاد الفرنساوية والجزائر البريطانية الى امارات صغيرة لا تحصى حتى صار عددها في القرون الوسطى بقدر عدد الاملاك الخصوصية فكان كل واحد سيداً في ارضه لهُ الحكم فيها وحفظ النظام بين ساكنيها . وهكذا حلت اوطان كثيرة في محل ذلك الوطن الوحيد الروماني وليس من غرضي الآن ان أبين هنا السبب في زوال هذا الشكل الجديد شيئاً فشيئاً من البلاد الفرنساوية حيث اقصته عنها الحكومة الملوكية التي جمعت اشتات السلطة وفي بقائه كما هو ببلاد انكلتره غير ان الواقع هو اننا لا نزال نشاهد تلك الصورة عند الامم الانكليزية السكسونية اعني في بلاد انكلتره ومستعمراتها العديدة وفي الولايات المتحدة. ولكي نبين حقيقة تلك الوطنية ينبغي لنا ان نذكر طرفاً من الحوادث التي يعلمها الكل لما فيها من الدلالة الواضحة

اولاً سهولة هجرة الرجل عن وطنه وليس مقصدنا ان يهاجر منهُ على مقربة من حدوده بل يرحل عنهُ بعيداً جداً فيقطع الارض من ناحية الى اخرى . والمهاجر من الانكليز السكسونيين يشعر دائماً بانهُ انما يرحل عن بلده مستصحباً لوطنه اذ هو يرى الوطن حيث يعيش المرء حراً (١)

(١) هذا يذكرنا بقول الحريري

لا تركنن الى وطن ... فيه تهان وتمتهن
وارحل عن الدار التي ... تعلي الوهاد على القنن
وجب البلاد فايها ... ارضاك فاختره وطن

وثانياً استقلال المستعمرات بالنظر الى العاصمة الكبرى فكل مستعمرة لا يلزمها الا ان تكون تابعة لها ثم هي بعد ذلك مطلقة تحكم نفسها بنفسها كمتبوعها ولا تحسب ان حب الوطن يحملها على تسليم نفسها اليه يسيرّها كما يريد . ثم ان هذه التابعية وقتية لا تدوم الا بقدر ما يترقى التابع وان دامت فلزمن قريب لان المستعمرات الانكليزية تميل الى الهجرة مثلها كمثل شبان الانكليز . هكذا انفصلت الولايات المتحدة عن الامة البريطانية وهكذا تبدو الآن علائم الانفصال في اوستراليا وزيلاندا الجديدة وكندا وراس الرجا . قال احد السواح الانكليز وهو موسيو (مكس اوريل) (يفتخر سكان المستعمرات في هذه الايام بان يطلق عليهم اسم الاستراليين و (الكنديين) والافريقيين وتنمو فيهم روح الملة كل يوم والانكليزي هو الذي يغذي ذلك الاحساس فيهم اذ كل انكليزي يقيم بضع سنين في مستعمرة لا يبقى انكليزياً بل يصير (اوسترالياً) او كندياً او افريقياً ويحلف بوطنه الجديد وهم لا يقبلون من العاصمة الكبرى ان ترسل عليهم ولاة الا تأدباً منهم ومع ذلك يشترطون عليهم ان لا يشتغلوا بالسياسية اكثر مما تشتغل بها الملكة ورجال البيت الملوكي

وثالثاً عدم الالتفات مطلقاً الى الجندية وقلة الاهتمام بشأنها قال (ادوارد ريكلوس) في كتابه (تخطيط البلدان الجديد) (ان انكلتره هي اقل الدول في الجيوش الدائمية مع انها تحكم على امم اكثر مما تحكم جميع دول اوروبا باربعة الاضعاف فلا يزيد جيشها النظامي على مائة الف جندي) وهو سدس الجيش الفرنساوي والالماني والروسي اعني بلاد الوطنية الثالثة

وهو ربع الجيش النمساوي وثلث الجيش التلياني في حالة السلم وهو جزء من ثلاثين او من اربعين من عدد الرعايا [1]

وهناك امر اخر يوضح جيداً ان نظام تلك الامم لا يوافق الحروب قال (ريكلوس) في الجزء الرابع من كتابه المتقدم ذكره صحيفة ٨٧٩ (لا يوجد في انكلتره قانون للقرعة العسكرية وليس في استطاعة الحكومة ان تحشد من افراد الامة جيشاً تحارب به رغبات الامة والخدمة عندهم سنوية ولولا ان المجالس النيابية تقضي في كل سنة باستمرار العساكر مجندة لانحل الجيش في كل عام . ومن مبادئهم انهُ لا حق للوازع في استبقاء جيش مستمر ينفق عليه من بيت المال الا باقرار القرى والبلدان فهي التي تقدم المال اللازم وتقرر القانون العسكري في كل عام) وليلاحظ ان القرعة غير موجودة كذلك في البحرية بل يحشد رجالها من المتطوعين كالعساكر البرية

وعدد الجيش في الولايات المتحدة ايام السلم قليل جداً . فلا يزيد على ستة وعشرين الفاً مع كثرة عدد السكان وبعد ما بين مشرقي تلك البلاد

ومن هنا يتبين لك ان تلك الامم ليست ميالة الى الجندية ويزداد عدم الميل بتكاثر جمعيات السلام غير ان هذه الجمعيات لم تنتشر انتشاراً

---

(١) يظهر ان في الطبعة الفرنساوية خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على اربعة ملايين وهو قليل كما لا يخفى ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة او ربعمائة ويجب ايضاً ان يكون المقصود بالمعدود الرعايا الاصليين لا التابعين

محسوساً الا في انكلتره والولايات المتحدة فلايبلغ عدد جميع اعضاء الشركات التي تألفت لهذا الغرض في البلاد الفرنساوية الا الفاً ومأتين ولا نعرف في المانيا سوى جمعية واحدة لايزيد عدد اعضائها على السبعين اما انكلتره ففيها خمس جمعيات تتألف من خمسة وعشرين الف عضو وهذا بخلاف جمعية سادسة تسمى جمعية السلام تألفت سنة ١٨١٦ وفيها بضعة آلاف من الاعضاء . وفي الولايات المتحدة جمعية واحدة يبلغ اعضاؤها اكثر من مليونين وبجانبها جمعيات كثيرة لا تحصى واعضاؤها في ازدياد على الدوام . ومما يدل على بغضهم ايضاً للحروب اتجاه الاميال في هذه الايام الى فض المشاكل بواسطة المحكمين لا باستعمال المدافع والسيوف

اذا تقرر هذا سهل علينا ان نقارن بين هذه الانواع الاربعة

فاما الوطنية الدينية فقد انحصرت اليوم في الصحراء حيث تتعب الطوائف الدينية في استبقائها وعلى كل حال فانهُ لم يعد لها اثر في الخارج لانها لا تستطيع ذلك وقد مال الدين في امم الغرب الى الملاينة والمحاسنة وصار ينتشر بالاقناع والاستدلال لا بالقهر والغلبة ثم انهُ اتخذ الضمائر ارضاً يسكنها ومال عن الاستعانة بسلطة الحكومة على جلب المحاذين وعليه ترى ان الوطنية الدينية آخذة في التقهقر من جميع الجهات

وكذلك الوطنية التجارية انقضى زمانها ولم يعد للاسباب التي كانت قائمة بها على شواطىء البحر المتوسط اثر في الوقت الحاضر وكادت المدائن العتيقة تنقرض ان لم تكن قد بادت مثل فينقيا وقرطاجنه واليونان ثم فينسيا وجين واصبحت تدل باطلالها او اضمحلالها على ان تلك الوطنية التجارية

لا تصلح ان تكون اساً يقوم بهِ نظام الهيئة الاجتماعية . واليوم لا حياة للتجارة الا بالتنافس فيها وان عمدت بعض الامم الى تخفيفها او تحديدها بجبي الخراج على المتاجر في مرافيء بلادها بل نشاهد ان العقبات آخذة في الزوال بين الامم وان التجارة تتخلص كل يوم من قيودها وتسير مسرعة نحو الاطلاق بلا قيد ولا حرج . وحينئذٍ لا يمكن الاعتماد على هذه الوطنية فستلحق بسابقتها لتصير معها من زخارف تاريخ الاعصر الخالية

ومن الاسف انه لا يسعنا ذكر الثالثة كما ذكرنا الاولتين فان روح الوطنية السياسية لم يمت حتى الآن غير ان المرض قد اشتد بها اكثر مما يتخيله الناس وبدت عليها امارات الفناء المحتم ولم يعد في الامكان استبقاء تلك الوطنية زمناً الا باستعمال الوسائل الوقتية واستخدام اسباب الغلو فيها الى حد التعسف والتغطرس مما جعلها تزداد وقراً على الامة حتى صارت عبأً ثقيلاً . ومن المظنون ان الدائرة تدور على فرنسا او المانيا مثلاً اذا سبقت احداها الاخرى نخرت قتيلة تحت اثقال هذا السلام الذي صار اصعب احتمالاً من القتال . غير ان الظافر في ذلك الحين لا يفضل المغلوب الا قليلاً

والنصر كل النصر للامم التي وطدت اركان نظامها على دعائم الوطنية الرابعة اي الوطنية الشخصية فهي التي تلوح على وجهها جميع بشائر الموجودات النامية التي استقر لها الامر وامست آمنة على مستقبل الايام

اولاً لانها طبيعية فلا تحتاج لمنبه من الخارج دائماً ولكنها آتية من حالة اجتماع شأنها ان تربي في المرء بحكم الضرورة حاجة الاستقلال والبعد عن كل قيد تريده الدولة ولا منفعة لهُ فيهِ . ثم هو لا يحتاج في المحافظة

على هذا الاستقلال امام الحكومة والتخلص من تلك القيود الا ان يتبع وجدانه الخاص فتراهُ يجري على هذه الوطنية بطبيعة الحال كما يأكل ويشرب وينام

ثانياً لانها تساعد على انماء الثروة فهي لا تقتضي للجيش نفقة طائلة وهي تحمل النفوس على الكد والاسترزاق ما استطاعت ولا مشاحة في ان الامم التي من هذا النوع هي اغنى امم الارض كلها وما لها من ثمرة اتعابها

ثالثاً لانها تربي الاحساس الادبي في الانسان وهنا موضع تأمل لان غلاتنا افسدوهُ في الاذهان طلباً لمنفعتهم فقالوا ويقولون ان الحرب منبع عظيم تستمد منهُ الشجاعة والهمة ان لم يكن اعظم المنابع واكبرها وانهُ لو انعدم الحرب سقطت همم بني البشر وذلوا . وربما كان القول مفيداً في حمل الامم على تقتيل بعضها بعضاً ولكنهُ قول يخالف المشاهدات كل المخالفة . الا ترى ان موحشي امريقا الجنوبية وهمج افريقا في حرب ونزال مستمر منذ قرون على اماكن الصيد والاقتناص وهم مع ذلك في احط درجات الانسانية . ولو صح قول الغلاة لكانوا اول الامم في نمو الاحساس الادبي منذ قرون . واذا راجعنا التاريخ رأينا ان الرجل لم تسقط آدابه ويفقد مزايا الهمة الصحيحة الا في ازمان الحروب والغارات ايام كانت الوطنية الحربية بالغة منتهاها . هنالك تترادف على اسنة اقلام الكتاب حوادث القتل والخديعة والزور ومصارعة الاخ اخاه وغير ذلك من انواع الفظائع والمخازي . ومن الصعب ان لا يعز الانسان ... من هذه الاحوال ...

ما يقتضيه نموُّ الاحساس الادبي في الامم على ان ذلك من الامور الطبيعية فانه متى ثارت ثورة الجشع في قلوب الرؤساء اقبلوا بكلياتهم وجزئياتهم على الحرب والفتوح وداسوا كرائم الشمائل بالاقدام . ومتى اشتبك القتال وحمي وطيس الحرب بين الجند اندفع العسكر الى ارتكاب الشناعات واعمال القسوة والتوحش والفجور وهي الافعال التي يسميها الناس فظائع الحرب وموبقات الجيوش . نعم يرد ان نظام الجيوش في هذه الايام لا يقتضي مثل تلك الاعمال وهو صحيح الا ان فساد الاخلاق حاصل ايضاً وانما تغير شكلهُ ليس الا

ومن حسن الحظ في هذا الزمان ان صار الحرب نادراً وصارت معيشة الجندي معيشة سلم مدجج بالسلاح وصار بيننا وبين ذلك العسكري الذي يقضي حياته في الحروب اجيال طوال واصبح جنديناً يقضي حياته في الثكنات يتمرن بسلاح قد لا تحين الفرصة لاستعماله فهو واحد من الامة يعيش مطمئناً الا انه على نفقة الحكومة وليس في تلك المعيشة ما يوجب نموّ الاحساس الادبي ولكني ارى فيها ما يدعو الى النقص فيهِ لانهم يعيشون في شبه بطالة بغير عمل ذاتي ولا تبعة عليهم في شيء محرومين من جميع المشتهيات كالرهبان وكلها شروط لا توافق العزة ولا تربي الانفة ولا تشجع النفس ولا تنمي الاحساس لان اول الدلائل على نمو الاحساس الادبي في الانسان قدرته على مغالبة نفسه واستطاعته على تذليل متاعب الحياة ورضوخه الى ما تقتضيه من الكد والعمل . ومما لا يختلف فيهِ اثنان ان الخدمة العسكرية تضعف في الرجل هذا الاستعداد إضعافاً شديداً فلا يليق الجندي

القديم الا للخدم في مكاتب الشرطة ومن الصعب عليه ان يعود زرّاعاً او اجيراً كما كان قبل ان يصير جندياً لانه يرى تلك الاعمال شاقة عليه فثبت ان مدة اقامته في ثكنة العساكر اضعفت عزيمته واوهنت قواه الادبية

كذلك يتأثر الضابط من ذلك الوسط تأثيراً ليس حميداً ومنهم من يشتغلون فينجون من عدوى الثكنات بعض النجاة ولكنهم لا يفضلون غيرهم من الناس الذين يكدون على رزقهم . ومنهم من لا يعمل عملاً أبداً ويكتفون باداء الواجبات العسكرية دون غيرها وأولئك تراهم يقضون أوقات فراغهم الطويلة في القهاوي أو المقامرة أو استنشاق الهواء أو الزيارات أو الملاهي والملاذ . وليس في هذه الاعمال كلها ما يرفع درجتهم الادبية فوق درجة أقل الناس

ولا شك في ان الامم التي لم تحفل بالجندية والوظائف الادارية ارفع منزلة في الآداب من الذي بسطنا الكلام عليها لان شبانها لا يجدون في العسكرية أو المصالح الاميرية مقاعد يتكئون عليها بلا تعب ولا عناء بل يضطرون في تحصيل رزقهم الى الاحتراف بالصنائع الجارية وهذه تقتضي اقداماً اوفر وعزماً اوفى وفيها السراء والضراء وتبعتها اكبر ولكنهم في كدهم هذا لتحصيل عيشهم وايواء عائلاتهم يجدون همة وقدرة ادبيتين لا يجدهما من تيسر رزقهُ وعاش كسولا .

رابعاً لانها تساعد على انتشار الامة وسهولة تعود افرادها على الاقامة في جميع انحاء المسكونة . فبينما نحن الفرنساويين نجتهد في احياء العواطف الوطنية التي تولاها الانحطاط في ارجاء البلاد كلها باستعراض الجيوش

واقامة الاحتفالات العسكرية يمخر خصمنا في عرض البحار بسفنه المديدة ويغير على اطراف المسكونة بمهاجريه الذين لا نحصي لهم عداً وكاننا لا نراه او اننا نحتقره لانه لم يتسلح مثلنا من قدميه الى عينيه . ولكننا لا نزال متأخرين باعتقادنا ان قوّة الامة من قوّة حكومتها لانه اعتقاد باطل اذ لو كان صحيحاً لاصبحت سيادة العالم بأسره في يد الامم اللاتينية ومن المشاهد انها ترجع القهقرى كل يوم امام تقدم الامم الانكليزية السكسونية على صغر حكوماتها وقلة جيوشها .

اذا تبينا هذا كما ينبغي تمكنا من اخذ ثارنا من المانيا كما يبتغيه كل واحد منا لاننا اذ ذاك لا نطلبهُ بالافراط في حشد الجيوش وتعبئة السلاح فان ذلك يضعف الغالب والمغلوب سوآء بل نبتغيه من ورآء اعلآء كلمة الامة فهي القوة الحقيقية لان قوامها العمل واستقلال الافراد فيه .

وليلاحظ ان حالة الحرب او حالة السلم المسلح ليست من الضروريات الازلية بل هي نتيجة أشكال الجمعيات التي استولت على زمام الامم الى هذا الحين وكانت كلها راجعة الى الافراط في تعظيم السلطة العمومية وتوسيع نطاقها . اما الامم التي اتخذت شكلاً آخر فانها لم تعد تشعر بحاجة الى الاقتتال وصار الحرب عندها نادراً وهم لا يستبقون جيوشهم على قلة عددها الا تمسكاً بالعادات وجرياً على الماضي أو لاجل ان يدفعوا بها غارة الامم التي لا تزال ترى كل شيء من خلال الجند ملمحاً .

ولنلخص ما تقدم فنقول :

ان الوطنية السياسية وطنية صناعية كاذبة تقود الامم الى الدمار

والوطنية الحقيقية هي التي تفضل استقلال الشخص وتحميهِ من تعديات الحكومة وتوسيع نطاقها ضد مصلحتهِ لان هذهِ هي الطريقة الوحيدة في استبقاء قوة الوطن وتحصيل سعادته

الفصل الرابع

﴿ في ان الفرنساويين يختلفون عن الانكليز السكسونيين ﴾
﴿ في ادراك حقيقة التضامن والتكافل ﴾

أصبح التكافل اليوم مذهباً مقبولاً في فرانسا كالبديئيات حتى ان احد رؤساء الوزارة السابقين وهو موسيو (ليون بورجوا) كتب فيهِ رسالة مخصوصة قال فيها ان احزابهُ عديدون وذكر منهم الاشتراكيين من المسيحيين وبعض علماء الاقتصاد الالمانيين والفلاسفة كموسيو (فويه) و (ايزولي) وحكماء الفلسفة الوضعية الذين يسمونه مذهب (الذيريه) قال (والمذهب واحد عند الجميع وان اختلفت اسماؤهُ ومرجعهُ الى القول بوجود رباط طبيعي من التكافل بين كل فرد من الافراد وبين البقية) ولو اقتصروا على ذلك لامكن التسليم بهذا المذهب اذ لا ضرر فيهِ ولانه انما جاء بحقيقة لا تخفى على عامة الناس غير ان في الامر شيئاً آخر ينبغي التحرز منهُ. ذلك ان القائلين بهذا المذهب يريدون ان يجعلوه المرجع الاصلي في المسئلة الاجتماعية بتمامها ويرون ان الوسيلة في حل مشكلاتها ومدار بحثهم كله على المسئلة الآتية هل يجب ان يكون الفرد تابعاً للكل أو الكل للواحد وهم

يجيبون بان الصواب تبع الواحد للكل وعليهِ فالموضوع ليس بسيطاً ولكنهُ يحتاج الى النظر والتنقيب

واكبر دليل في رأي موسيو (بورجوا) على صحة المذهب هو قوله ان الرجل تابع للجمعية لانه مدين لها وليس هو مديناً لمعاصريه فقط بل (يولد مديناً للنوع الانساني باكلهِ) ومنهُ الاجيال الماضية (لانه يأخذ حظهُ مما ترك آباؤهُ وآباء الآخرين)

ويرى المتأمل من ايراد هذا الدليل على هذهِ الصورة انهُ يسهل على صاحبهِ اطالة الشرح فيهِ كما يعلم ان من السهل انحال طريقتهِ للرد عليهِ قال (يتبادل الناس المنافع وهم احياء) فهم حينئذٍ متكافلون

وقد يجاب على هذا القول بانهُ قولٌ صحيح وبأن الناس يتبادلون ايضاً احقاداً وبعضهم مع البعض الآخر يتنافسون فليسوا حينئذٍ متكافلين

قال (اذا ولد الانسان رأيتهُ يتمتع برأس مال عظيم جمعتهُ الاجيال الماضية) فهو حينئذٍ مدين

ويقال في الجواب نعم ولكنهم ايضاً اضعفوا قوّة العمل الذاتي لانهم لم يتركوا من الارض الا يسيراً لم يستغلوهُ فصيروا التنازع في الحياة عنيفاً لذلك يكون الفرد من الدائنين

وهكذا يسهل الاسترسال في هذا البحث على هذا النحو والموضوع واقف عند الحد الاول وتكون النتيجة لعباً بين متناظرين ينتهي باعتقاد كل واحد منهما انه ألزم خصمهُ الحجة وأسكتهُ بقوّة البرهان

والحقيقة ان بين الناس منافع مشتركة وأخرى متناقضة فهم للاجتماع

دائنون ومدينون وهنا عقدة الاشكال الا ان موسيو (بورجوا) قد سهل لنا حلها برسالته .

ولنجمل مبدأ بحثنا ذلك الدليل الذي اختاره دون غيره ورددهُ مراراً وجعله العماد الاول في تفضيل الكل على الواحد وهو قوله (يولد المرء مديناً للهيئة الاجتماعية فيأخذ حظهُ مما ترك آباؤهُ وآباء الآخرين حتى ان احقر الصناع في زمننا هـذا ليفضل متوحش الازمان القديمة بمقدار ما بينهُ هو من التفاوت وبين رجل من نوابغ عصره) الى أن قال :

(وما تاريخ الانسانية الا عبارة عن تاريخ ماتحملهُ النوع الانساني من المتاعب والخسائر التي لا يحصى عددها ولا يمكن تقدير اهميتها حتى وصل بعقله وقوّة ارادته الى ادراك ما أُودع في الكون من العناصر والقوى وتمكن من اخضاع الجميع لسلطانه واستعمالها في منفعته ليجد كل فرد من افرادهِ يوم يوجد وسطاً يسهل عليه فيه تربية ملكاته وانماء ما اختص به من القوى بحرية أوفى واكبر أي لتكون الانسانية أحسن في الحال والاستقبال منها في الماضي والى راحة الاجسام أقرب والى دعة الافكار ألزم والى اطمئنان الضمائر أوجب)

ذلك أمر لا شك فيه فالرجل مدين للهيئة الاجتماعية بما وصلت اليه من الترقي واليها يرجع فضلهُ الحالي على متوحش القرون الاولى . غير ان البحث الوحيد المهم الذي ينبغي الخوض فيه هو معرفة كيف حصل هذا الترقي في الهيئة الاجتماعية . هل كان في حصوله الكل خاضعاً للفرد أو الفرد تابعاً للكل كما يشاء موسيو بورجوا . و بعبارة أخرى هل الذي أوجب

ذلك الترقي الذي صير في رأيهم الواحد مديناً للكل هو عمل الجم أو عمل الافراد . وبعبارة اوضح هل هو من عمل الجمعيات التي كانت السلطة فيها فوق كل شيء او من عمل الجمعيات التي كان كل فرد حرًّا فيها يجري وراء مصالحهِ كما يشاء . لانه لا يتأتى لهم بالطبع ان يبنوا مذهبهم على ما حصل من الترقي ولا يلتفتون الى كيفية حصولهِ وطريقة اكتسابهِ

واذا تمهد هذا سهل علينا البحث في موضوعنا

من الحقائق التي يعرفها كل واحد ان الامم الحالية ساعدت على نمو التقدم اكثر من الامم الماضية وان الامم الغربية تفضل في ذلك الامم الشرقية

ومن الواضح ان الامم الحالية والامم الغربية انما فضلت غيرها بتغلب العمل الشخصي على العمل العام أي بقوة استقلال الفرد امام الكل فكلما انتقلنا من الماضي الى المستقبل وسرنا من الشرق الى الغرب نشاهد شخصية الافراد تعظم شيئاً فشيئاً وان الواحد يستقل عن الهيئة ويستأثر بكثير من الاعمال دون البقية وان العمل اصبح حرًّا بعد ان كان مقيدًا واضحى ذاتياً بعد ان كان كلياً كما انتقلت الملكية من يد الجم وتقسمت على الافراد فبطلت صولة القبيلة على كل واحد من اعضائها وبادت أثرة الطوائف دون افرادها واستوى كل باخيهِ مدنياً وسياسياً وتبدلت الحكومات من ملوكية مطلقة أو جمهورية مستبدة الى ملوكية أو جمهورية حرة نيابية . وبالجملة نشاهد التقدم الاجتماعي يسير خلف استقلال الافراد تجاه الحكومات . واذا نظرنا الى امم الغرب وحدها رأينا ان التي تفوق غيرها منها في التقدم وسرعة

الترقي والثروة والانتشار هي التي يعظم فيها قدر الواحد ويتأيد استقلاله الذاتي . ذلك كله واضح محسوس فلا اطيل الشرح فيه .

على ان موسيو (بورجوا) لا يخالف في الحقيقة ما اقول ولم يفتهُ ما في مذهبهِ من الضعف والفساد وان بناهُ على ظاهر خداع قد تفوت مضارهُ على غير الناقدين . بل عرف يقيناً انهُ يؤدي الى اماتة روح العمل في الافراد وسد باب التقدم الذي هو مدار مذهبهِ لذلك اخذ يقدم الرد على ما خشي الاعتراض بهِ عليهِ فقال (لقد عرف الكل في تاريخ الامم والشعوب ان السبب الاصلي في الترقي تزاحم الافراد على استقلالهم وان الامة لا تتجه نحو التقدم الاَّ اذا نشط الواحد من قيودهِ وتيسر لهُ استعمال ما اختص بهِ من الملكات والمزايا وأنهُ بقدر تقدم الافراد في استقلالهم ونمو حركاتهم الجسمية والنفسية التي هي قوام كل حركة اجتماعية يكون تقدم الهيئة بتمامها ويعظم عملها في سبيل الترقي والنجاح)

وذلك ابلغ ما يقال غير ان المؤلف بعد ان فرغ من هذا التحقيق جعل يتأولهُ ويتدحرج فيهِ حتى ارجعهُ الى مذهبه كيلا لا تترك قوى الافراد للافراد فقال (واجتماع قوى الافراد تحت لواء واحد قهراً في ازمنة الاستبداد او اختياراً في أعصر الحكومات الحرَّة هو الذي ايد بقاء المجتمعات الانسانية وحفظها من الشتات وهي العائلة والقبيلة والمدينة والشعب والدين والامة) وعليهِ فارقى نظام في الوجود هو (الذي تحصل بهِ الموازنة بين الافراد والكل حتى يعيش الكل للواحد ويعيش الواحد للكل ويصبح هذان المؤثران متلازمين بعد ان ظنهما الناس تقضين زمناً مديداً الا وهما تقدم

كل فرد في حياتهِ وتقدم الامة في حياتها) ومزج النظامين الفردي والكلي على هذا النحو يأخذ بالافكار علماً ويدل صراحة على ان المؤلف يريد ان يرضي الجميع لكن من ذا الذي يبين لنا مقدار ما يجب من كل عنصر في في هذا المزيج ومن الذي يتولى امر المزج بين العنصرين وهل يوجد من يتسنى لهُ هذا المزج ونحن نعلم ان علم تحليل الهيئآت الاجتماعية اكثر تعقيداً واكبر استعصاء من علم تحليل الاجرام .

لم يفت ذلك موسيو بورجوا فعقد لهُ فصلاً مخصوصاً عنوانهُ (تطبيق مذهب التكافل الاجتماعي عملاً) اليك اهم حديثهُ فيهِ

(يجب في التأليف بين العنصرين ان يلتفت الى طبيعة الاجتماع وغايته والظروف التي تكتنف كل فرد يوم ينضم اليهِ وحظهُ منهُ واوجبهُ فيهِ وبالجملة ينبغي ان يقابل بين مزايا الاجتماع ومتاعبهِ بالنظر الى كل فرد من افرادهِ حتى يتبين بذلك ما لهُ من الحقوق وما عليهِ من الواجبات

(وليس لشارع الامة ان يكون هو مفرق الحظوظ والمتاعب في الاجتماع فلن يكون من وظيفته ايجاد الحقوق بين الناس بل تنحصر واجباته في انتزاعها من ملاحظة روابطهم مع بعضهم البعض والوقوف عند بيانها وتقرير احكامها ومتى تبين النسبة الكائنة بين عناصر الهيئة الاجتماعية وضحت لهُ النسب التي توجد بين ضمائر المجتمعين ومشاعرهم فيقررها

(وحينئذٍ لا يكون شرعهُ قانوناً سنتهُ الهيئة الاجتماعية وألزمت الافراد باتباعهِ الزاماً بل يكون ذلك القانون عبارة عن الناموس الطبيعي للهيئة الاجتماعية الواجب العمل بهِ بين الناس)

ويرى القارئ ان موسيو بورجوا على رجاء من وصول الناس ـ بعد زمن طويل ـ الى درجة من التنور والعرفان والحكمة تمكنهم من الاتفاق على عقد اجتماعي يصيرون بمقتضاه شركة اختيارية يسهل عليهم فيها (الجمع بين القوى المتناقضة وتحويلها كلها الى مؤثرات مفيدة لكل فرد وللمجموع وان يقيموا على اطلال التنافس والخصام ودوارس السلطة القهرية والاستبداد بناء هيئة اجتماعية جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار)

ولا شك في ان هذا مطمح لا يرمي اليهِ الا حكيم حكيم وهو الغرض الذي يجب ان تقصدهُ الانسانية في خطاها وهو الذي يمكنها ان تسير اليهِ الا انهُ يصعب علينا ان نمشي مع المؤلف هذا الشوط البعيد كما يصعب علينا انْ نوافقهُ على ان المقدمات التي وضعها تؤدي الى النتيجة المذكورة فقد دلنا على وجود قوتين في الحياة الانسانية وهما قوَّة كل فرد منهما وقوَّة الهيئة المجتمعة واعترف بان التقدم الذي وصلت اليهِ راجع الى الاولى منهما ثم استنتج مع هذا وجوب الغاء الثانية وجعلها محل الرجاء في (الوصول الى هيئة جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار)

واني لا اخطئ كثيراً اذا قلت بان هذا التناقض مقصود فان موسيو بورجوا رجل سياسي اولاً وبالذات وشغله الشاغل قبل كل شيء تأليف حزب يكون لهُ نصيراً ثم العمل على دوام هذا الحزب وانتشارهِ بما يصل اليه الامكان. وهو يخشى ان ينفر محازبيهِ ان قال لهم ان الحياة أيها الاولياء ليست لعباً ولهواً وانما هي مغالبة دائمة ضد متاعب لا تحصى متجددة في كل آن ولن تنالوا الظفر في هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على انفسكم

لا على غيركم اذ كل ما يمكن لاهليكم واصدقائكم وجيرانكم وحكومتكم أن يساعدوكم بهِ اقل في الحقيقة بكثير مما يمكنكم ان تساعدوا بهِ انفسكم اذا عوّلتم عليها ولم ترجعوا في اموركم الا اليها . لانهُ من المسلم ان مثل هذا الخطاب انما يؤثر في عقول المتنورين ولا يأخذ الا بقلوب الذين سمت مداركهم وكانوا قوماً عارفين . ولكنهُ لا يجذب الجماهير خصوصاً من اسلموا امرهم الى اهل السياسة وأوقفوا حظهم في الحياة على ما يعملون . ذلك لانهم لا يطلبون نصيبهم في الوجود الا من الحكومة ولا يرجون مزية الا من الهيئة بتمامها ومثل هؤلاء القوم يسهل اكتساب قلوبهم اذا وعدوا صلاح امورهم بواسطة ذلك التكافل لانهُ صيغة مبهمة بسيطة يقبلها الناس بالسهولة ولا تضيّق على أحد ولا توجب شيئاً من المتاعب ولا تستلزم مع ذلك تغيير شيءٍ مما يجري عليهِ الناس في الحياة الآن . وهي دعوة تلذ لعامة الناس الذين لا يطلب منهم عمل من الاعمال وهم يطلبون كل شيءٍ من غيرهم وتلذ ايضاً لرجال السياسة والمشتغلين بالمسائل الاجتماعية والحكماء ومحبي الانسانية الذين لا يتكلفون من القول الا يسيراً ليظهروا امام الناس في ثوب قوم عرفوا متاعب الانسانية وكانوا بها مشفقين .

نعم يكفي ذلك لتأليف الاحزاب وجمع النصراء ولكنه لا يكفي للنهوض بالانسانية نحو كمالها بل انهُ يزيد في سوء حالها لان التكافل امر وهمي اكثر مما هو حقيقي واليك البيان بالايجا

اولاً مجرد النداء بان الناس كفلاء بعضهم لبعض وان مساعدة البعض للبعض واجبة لا يكفي لايجاد التكافل اولاً بحكام روابطه بينهم وانما ميل الافراد

الاعتماد على الجمع او جعل الفرد تابعاً للكل يتولد في الهيآت الاجتماعية بمقتضى نواميس مقررة يرشد اليها التأمل في الوجود ويعرفها قراؤنا . فحيثما وجدت تلك النواميس تولد هذا الميل من غير احتياج الى النداء به او الارشاد اليه لانهُ يحدث بانتظام كما تتولد جميع الحوادث الطبيعية فاذا اردنا افناءهُ وجب علينا ان نعرف الظروف والحوادث التي استلزمت وجوده

وهنا يظهر ما في مذهب التكافل من الوهم والخيال اذ لسوء الحظ كلما قوي هذا الميل اشتدت تابعية الواحد للكل وتأصلت عندهُ عادة الركون اليه وقلَّ اعتمادهُ على نفسه وصار اعزل امام متاعب الحياة لما يعتريه من فتور الهمة وضعف الارادة وسقوط العزيمة عن العمل . وما لتأخر الشرق عن الغرب سبب غير هذا

واذا اردنا ان نحفظ التوازن بين الواحد والكل على الدوام لزمنا القول بوجوب زيادة اعتناء الكل ومضاعفة سهره على قدر ما يعتري الواحد في ذلك الوسط من الخمول والانحطاط . ومن نكد الطالع ان العكس هو الواقع وهو معقول لان ذلك الكل الذي يحتاج اليه في الاستعانة على ضعف الواحد انما يتألف من مجموع اولئك الضعفاء فطبيعته من طبيعتهم والذي يضعف الفرد ويجعلهُ مفتقراً الى غيره يضعف الكل ويعوزه ومعناه ان التكافل يزداد ضعفاً بقدر اشتداد الحاجة اليه . واني اسأل القرآء عفواً عن تقرير هذه الحقائق التي هي في الواقع بديهيات

وعليه يتبين ان هذا المذهب معيب من جهتين اولاً لانهُ يولد في الامة افرادًا لا اهلية لهم في شيء من الاعمال ويساعد على كثرة عددهم

شيئاً فشيئاً . وثانياً لان الامة تضعف عن مساعدتهم كلما كثر عددهم

ما مساعدة الهيئة للافراد الا وسيلة عرضية وقتية تحصل بطريق الاستثناء عند اشتداد الضنك ببعض الناس فليست دواء يشفي العلة بل هي مسكن كالمخدرات تهدى ثورة الالم حيناً لكنها لا تنيم الالم الا اذا انامت المريض

كذلك يحتاج في تطبيق مذهب التكافل عملا الى اتفاق جميع الافراد على قبوله أي الى تحرير ذلك العقد الاجتماعي الذي ينشدهُ موسيو بورجوا ويحصر آماله فيهِ . اما اذا اعتضنا عن عمل الكل بعمل كل فرد فانا نفتح لكل واحد سبيل نجاة الهيئة الاجتماعية بتمامها كما ان الدين يفتح لكل فرد باب سلامته الابدية . فالواقع ان الحياة الاجتماعية كالحياة الابدية كلاهما متعلق بالافراد لا بالجموع وعلى كل امرء أن يتخير السبيل الذي يوصلهُ الى نجاتهِ بنفسهِ كما يتخير التربية التي تجعل ابناءهُ قادرين على الحياة باحسن الطرق والوسائل . وكلما تشبعت الافكار بان قيام المجتمع الانساني متوقف على عمل كل فرد احس كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسهِ دون غيرهِ ومال الى استعمال ما أوتيهِ من الهمة والارادة والاجتهاد .

رب معترض يقول انا نقيم حب الذات مقام مذهب عليه صلاح الانسانية وفيهِ نجاتها وهو اعتراض فخيم الالفاظ يخاف منهُ أناس كثيرون لذلك وجب ان نفصح القول لنعلم ان كان حب الذات فيما نقول او في المذهب الذي يقول بهِ غيرنا

قلت ان مذهب التكافل خيالي وأزيد عليه ولا أخشى معارضاً انهُ

صورة من صور حب الذات المخجل حتى انني كنت وضعت لهذا الفصل عنواناً آخر هو (حب الذات عند الغَيْرِيّين) وسيتضح للقرآء ان التسمية كانت صحيحة لا مجرد تلاعب بالالفاظ . ذلك لانهُ بالبحث في التكافل نراهُ يشتمل على امرين كون المرء يساعد غيرهُ وكونه ينتظر المساعدة من غيرهِ ولعمري لستُ أدري اي الاعتبارين يجذب النفوس نحو هذا المذهب ويجمل الناس يجتمعون حولهُ ان كانت رغبتهم في مساعدة غيرهم او رجاءهم المساعدة من ذلك الغير . ومن المشاهد ان الذين يميلون الى مساعدة غيرهم يؤدون تلك المساعدة من انفسهم وهم يفعلون ذلك منذ خلقت السموات والارض ولم يقولوا بان عملهم هـذا مذهب لازم في الانسانية ولم يتحروا النداء بهِ على رؤوس الاشهاد . وعليهِ فميل المرء الى مساعدة غيرهِ ليس هو الاعتبار الذي أوجب انتشار مذهب التكافل الجديد وانما الذي اوجب ذلك هو تصوُّر المساعدة من الغير حيث يمسي الواحد راجياً ان تجعل لهُ الحكومة او الامة راتباً او توجد لهُ عملاً الّا كان يعيش منهُ . هذا هو الذي يختلب الافكار ويجتذب النفوس ويحشد الجموع حول مذهب ظاهره التضامن والتكافل وباطنه الاثرة وحب الذات .

ان الرجل الذي يؤدي الجزية الى صندوق الحكومة والذي يتقاضى الراتب من ذلك الصندوق شريكان متكافلان في عملهما غير ان لكل وجه في شركتهِ فالتكافل يحلو لاحدهما دون اخيه . الا ترى ان المرء ميَّال الى التوظف اكثر من ميلهِ الى ان يكون ممن وجب عليهِ الخراج واقرب الى اعتبار التكافل في منفعتهِ من اعتباره واجباً عليه .

والخلاصة ان المرء ميال الى استخدام غيره اكثر من ميله الى خدمته وان صاح موسيو بورجوا بما يخالف ما ذكر واليك دليلين قريبي العهد منا أخذناهما من طريقة الاستعمار عندنا

الاول نتقلهُ عن استاذ الفلسفة موسيو (لاپي) من رسالة نشرها في مجلة الفلسفة العقلية يصف بها معاملة الاوروباويين للاهالي في مستعمراتنا قال (لقد نشر الاستبداد جناحيه في كل ناحية وشملت الاثرة جميع الناس باشد حالاتها وصرنا نشاهد ان حكم الشرفاء يحيي من جديد في المستعمرات حيث الاوروبي هو السيد الامير والوطني هو الخادم الحقير حيث الامير هو الذي يقضي بين اتباعه بمعنى انهُ يصادرهم في ماشيتهم ان جاءت لترعى في اراضيه أو يقدر الغرامة التي تجب عليهم وقد حذا الخدام حذو المخدومين فما وجد خادم أوروبي بين خدام وطنيين الا رأيتهُ التى ما في يده من آلات العمل وجعل يصدر الاوامر للآخرين ثم الجندي يوحي الى المدني طريقة الاستبداد وبالجملة فان عيشة المستعمرات لا تلائم الفضيلة ولا تدعو الى مكارم الاخلاق)

والدليل الثاني نأخذهُ عن موسيو (لانسان) وهو من الطبيعيين خلافاً لموسيو (لاپي) وكان حاكماً في (التونكين) وقضى في المستعمرات زمناً طويلاً ولهُ كتاب سماهُ (مبادئ الاستعمار) تكلم فيه عن علاقات الاوروباويين بالوطنيين ومما جاء فيه قولهُ (اعظم رجل متمدن يصير في المستعمرات كالطفل في معاملة المجاورات فهو يعامل الوطنيين كأنهم آلات خلقت للآلام . يعبث بدينهم ولا يحترم عائلاتهم ولا يوقر ما اعتادوا على توقيره في

مجتمعاتهم ولا يعبأ باملاكهم ولا يتهيب اشخاصهم ولا يقدّر لهم حياة وليس توحش الاستعمار في هذه الايام باقل من توحشه في غابر الازمان) ثم أتى بالشواهد على قوله فسرد وقائع وحوادث لا عدد لها. والحال واحد في كل جهة في الهند الصينية ومدغشقر وشطوط افريقيا ثم ختم موسيو (لانسان) الكلام بقوله (يجب وضع حد لهذه المعاملات الفظيعة ان كانت الحكومة تريد ان لا تسوء عقبى السياسة الاستعمارية بسببها) ونحن نرى ايضاً انهُ يجب اقامة حد لتلك المعاملات الشنيعة التي تقسم الناس الى قسمين من يستعملون التكافل في منفعتهم ومن يترقبون الفرص ليستأثروا بمنافعه والفريق الاول ظالم والفريق الثاني مظلوم ولكنهما يجتمعان في رغباتهما ان يعيشوا كلاً على الكل اي على المجموع اي على الامة

واذا بحثنا عن طريقة للخلاص من هذه الحال فانا لا نجدها في نشر مذهب التكافل لانا رأينا اقل الناس استحقاقاً للعناية قد انتهزوه فرصة لاحتكار منافعه اضراراً بحقوق غيرهم فلم يستفد منهُ الا الخبثاء الذين اتخذوا التكافل آلة يبتذون بها اموال ذلك الغير ويستعملونهُ متكأً لهم حتى كل منهم واستجار وقرب من العدم

اذا ثبت هذا علمت ان ترقي الهيئة الاجتماعية لا يقوم بالاتكال على الغير والحيف عليه وذلك هو اكبر برهان يقدمهُ كل واحد لاخيه على انهُ واياه متكافلان . ويحصل هذا الترقي بمقدار ما عند كل واحد من الاعتماد على نفسه وكفاءة حاجاته بنفسه ونشأته على استعمال قوته الذاتية وهمته الشخصية . ومعنى ما تقدم انه ينبغي الاهتمام بتربية القدرة الشخصية اكثر

من الاهتمام بتعظيم السلطة الاجتماعية

علمنا ان تربية الناس على الاعتماد على الهيئة يضعف من قوتهم الذاتية ومنهُ يؤخذ ان تربيتهم على الاعتماد على انفسهم يزيد في تلك القوة وهو برهان ساطع على ما للوسط من التأثير فان كان ملائماً للعمل اصبح العامل الطيب ماهراً والعامل المتوسط متقدماً والعامل البسيط متوسطاً والعامل الخامل بسيطاً وهكذا تترقى الطبقات واحدة بعد الاخرى

وليلاحظ أني لا اقول هذا اعتباطاً من غير ان يكون لي سند فيه غاية ما في الامر انني ألخص للقراء حوادث كثيرة كلها ثابتة بالخبر والاستقراء ودليلهُ ما كتبهُ اليَّ صديقي وزميلي الفاضل موسيو (پول دوروسيه) في الشهر الماضي من مدينة (سنسناتي) بامريكا حيث ذهب ليستطلع الاحوال في تلك البلاد قال (رأيت في امريكا كنزاً للاستقراء لا يفنى فهي بلد يأتيها المهاجرون من كل ناحية بلا انقطاع وقد اشتغل علماؤها بالبحث عن الاجناس التي فيها قابلية لاحتمال العيشة الامريكية والتي لا تقدر عليها وفي ذلك فائدة كلية لا تخفى واغرب ما شاهدت هنا هو تقدم الارلنديين منذ عشرين عاماً وكل شيء قابل للترقي والنمو يعظم ويكبر في هذهِ البلاد لذلك لا ترى الارلندي اليوم يكنس الطرقات ولم يعد هو ذلك العامل الحقير الجاهل الذي كنا نعرفهُ من قبل بل ذلك شأن قد اختص بهِ الآن (البولوني) والايتالي وغيرهما

ولا شبهة في أن هذا الاستقراء مفيد جدًّا وانه يساعد كثيراً على توضيح مسألتنا الاجتماعية التي نبحث فيها وعلى القراء ان يقابلوا بين هذا

وبين ما نقلناه عن موسيو (لابي) و (لانسان) ليتبينوا الفرق ويقفوا على حقيقة الموضوع ويهتدوا الى الصواب فيه

الاوروبي هو الذي يهاجر في الحالتين الا ان الفرق عظيم بين لنتيجتين والسر في هذا ان بعضهم اقام ببلد اتكالي اي لم يتعود اهلهُ الاعتماد لى انفسهم بل على الهيئة التي وجدوا فيها وكانت نتيجة تأثير هذا الوسط ضرة بالفريقين الوطني والاوروباوي الاول لما يصيبه من الظلم والاستبداد الثاني لما يأتيه منهما . وبعضهم اقام ببلد استقلالي اي تعود كل واحد من مله المحافظة على استقلاله تجاه الهيئة بتمامها وشب على الارتقاء بجده وعمله ستعيناً بهمته وقوته حيث القدرة الشخصية بلغت غايتها وقل تأثير الهيئة ، الحد الادنى . فاذا وصل الاوروبي الى هذا الوسط الحي سرت فيه ركة الحياة وتنبهت قواه وتبدلت احوالهُ فصار رجلاً غير الذي هاجر صبح قادراً على تحصيل حاجاته بنفسه اذ لا سبيل للاعتماد على الغير في ك البلاد ولا الى ابتزاز المال من يدهم ولا الى الاتكال على تكافل وهمي ـع النفوس كذباً وتلبيساً . تلك بلاد (المرء بنفسه) فكل ما فيها يناديك ، نفسك بنفسك . لذلك تحول الارلندي وارتقى وهي معجزة من هل على من لهم اقل المام بالعلم الاجتماعي ان يدركوا السر فيها

مضت الاجيال الطوال على ذلك الرجل وهو في وسط اتكالي حتى يهرب من كل عمل يكلفهُ بعض العناء او يقتضي بعض الهمة الذاتية داً على المعيشة من تكافل عشيرته حتى وصل بتأثير ذلك التكافل حالته التي نشاهدهُ عليها في اوروبا من الانحطاط السياسي والضعف

الاجتماعي فاصبح رجلاً ترفع عن الحرف الدنيئة التي كان مقصوراً عليها بحكم مذهب التكافل المميت ولم يعد كناساً في الشوارع والطرقات او صانعاً كالآلة تتحرك بارادة غيرها وامسى قادراً على العمل بنفسهِ وتحصيل الرزق من غير الاستعانة فيهِ الا بهمتهِ ودخل في طريق سعادتهِ

اما المهاجرون من التليانيين والبولونيين فهم اقرب منهُ عهداً بمعاشرة الامة الانكليزية السكسونية ولم يتم خلاصهم حتى الآن مما تربوا عليهِ في بلادهم ولم ينته دور تحولهم من حال الى حال الا ان الشوط الذي سارهُ الارلندي في تلك البلاد يدلنا على الغاية التي هم صائرون ايضاً اليها بالتدريج فلا بد لهم مثلهُ ان ينالوا في ذلك الوسط وبتأثيرهِ ما فيهِ سعادتهم

ولا يتوهمن احد ان هذا الانقلاب يحصل اجماعاً اي ينالهُ الكل على السواء بل هو يحصل لكل فرد على حدتهِ كما اشرنا اليه فاكثرهم عملاً واكبرهم همة اسبقهم الى الترقي ثم تليهم الطبقة التي دونهم فالتي من بعدها وهكذا لكل امرئ ما كسب

ثبت من هذا ان الامم الاستقلالية اصلح لنموّ التكافل الاجتماعي من الامم الاتكالية . وكأني بالذين يحبون التمادي في الجدال من القراء يتساءلون عن مصير الافراد الذين لا قبل لهم على الارتقاء بانفسهم في مثل ذلك الوسط الاستقلالي رغماً عن تعدد وسائل الحث والتحريض فاجيبهم بان من لوازم هذا الوسط تقليل عدد اولئك الضعفاء جدًّا بخلاف مذهب التكافل فانهُ يساعد على كثرتهم دائماً وبرهانه الارلنديون في الولايات المتحدة . ثم ان مذهب التكافل فضلاً عن كونهِ يعوّد الناس على عدم الاهتمام

بتحصيل حاجاتهم بانفسهم ويربيهم على طلب المعونة دائماً من امتهم لا يساعد الضعفاء على النهوض من خمولهم كما انهُ يضعف من همم أولي العزم بما يقلل من نتائج عملهم كما يقول علماء الاقتصاد ويلحق بهم الفقر فتقل قدرتهم على مساعدة الغير وان رغبوا فيها ما استطاعوا . ونقص الثروة في يد كل فرد يؤدي الى نقصها في يد الامة بتمامها وحينئذٍ يعدم البائس الضعيف سبيل المعونة من الافراد ومن الحكومة سواء . ولن تقوم الامة بمساعدة الضعفاء ومواساة الفقراء والبائسين الا اذا توفر المال لدى الكثير من افرادها حتى يسهل عليهم تخصيص ما زاد على حاجاتهم الى الخيرات . والذي يساعد على انماء ثروة الافراد هو الذي يساعد على انماء روح المعونة وفعل الخيرات الخصوصية والعمومية . واذا قابلت بين ما ينفقهُ الانكليز والامريكان كل عام في هذا السبيل وبين ما ننفقهُ نحن مثلاً في فرنسا مما يقل سنة عن سنة وجدت الفرق عظيماً وارتاح ضميرك من هذهِ الجهة

تلخص من هذا ان رجلنا الاجتماعي يمتاز على رجل مذهب التكافل بقدرتهِ على مساعدة الضعفاء وبكونهِ يسهل لهم ايضاً سبيل التقدم والارتقاء وهو الذي يسير بالانسانية الى طريق حل مشكلاتها وعلى الخصوص الى حل ما يسمى (مسئلة الفعلة والصناع) فهو الذي يخطو نحو فض الاشكال بمحو حالة الفعلة الحاضرة من الوجود وذلك هو مستقبل الدنيا

ربما عد هذا من قبيل السفسطة لتعوّدنا الحكم على المستقبل بالماضي ولكونهِ يصعب على الفكر طبعاً ان ينسى الاوضاع التي اعتادها وان اخذت في الانزواء والزوال وان يلتفت الى الاوضاع الجديدة التي تظهر في

الوجود هنا وهناك غير ان علائم هذا الانقلاب بادية جلية في الامم المتقدمة في طريق المستقبل وهي واضحة تماماً في انكلتره والولايات المتحدة فانك ترى الصناع في الحرف الدنيئة كلهم من الاجانب او من القادمين حديثاً ولم يمض عليهم زمن كاف ليتشبهوا باهل تلك البلاد والصنائع الرفيعة تدار بالآلات شيئاً فشيئاً والرجل ينتقل من كونهِ صانعاً او عاملاً الى كونهِ موظفاً او ملاحظاً . كذلك اصبح الصانع الفلاَّح الذي نعرفهُ في بلادنا من زمن مديد على وشك الزوال فان آلات الزراعة تكثر كل يوم حتى كأن الفلاح في كثير من اقاليم امريكا عالم يبحث في طبقات الارض عن معادنها فيحرث ويمهد ويحصد ويدرس وهو مستريح على جلسة منتظمة يقود منها دابته كأنهُ في عملهِ احد الظرفاء في عربتهِ وربما رأيته بلباس الظرفاء احياناً . ولم يبقَ عليه الا ان يتعلم اطوارهم ويتهذب بافكارهم وسيتم له ذلك . وقد اتسع ذهنه في جميع ما يرقي الزراعة لذلك لا يحجم عن استعمال كل جديد فيها

الولايات المتحدة الآن في طليعة الامم من حيث التقدم الاجتماعي كما سبقتهم في المصنوعات الميكانيكية وهما نوعان من انواع التقدم متلازمان لا كما يظن الناس عادة فالثاني نتيجة الاول والاول يتأثر كثيراً بالثاني وليس في قدرة احد ان يخبر بما تصل اليه الامم من الترقي باجتماع هذين الامرين

وجب علينا اذن ان نقلع عن التمسك باوضاع الاجتماع القديمة كما اخذنا في ترك آلات العمل التي تديرها يد الانسان فذلك هو الماضي الذي يبعد عنا كل يوم ولا مرد له ابداً

وبينما العالم الانساني يسير مظفراً نحو حال جديد نرى رجلاً كموسيو بورجوا نجله ان يكون في عداد كل الناس مع كونه يطمع في رئاسة حزب الترقي في البلاد الفرنساوية يعرض علينا ان نرجع الى مذهب تقادم العهد عليه حتى بلى ظاناً انهُ اكتشاف جديد وهو اوهى المذاهب واشدها تعسفاً واستبداداً . حقاً ليس لنا من نصيب

الفصل الخامس

﴿ ما هي احسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة ﴾

الف السير (جون لوبوك) كتاباً عنوانهُ (سعادة الحياة) وقد انتشر انتشاراً عظيماً في انكلترة حتى ان الذي عني بترجمته الى اللغة الفرنساوية لم يفرغ من الجزء الاول الا بعد ان اعيد طبع الكتاب عشرين مرة ومن الجزء الثاني الا بعد ان ظهرت طبعتهُ السابعة والسبعين

ولا يحسبن القراء ان المؤلف أمسك العنقاء وجعل يعرضها على اهل زمانه في نظير بعض شلنات يدفعونها ثمن كتابه اذ لوكان الامر كذلك لقلنا ان الانكليز ليسوا بطماعين بل الكتاب بجزئيه عبارة عن جمع حكم ونقل افكار من كتب جميع المؤلفين المشهورين وغرض المؤلف من هذا الجمع وذاك النقل ان يبرهن للناس انهم سعداء لكونهم احياء

وللدلالة على صحة رأيه جعل يسرد موجبات السعادة التي يشاهدها الانسان واحداً فواحداً كالارتياح بعد اداء الواجب واللذة من قراءة اشهر

-ما ألف واحسن ما كتب ونعمة المحبة ولذة السياحة ولذة البيت والملاذ العلمية والعشق والفنون والشعر والموسيق وبدائع الطبيعة وهكذا . وهو لكل شيء باشّ الوجه هاشّ النفس يملاؤه الامل على الدوام فلا يرى الا سروراً بحيث يضعف خصمه عن مناضلته. ومن قوله (لقد سمعت الناس كثيراً يشكون مما في هذهِ الدنيا من كفران النعم ومحبة الذات أما أنا فلم اشعر مرة واحدة باثر هاتين المصيبتين ولعل ذلك من حسن حظي) ذلك امر يوجب الاستغراب أو يدعو الى القول بان صاحبهُ رجل من البسطاء واليك اغرب منهُ قال (نحن في الحقيقة أغنياء اكثر مما نظن وكثيراً ما نسمع عن شدة رغبات الناس في الكسب والاستحواز وبعضهم يحسد كبار الموسرين ويظن السعادة في امتلاك الاراضي الواسعة غير ان الغالب ان الرجل يملك الارض والارض تملكه كما قال (أيمرسون) واذا ارتقينا قليلاً بالفكر لوجدنا ان لنا الألوف المؤلفة من الفراسخ والاميال فالشوارع والطرقات والسكك العمومية والجسور وشواطئ البحر على اختلاف صنوفها وتنوُّع مناظرها كلها ملكٌ لنا فنحن من كبار الاغنياء ولا علم لنا وليست الارض هي التي تنقصنا بل الذي نحتاج اليهِ هو القدرة على التمتع بما ملكنا وتلك مزية عظمى تتبعها مزية أخرى وهي انها لا تكلفنا عملاً ولا تطلب منا عناء فصاحب الاملاك مشغول البال على الدوام ولكن المناظر الطبيعية مملوكة لكل من لهُ عينان تبصران . وبهذا المعنى صح لموسيو (كنجلي) أن يقول بان بستانه زمن الشتاء كان الخضرة التي تكتنف بعض المكان الذي يسكنهُ لا لأنهُ كان يملكها حقيقة بل اعتباراً بالمعنى الذي يجعل

الالوف من البشر مالكين للشيء بعينه)

والكتاب كلهُ محشوّ بهذا الامل الشديد وأدلة المؤلف على مذهبه كلها من هذا القبيل ومن المعلوم ان الانكليز السكسونيين لا يقنعون بمثل تلك الادلة الضعيفة كما ان تلك الادلة ليست هي السبب في انتشار الكتاب بينهم ذلك الانتشار

ومما يجب البحث عنهُ معرفة السبب الذي لاجله لم ينتشر هذا الكتاب عندنا الا قليلاً ولاجلهِ يضحك الفرنساويون من قراءتهِ ويتبسمون لسرد أدلتهِ

ويلزمنا في ذلك أن نمعن النظر ونطيل التأمل اكثر من موسيو (لوبوك) في موضوع تلك السعادة التي شغلت الانسان طول الزمان

﴿ تعريف السعادة ﴾

نريد بهذهِ الكلمة (السعادة) حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلباً حقيقياً.

والغرض من وصف المتاعب بالمادية والادبية ان يتناول التعريف حاجتي المرء العظيمتين في الدنيا وهما راحة الجسم وراحة النفس فوجوده كله راجع اليهما

ويلزمنا قبل كل شيء ان نقف على حقيقة الاسباب التي ذهب الكثيرون الى أنها هي وحدها مصدر سعادة الانسان كالطبع والصحة والمال والدين

فاما الطبع الحسن فهو الذي يميل بصاحبهِ الى أخذ الاشياء باحسن جهاتها أي يحملهُ على اعتبار جهة الحسن في الاشياء مطلقاً . ولكل شيء

جهة حسن وأخرى نقيضها غير ان الخيال محدود مهما كان شديداً وعلى كل حال فهو لا يغيِّر من حقائق الامور شيئاً ومتى اتضحت الحقيقة ووجب التسليم بها كان اليأس أشد وقعاً وعليهِ فان توهم عدم وجود الضرر لا ينافيه

واما الصحة فانها تكفينا شر كثير من الآلام الجسمية وتجعلنا بذلك قادرين على مزاولة العمل اللازم في تحصيل المأكل والملبس والمسكن غير انها لا تعطي الا القدرة وقد تتعطل القدرة بسبب من الاسباب فيجوز ان يكون المرء بالغاً منتهى الصحة وهو مع ذلك في اشد حالات الضنك والاحتياج وما ذلك من موجبات السعادة في شيء

واما المال فكثيرون يعتبرونه أهم وسيلة في السعادة والواقع انه يضمن لصاحبهِ عيشه اليومي ويسهل له اجتياز الكثير من المتاعب المادية وليس هذا بيسير ولكن المال لا يفيد شيئاً في اجتياز المتاعب الادبية فمن شأنهِ الميل بالهمة الى الفتور واضعاف الارادة ومن أهم اسباب السعادة الامل اي رجاء الحصول على المرغوب فاذا ملكت ما رجوت ضاع جزء عظيم من ميلك السابق اليهِ والمال لا يجعل للامل محلاً لانهُ يسهل الحصول فوراً على المراد وذلك يؤدي الى ضعف لذة الانتظار وهذا هو السبب في أن الاغنياء يطلبون دائماً ملاذ جديدة وملاهي غير التي اعتادوها لانهم سريعو الشبع من كل امر في اوَّلهِ . فالمال يضيع الاهتمام بكل شيء ومتى ضاع الاهتمام فقد الرجل ذوق سعادة الحياة ذوقاً صحيحاً فلا يحفل بشيء ولا شيء يحملهُ على الاهتمام . وخطاءنا في المال آتٍ من اعتبارنا اياهُ بالنظر الى الفقر او التوسط في المعيشة والواجب ان ننظر اليهِ من حيث هو ونقدرهُ حق قدره

في الواقع ونفس الامر تقديراً صحيحاً . واذا فعلنا ذلك وجدناهُ أبتر من جهات كثيرة حتى ان صاحبه لا يتمكن بواسطتهِ في بعض الاحيان من التغلب على الصعوبات المادية التي تعرض لهُ وان خيل لبعضهم ان ذلك من المستغربات . الا ترى ان الذين يميلون في معيشتهم الى اللذات والزخارف يصرفون في غالب الاحوال اكثر مما يكسبون وينتهي بهم الامر الى تعود الصرف من غير حساب والى فقدان التعوُّد على العمل فيختل التعادل عندهم . وفي ذلك الجب العميق انهالت ثروة كبار الاغنياء في كل زمان . كم من عائلة كانت ذات بسطة كبيرة من اليسار فاصبح ابناؤها بائسين . فان دام الحال لابنائهم افتقر الدور الثاني أو الثالث ويمسون غير قادرين على اصلاح حالهم المادي فضلاً عن الادبي لان من فقد عادة العمل والكد يصعب عليه استرجاعها . كذا حال الشرفاء منا وكذا شأن الموسرين من الاواسط وهي سنة ابدية . والخلاصة ان فراغ اليد ادعى الى تحسين حال الانسان مادياً وادبياً من الثروة لانهُ ادعى الى العمل والاجتهاد

بقي علينا الدين وقد اعتبره بعضهم كافياً في تحصيل السعادة ولا شبهة في ان الدين يساعد كثيراً على اجتياز متاعب الحياة النفسية غير انه ان لم يصادف في نفس صاحبهِ قدرة على العمل واستعداداً للكد كان تأثيره قاصراً على التوكل والاستسلام الى حكم القضاء والاستسلام لامر اذعانٌ من المستسلم بانه متعب شاق . وهذا هو الاعتقاد الذي يحدثه الدين في النفوس من جهة الحياة في مثل تلك الاحوال . فيرى صاحبه انها دار عناء وبكاء ويميل الى الاعتقاد بان السعادة ليست من هذهِ الحياة الدنيا . والواقع

ان الدين لا يقصد بهِ اولاً وبالذات سعادة الامم في الدنيا بل السعادة الاخروية لانه لا يلتفت الى الامور الزائلة ولكن الى الخلود وهو افضل ما يبتغي على التحقيق . لكننا لا نبحث في هذا وانما كلامنا فيما يحصل له سعادة هذه الدار الفانية لانا لا نتكلم في التوحيد بل نتكلم في العلم الاجتماعي

ولا يغيبن عن القراء ان بعض المتصفين بالتقوى يخطئون خطأً فاحشاً في العمل بمقتضى قاعدة التسليم فيترزعون بها الى الكسل والخمول ويقولون في انفسهم ان الحياة لا تساوي تلك المتاعب كلها ثم يرمون تكلانهم كله على الله (الذي لا ينسى من آمن بهِ ولجأ اليه) وينسون قولهُ تعالى (اعن نفسك يعنك ربك) والادعى للراحة عندهم ان يرموا احمالهم كلها عليه . ومن كان هذا فكرهُ اصبح ضعيفاً لقاء اتعاب الحياة مادياً وادبياً . وعليه فالدين اذا فسد العمل بهِ يصير آلة ضعف وانحطاط مع انهُ قوام الحياة وفيه اكبر معين على تحصيل السعادة ولكن الناس يعزون أنفسهم متى فسدوا بقولهم (ان الله يبتلي عبيدهُ المخلصين) أو بقولهم (ابناء الجحيم اكبر حذقاً وأوفر حظاً في الدنيا من ابناء النعيم) وما اسهلها طريقة في ارجاع الانسان خطاياه وآثامهُ الى الله وحده

اذا ثبت هذا فلنا ان نقول بان الاسباب السالف ذكرها لا تكفي لتحصيل السعادة وانما هي من المساعدات على تحصيلها والواقع ان تأثيرها يتبع الوسط الذي توجد فيهِ وكيفية استعمالها قوّة وضعفاً ومن هنا وجب علينا ان نعرف كيف يكون الوسط ملائماً أو منافياً لتحصيل السعادة اي لايجاد ذلك الارتياح الذي يشعر بهِ من تمكن من التغلب على متاعب

الحياة المادية والادبية تغلباً حقيقياً

واذا نظرنا الى الامم وجدناها لا تسير في طريق واحد نحو السعادة بل تفترق الى ثلاث

الاولى هي التي سهل فيها تحصيل السعادة لسهولة وسائل المعيشة

الثانية هي التي يصعب فيها الحصول على السعادة لصعوبة تلك الوسائل

الثالثة هي التي تحصل فيها السعادة رغماً عن تلك الصعوبة

ولنشرح تلك الاحوال الثلاثة التي يخال انها غامضة لا يدرك المراد منها كلنا يعرف المثل المشهور ـ ليس للامة السعيدة تاريخ معروف ـ والمثل صحيح علماً

اما الامم التي لا تاريخ لها فهي التي تعيش من الرزق الطبيعي كالعشائر الرحالة التي تنتقل من مكان الى مكان بين المراتع والمروج . هنالك تكثر الاعشاب فلا يجد الرجل منهم للعمل داعياً . واهم اولئك الاقوام عشائر التتار (المنغوليين) . واني لا اذكر قبائل الصحاري كالعرب وشعوب اواسط افريقيا لانهم مضطرون الى شيء من العمل ليحصلوا اتمام عيشهم

فعند العشائر الرحالة الحقيقية تجد صعوبة الحياة المادية والادبية ممهدة مذللة من ذاتها

اما المتاعب المادية التي ترجع الى المأكل والملبس والمسكن فهي معدومة اذ الماشية كافلة لتلك الحاجات وهي تتغذى بما تُنبتهُ الارض من الاعشاب بدون عمل للانسان . وليس على وجه المسكونة رجل خلص من تلك الاثقال وأمن الموت جوعاً مثل أُولئك القوم فلا يهتمون كل يوم بتحصيل

قوتهم كما هو حالنا لان العشب قد كفاهم مؤنة ذاك الاهتمام والعشب ينبت وحدهُ ولا يحتاج النازل فيهِ الى حصده او تجفيفه او ادخارهُ . وبذلك نجا أولئك القوم من مخالب الفقر والفاقة ولا يعرفون ما نسميه مسئلة الفعلة لانهم ليس فيهم رجل أجير

وهذا الرجل الذي أمن بطبيعة الحال من جهة حاجاتهِ المادية آمن ايضاً من حيث الحياة الادبية . ولا ينبغي ان نقيسه بنا فان لنا حاجات ورغبات ومقاصد كيَّفتها ظروف اجتماعنا وأكدتها حالة معيشتنا مما لا نسبة بينهُ وبين ما هو فيهِ . وتلك الحاجات التي استحدثناها أو التي ولدها فينا وسطنا الاجتماعي تجعلنا من التعساء ما عجزنا عن القيام بها . فاذا كفينا مؤنة حاجة تولدت فينا حاجات جديدة ورغائب غير الاولى أشد تحكماً وأصعب ارضاء . لذلك قالوا (السعادة في الاقلال من الرغبات) كما قالوا (ينبغي للمرء ان يكتفي بالعيش الوسط الهني) وهو قول حسن غير ان حالتنا الاجتماعية تدفعنا الى ضد ما بهِ ينصحون . على انهم لم يرشدونا الى تلك الحكمة الا لان العمل بها نادر في الوجود . واقطع دليل على ان ذلك الرحَّالة راضٍ عن حالتهِ وهذا الرضاء هو أقصى مراتب السعادة في هذهِ الدار انك لن تفلح في حملهِ على استبدالها اذ من المقرر ان اشد الناس استعصاء على الانتقال من حال الى غيره هو البدوي الذي لا يرضى ان يستعيض عن غدوهِ ورواحهِ بالاستقرار في مكانٍ واحدٍ ولا أن يتخلى عما الف في البداوة ليعتنق ما نحن فيه من الاعمال التي نجاهد فيها لتحصيل قوتنا . والامم المتمدنة المتاخمة لتلك العشائر تعلم ما نقول فانها لم تصل الى

ادخال بعض التعديل في احوالهم الأ بشق الانفس واستعمال طرق الأعنات مما يكاد يبلغ حد القهر والاجبار . ولم ينجح القياصرة في هذا السبيل مع (السلافيين) الا بعد مرور الاجيال والقرون ومعلوم ان يد القياصرة لم تكن رحيمة أبداً ومع هذا فانهم لم ينجحوا تماماً ولا يزال السلافي على جانب عظيم من حالته الاولى يعيش في مبادئ البداوة اكثر مما يعيش في عوائد الحضارة والتمدن ولا يزال يقدر السعادة بكثرة الماشية لا بسعة الارض التي يفلحها

وقد كان القدماء يعرفون تلك السعادة في العشائر البدوية فكان (هومير) ومن بعده (ايفور) يسميانهم (اعدل الناس) وقال (كوريلوس) الرحالة (هم أولئك القوم الافاضل المدول) وقال (استرابون) (أنهم يعيشون عيشة تقشف ولاهم لهم بجمع المال) ولا يزال هذا رأي السواح في هذا العصر قال موسيو (هوك) يحدث عن (المنغوليين) وقد عاش بينهم حولين كاملين (أولئك المنغوليون لهم نفوس دينية كما ينبغي فتراهم دائماً مشتغلين بالحياة الباقية وكل ما في هذه الدار صغير في أعينهم فهم يعيشون في هذه الدنيا كانهم ليسوا منها)

ذلك هو مثال الرجل الذي يقال من رغباته ويرى السعادة في عيش وسط ليس بالمغبوط عليه . ومرجع هذه السعادة هو الوسط المادي الذي يعيش فيه لكفايته بالحاجات وتوفيره وسائل العيش أي توفير . ثم ان سهولة المعيشة تزداد لديهم بضرورة اجتماعهم فقد تبلغ العائلة منهم مئآت من النفوس كما كان عليه اسباط التوراة . فليس الرجل بمعزل عن الناس

ابداً بل الواحد منهم يستعين بأخيه فيصبحا في مأمن من طوارق الحدثان . وليس الضعفاء منهم والمقعدون وفاقدوا الاهلية والطائشون مهملين وشأنهم ولا معرضين لتلك الحالة التعيسة التي تفاقم خطبها بين القوم المتمدنين

والخلاصة انك ترى الرجل في تلك المجتمعات سعيداً بوفرة الغذاء الطبيعي ومعونة الوسط الذي ولد فيه فهو بهما في مأمن من غوائل الحياة بعيد عن موجبات الشقاء سعيد لا يبتغي عن حالته بديلاً

ويوجد بجانب تلك العشائر اقوام آخرون غير قليلين يعيشون من الاعشاب مستعينين بجمعيتهم المتكاثفة لكن على حال اقل كمالاً من الاولين فهم ايضاً في مأمن على التقريب من صروف الحياة . وأولئك الاقوام طبقات بعضها أحط من بعض في درجة السعادة وهي تبتدي من تلك الطبقة التي وصفناها لك حتى تصل الى حالة الامم الثانية التي سنتكلم عليها

تلك الامم الثانية هي التي فقدت وسائل الحياة المادية لفقد الاعشاب الطبيعية وتمزق العائلة فالرجل فيها واقف بنفسه امام متاعب عيشه ولكنهُ لا يقدم على اقتحامها بل انهُ يفرغ جهدهُ في الهرب منها . وقد يقال ان السبب في هربه هذا ما فطر عليه المرء من حب الابتعاد عن الشقاء وهو سبب صحيح من بعض الوجوه الا انهُ يلزمنا البحث عن السبب الذي جعل التربية وقيام الضرورة لا تزيلان ذلك الداعي الى البطالة والكسل

والعلم الاجتماعي يدلنا على ان هذه الامم التي تسكن القسم الاكبر من وجه البسيط وناحية من غرب اوروبا قد نشأت اتكالية ايام كان اباؤهم الاقدمون يعيشون في تلك البقاع ذاتها مما تنبت الارض بغير عناء

فامم اليوم سلالة امم الامس والفرق بينهما ان الارض لم تعد تنبت شيئاً من نفسها كما مضى .

ورجل اليوم من تلك الامم تعود الاعتماد على ما يسوق الله اليه من الرزق الطبيعي ومايساعدهُ بهِ الاهل والمواطنون ثم امسى وقد فقد المونتين واضطر الى اقتحام الاتعاب ليحصل قوته بنفسه . فالحاجة تناديه (اعمل وكن ذا عزيمة ومضاء ولا تركن الى غيرك اذ ليس من سبيل غير هذا في تحصيل رزقك وسعادتك) وفطرته الاصلية وما شب عليه من العادات يجيب هذا النداء (ان العمل والجد والعزيمة متاعب أحلى منها اجتنابها وفي البعد عنها سعادة الانسان) والغالب هو صوت الفطرة لانهُ يجد أذناً صاغية هي العادة المألوفة لا سيما وانها مقبولة يُرتاح الى الاسترسال معها

ومن المعلوم انهُ لا ملجأ للمرء من تحمل هاتيك المتاعب الا استعمال ما ورثهُ عن اباآئهِ من الاعتماد على الغير والعيشة مما يكسبون اعني بذلك التمادي في طلب المعونة من الناس شأن الزنبور مع النحلة

نم زنبور ذلك الفتى الذي بلغ العشرين من عمرهِ وكان سليم الجسم صحيح القوى ثم جعل كل اعتمادهُ على ما يتناولهُ من عائلتهِ فلا يعيش الا من مكارمها

زنبور ذلك الفتى الذي بلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين ثم هو لا ينظر الى الزواج الا من حيث المهر الذي يكون لخطيبتهِ ليكون لهُ منه سبيل سهل للمعيشة على نفقتها

زنبور ذلك الفتى الذي يحتقر المهن الحرة والصنائع المستقلة ويرى الشرف

كل الشرف في وظائف الحكومة حيث لا جهد ولا عناء ولا همة ولا اقدام فيعيش كلاً على بيت المال

زنبور ذلك الرجل متوسط الحال أو الاجير الذي لا يرى فرجاً من مصاعب الحياة في الزمن الحاضر غير الالتجاء الى الهيئة كالبلدية او الحكومة ليطلب المعونة منها ويعيش ايضاً من بيت المال

ثم زنبور ذلك الذي اتخذ السياسة مهنةً واستخدم سذاجة قومهِ فتحبب اليهم بوعدهم ما يشتهون حتى يعيش على نفقة أولئك القوم الذين يخدعهم ويلحق بهم الفقر والدمار

اذا بلغ الحال في امة هذهِ الدرجة انتفى العجب من ظهور الاشتراكيين فيها وسرعة انتشارهم بين طبقاتها اذ في مذهبهم وعد للناس بهيئة اجتماعية جديدة يكون الكل فيها من الزنابير . لكن لسوء حظ المبشرين بهذا النعيم لا وجود للزنابير الا اذا وجد النحل ولا سبيل للاكثار من الاولى الا اذا ضوعف عمل الثانية وهذهِ ضرورة يؤسف لوجودها ولولاها لحلا بالطبع لكل انسان ان يعيش من مال الجميع

ورب معترض يقول اجل ان حالة الزنابير مما ترتاح لهُ النفوس والهم كل الهم في صيرورة الانسان زنبوراً فمن نال ذلك كان سعيداً وعليهِ فلتحيي الزنابير . غير ان الامة التي يكون هذا حالها لا تساعد على تحصيل السعادة كثيراً لان من المعضلات ان يحصّل الانسان سعادته باقل عمل ممكن في امة لا قوام لها الا باكثر عمل ممكن . وطالب هذا شبيه بالرجل الذي يطلب حاجتهُ من وراء نهر جار فهو مضطر الى مقاومة الماء على الدوام

في كل يوم وساعة والنهر لا يزال يجري ضد مقصده ومن كان هذا شأنه تعذر ان يكون خلي البال سعيداً

هذه حال لا يأمن الضيم معها أولئك الذين صاروا من صف الموظفين انفسهم مع انهم قد خلصوا بذلك من متاعب كثيرة في الحياة لان غالبهم يعيش في ضيق وتقتير اضطراراً الى المعيشة هم وعائلاتهم والى تربية ابنائهم برزق قليل . ذلك هو الشقاء تحت الكسوة السوداء وهو اقسى شقاء في الوجود . ذلك بؤس لا يتمكن المرء معهُ من المحافظة على درجته بين الناس ولا هو يخلص من التألم بهِ فهو جرح يتجدد في كل صباح . وزد على ذلك انهُ يعيش مسلوب الارادة مؤتمراً بغيرهِ والآمال محصورة وللرجاء حد قريب

ثم الحال اشد في تلك الامم بالنظر لغير الموظفين الذين يضطرون الى العمل بانفسهم وهم عليه غير قادرين لانهم لم يتهيأوا اليه من قبل بالتربية والتعليم والكسبُ غير محقق فيوم يسرٍ ويوم في اعسارٍ . ولهم فوق ذلك أعين يبصرون بها وظائف الحكومة واطماع تمتد نحوها وهم على الدوام يرجعون من آمالهم خائبين

وبالجملة فالحياة شاقة على الجميع والكل متأثر بنشأته الاتكالية وهي السبب في اعتقاد كل واحد ان مال الاب مال لجميع عائلتهِ لذلك ترى الرجل يتجرد عن املاكهِ في حياته ويهبها مهراً لاولاده متى حان وقت الزواج ووجب على كل والد ان يجمع من المال ما يكفي لجميع اولاده مع ان من الصعب في هذهِ الايام ان يحصل الانسان مالاً يكفيه وحدهُ . فلما رأى قومنا ان القيام بهذا الواجب متعذر لم يجدوا لهم بداً في الهرب منهُ الا

الاقلال من الابناء واصبحنا نفضل ان نمهر ابناءنا على الاكثار من نسلنا . ومع هذا لا تزال الحياة تعبة اذ نحن نعيش عيشة ضيق وحرمان ونقتصد اقتصاد الفقراء والمساكين وذلك مما يكدّر صفو الحياة ويبطل السعادة في الامة

ولهذا الضيق في تلك الامم آثار ينبغي النظر فيها واكتفي بذكر اربعة يرجع كل واحد منها الى دور من ادوار الامة التي ظهر فيها وقد عينت باختيارها في بلاد مختلفة

فالاول هو يأس النفوس الذي امتازت به الامم الهندية وهو مذهب الفناء المعروف عندهم باسم (نيرفانا) وقد انتشر هذا الروح بسرعة بين سكان الشرق الاقصى مع ان زراعتهم لا تزال قريبة من الحالة الطبيعية الا انهم حرموا من التسهيلات اللازمة فيها ومعنى (نيرفانا) هو النجاة او السلامة وبعبارة أخرى السعادة التي وعد بها الهنديين صاحب المذهب البودي المشهور . ومدار هذهِ السعادة على ان الناس لا يرجعون بعد موتهم الى حياة كالتي فارقوها بل يدخلون في حياة أخرى غير جسمانية ولا محسوسة . ومن الموصلات اليها السبات المستمر والتسليم المطلق وهجر العمل وانكار فضله حتى يكاد المرء ينسى انهُ موجود . وهو عبارة عن انكار السعادة في الحياة الدنيا فترى الرجل منهم قد استولى عليه اليأس من تحصيل سعادتهِ الدنيوية فلا يجد لهُ ملجأً في معيشتهِ غير الانكماش والاستماتة لا يسعى لتحصيل رزقه ولا يغالب مايعرض لهُ من الصعوبات في حياتهِ بل يسلم نفسه لكل جائحة على الدوام والاستمرار

والثاني مذهب العدميين المعروفين في الامم السلافية الشمالية باسم (نهليست) وهو ضرب من ضروب اليأس ايضاً . وهم أُمم خرجوا من حالة المعيشة البسيطة الى حالة اوروبا الغربية ورأوا انهم ملجأون الى الكد والعمل فارادوا الهرب من تلك الواجبات الجديدة ولم يهتدوا اليهِ سبيلاً . لذلك تولد فيهم مذهب العدم اي انكار كل ما في الوجود ووجوب العمل بما يقتضي التخريب والابادة . وأولئك قوم لا سعادة لهم في هذهِ الدار ايضاً

والثالث مذهب الاشتراكيين وهو اليأس الذي استولى على امم الغرب الذين لا يزالون على الحالة الاتكالية قليلاً او كثيراً . والسبب في ظهور هذا الروح كما بيناهُ النشأة الاصلية التي فطرت عليها تلك الامم . وخلاصة المذهب حمل كل فرد على طلب السعادة من امتهِ وفيهِ انكار مزايا العمل والاجتهاد والهمة والاقدام . ومن أراد الوقوف على حقيقة رأيهم فليقرأ رسالة موسيو (لا فارج) ضد العمل التي عنوانها (حق الانسان في الكسل) فنها (لقد استولى الجنون على طبقات الفعلة في الامم التي ساد فيها اصحاب الاموال ونشأ عن هذا الجنون بؤس حال الناس وضنك الهيئة الاجتماعية اللذين أُصيبت بهما الانسانية منذ قرنين كاملين فكدرا صفو العيش عليها . والعمل هو السبب الفعال في فساد افكار الامم التي ساد المال فيها وهو السبب في تشويه الاجسام وتركيب الانسان) ثم أراد المؤلف ان يستدل على افضلية الكسل على العمل فذكر المثل الاندلسي (الراحة هي الصحة)[1]

---

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم

ان البطالة والكسل   احلى مذاقاً من عسل

وعلى كل فانّ ظهور ذلك المذهب يدل دلالة قاطعة على ان اهله لا يجدون سعادتهم في هذهِ الدار كما خلقت

والرابع مذهب التطير وهو الفكر الذي استولى على طبقات المتنورين في الامم الغربية وأريد بهِ تلك المذاهب الفلسفية أو التي تنتسب الى الفلسفة التي سادت بين الامم الالمانية والسلتية وبنوا عليها نظرهم في هذهِ الحياة الدنيا . نعم لا أنكر ان اليونانيين والتليان يتوسمون الخير في الحياة اكثر من غيرهم ولكن السبب في هذا عند الامتين المذكورتين سكناهم بلاداً تكثر فيها النباتات والاعشاب فيسهل عليهم زرعها زرعاً بسيطاً وذلك مما يؤيد القاعدة التي ذكرناها وقد يعيش العدد الكثير منهم من جني الثمار ولا يعملون الا قليلاً . والشحاذون في مدينة نابل هم اعظم مثال لتلك الامم لذلك تتصل الامم التي تسكن جوانب البحر الابيض المتوسط بالامم التي ترى سعادتها العظمى في سهولة معيشتها

ويتبين مما تقدم ان مسئلة السعادة مفصلة في الحالة الثالثة غير انها هي الحالة التي ينجح السعي فيها وراءها فقد رأينا الانسان يبحث عن سعادتهِ في راحته أو في انهُ لا يشتغل الا القليل ما استطاع وهو في حالة الراحة يجد السعادة الا انها عفنة ضئيلة وهو في الثانية لا يجدها أبداً

لكنهُ في الحالة الثالثة يطلبها بجدهِ الذاتي وعملهِ الخاص فلا يهرب من صعب ولا يجزع لعمل شاق بل يقدم على المتاعب ثابت الجأش ويقدرها كما ينبغي ثم يجتازها بعزم واقدام

ويخال في اول الامر ان طلب السعادة من الكد والعناء امر يشبه

التهكم المؤلم أو لعب التصيب وهو صحيح اذا لم يلاحظ الانسان في الحكم على هذا الاَّ ذاته وما يشعر بهِ لانهُ بالطبع ميَّال الى الراحة اكثر من ميلهِ الى التعب اعني انهُ يفضل السهل على العسير ولو لم يكن لهُ باعث يدعوهُ الى الحركة لصبا الى عيشة الزهاد والمتعبدين واكتفى بحشائش الارض طعاماً

ولكن لا نبحث عن شعور القارئ او عما نشعر بهِ نحن بل نتتبع الوقائع ونستقري الحوادث لنقف عليها كما ينبغي ومهما كانت غرابة الامر فان ادراكه من الميسور عقلاً والمرء لم يطلب السعادة بالهرب من الكد والنصب الا لكونهِ يستعظم الجهد الذي يجب عليه ان يتحملهُ في التغلب على الصعوبات الممكنة وعادة الانسان انهُ لا يقبل العمل المطلوب منهُ اذا علم من نفسه عدم القدرة على ادائهِ غير ان العمل الذي لا يتأتى لزيد من الناس فعلهُ لصعوبتهِ عندهُ يكون سهلاً عند كثيرين غيرهُ بل ربما كان من الامور المحببة اليهم واذا ثبت هذا ثبت بالطبع ان اولئك القوم الاشداء الاقوياء لا ينظرون الى الحياة كما ننظر نحن اليها وانهُ لا تأثير فيهم لتلك المذاهب من يأس وعدم وفوضى وتطير هم يرون الحياة كلها بعين غير اعيننا فتتجلى لهما في بهاء وجمال لذلك كان مذهبهم مذهب رجاء وآمال وحسن ظن بالاستقبال

بقي علينا ان نعرف ان كان اولئك القوم موجودون أم لا ولا يشك احد ممن قرأ الاسطر السابقة في انهم موجودون ولكني أريد ان ابرهن على امر جديد وهو ان الجمعيات الاستقلالية كما توجب رفعة اممها في العالم وتقدمها على غيرها فانها هي التي تميل بالانسان الى تحصيل اوفى حظ ممكن.

من السعادة في هذهِ الدار اذا اتفقت في جميع الظروف مع الامم الاخرى

شرحت فيما تقدم نظام مدرسة غرض القائمين بها تعليم الانسان كيف يقدر على تحصيل عيشهِ بنفسهِ وقلت انها تربي العزيمة والارادة والثبات وانها تقوّي الجسم كما تربي العقل . وشرح موسيو (روزيه) و (بيرو) في مجلة (العلم الاجتماعي) تلك الطريقة عينها في بلاد الانكليز والولايات المتحدة فعرفنا منهما ان الشاب يشب على اعتقاد ان الرجل اذا سقط يجب ان يسقط على قدميهِ كالهر سواء تعلم في البيت او في المدرسة او بين اخوانه وهم يعملون فوجهة الشبان هناك الكد والتزاحم في الحياة لا الخلود الى الراحة والكسل وهم لا يخافون من تلك الكلمات تزاحم في الحياة كد نصب لانهم لا يخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم الا من ان تربيتهم جعلتهم قادرين على مغالبتها

والواقع ان تلك الامة الانكليزية السكسونية قد اخرجتنا من معظم البلاد التي كنا نحتلها فلم يحل علينا القرن مذ كنا اصحاب السيادة والنفوذ في اسيا وافريقا وامريكا وقد انهزمنا في كل مكان امامها فهي خصمنا الموروث وهي الخصم الذي يجب علينا ان نقلدهُ في ارتقائهِ ولسنا بترداد هذا النصح نعمل كعالم وقف على حقائق الاشياء ليس الا بل كمحب لوطنهِ يلاحظ المستقبل ويأخذ بالاحوط

الا ان غرضي الآن ينحصر في بيان ان تلك التربية تجعل الرجل سعيداً اكثر من غيرهِ لما توجدهُ في نفسهِ من الاعتقاد برفعته عمن سواه واستخفافه بالمتاعب واستسهالهِ كل صعب في سبيل وجودهِ واليك مثلاً لا يخلو من

الغرابة في بابهِ وهو من ألطف ما يحكى عثرت عليه في جريدة (الطان) بقلم موسيو (دي فاريني) ،قال (اجتمع في اواخر يناير الماضي على مائدة في احد مطاعم (بوسطون) لفيف من الشبان ذوي البيوت الكريمة تخرجوا حديثاً من كلية (هاروارد) وفاقوا في العلم والتمرينات الجسمية ثم اخذوا يتجاذبون اطراف الحديث فقال احدهم وكان اسمهُ (بول جونيس) انهُ لم يبق في الولايات المتحدة فقير الا الذين لا ثقة لهم بانفسهم وانهُ لو اضاع هو جميع ما تركهُ لهُ ابوه من المال واصبح لا يملك فلساً واحداً وكان عرياناً كيوم ولدتهُ امهُ لوسعه ان يحصل عيشه وان يرجع من تلك البلاد بخمسة آلاف دولار أي خمسة وعشرين الف فرنك بعد مصاريفه كلها وذلك بعد سنة واحدة من الزمان . فتراهن معهُ اصحابه على خمسين الف فرنك واتفقوا على انه يتوجه في اليوم الثاني والعشرين من شهر يناير الى الحمامات التركية وهنالك يتجرد عن جميع ملابسهِ حتى اذا جاء الزمن المحدود بدأ في طوافه حول الارض وكانت الصعوبة عليه انه يبدأ بسياحته لانهُ كان عرياناً لذلك وجه اهتمامه اولاً وبالذات الى ستر عورتهِ باقل ما يمكن من المال. فجعل يمسح أحذية رجال المكان الذي هو فيه بجدٍ ورضاء كأنهُ لم يتعوَّد غير تلك الصنعة في حياته . ثم يتناول الراتب المخصص لهذا العمل وهو زهيد فيقسمهُ بين قوتهِ وكسائهِ ومكث هكذا خمسة عشر يوماً وهو زمن كبير نظراً للاجل المحدود لهُ وهو سنة واحدة فلما خرج من الحمام قصد مدينة لندره ليسافر منها الى الهند ولكي يحصل أجرة السفر جعل يبيع الجرائد في الاسواق ويشتغل بالسمسرة ومرافقة الاجانب كترجمان لانهُ كان يعرف

الفرنساوية والالمانية والتليانية وتوصل بصفته ترجماناً الى السفر مجاناً على احدى البواخر الامريكية الى لندره ومعهُ من المال خمسون دولار أي مائتان وخمسون فرنكاً وصار يلقي الخطب في لندره حتى كثر المال لديهِ والتحق ببعض الجرائد الانكليزية وتحصل من ذلك على مصاريفهِ الى البلاد الهندية ولما قام الى تلك البلاد اخذ معهُ متجراً خفيفاً بما جمع من المال وباعهُ في مدينة (كلكوتا) بثمن ربيح ولا يزال الآن سائراً في طريقهِ ويظهر من خطاباتهِ لاصحابهِ وما ينشرهُ في الجرائد انهُ متأسف على عدم جعلهِ الجعل ضعفين ولو استلزم ذلك مضاعفة المبلغ الذي تعهد بكسبهِ لدى عودتهِ من سياحتهِ

ويظهر ان انتشار هذا الروح في جسم الامريكانيين حرم الانكليز لذيذ المنام فقد قرأنا في جريدة (بتي جرنال) ان اثنين من شبانهم تراهنا على الامر بعينه واجتازا البلاد الفرنساوية للغاية نفسها حتى يبرهنا انهما غير متأخرين عن اخوانهما

عرفنا السعادة بقولنا انها حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلباً حقيقياً وعليهِ فكل وسط يساعد الانسان على اجتياز تلك المتاعب كما يجتاز الصبي حواجز الالعاب يساعد من غير شك على تحصيل السعادة اكثر من غيرهِ ولست أدري ان كان أولئك الشبان الثلاثة الذين ذكرتهم يفوزون بما تراهنوا عليهِ أم لا على ان ذلك ليس محلاً للنظر بل الذي يقتضي الالتفات هو تلك الحالة الفكرية التي دبت في اذهانهم وتلك الهمة الذاتية التي يدل عليها عملهم. ولا

شك انهم ينظرون الى الحياة بنظر يخالف نظر الامتين اللتين قدمنا ذكرهم مخالفة كلية فان الرجل فيهما يلقي السلاح امام الصعاب اذا اعترضتهُ في طريقه ويعيي تعيساً لشعورهِ بما هو فيه من الضعف والانهزام . اما رفيقه ففي نفسه اعتقاد بان همتهُ اكبر من كل صعب يلقاهُ وهو في الواقع أشد مراساً واثبت قدماً واعتقاده هـذا سبب في اطمئنانهِ وتبسمهِ للحياة تبسم الموقن بالنجاح . ذلك رجل قد تولى بيدهِ زمام السعادة على قدر ما يسر الله للبشر في الحياة الدنيا

لهذا لا نرى الزنابير بين صفوف تلك الامة الاَّ نادراً وليس لهم وجود في الامم الانكليزية السكسونية اللهم الا ان كانوا من تلك الامم الاتكالية الذين استوطنوا البلاد الانكليزية قديماً او هاجروا الى البلاد الامريكية حديثاً ومن المعلوم ان طائفة السياسيين في هذهِ البلاد الاخيرة من الارلنديين وليلاحظ انها هي الطائفة التي كثر شغبها وقلَّ رضاها بما قسم الله لها

حقيقة ليس من الزنابير أولئك الشبان الذين اذا بلغوا المتممة للعشرين لم يطلبوا مسعدة من آبائهم ابداً وتزوَّجوا بنساء بغير مهرٍ واحتقروا الوظائف في الحكومة وفضلوا عليها الاشتغال بالحرف الجارية والصنائع المألوفة المستقلة وجعلوا اتكالهم على هممهم غير منتظرين معونة من الحكومة أو الامة . ومن الواجب علينا ان نعتقد بان هؤلآء القوم الذين قد ترك كل واحد منهم لنفسهِ اقرب الى السعادة من أولئك الذين اذا صادفتهم صعوبة مدوا الاعناق نحو الغير يرجون معونتهُ . وهـذا الشعور هو السر في نجاح

كتاب موسيو (جون لو بوك) وانتشاره ذلك الانتشار الغريب مما لا ندرك لهُ نحن سبباً فان أدلته ضعيفة لا تؤدي بذاتها إلى اقناع واحد من قرائه بالرضى بما نال من رزقهِ الأ اذا كانت نفسهُ متشبعة بذلك الارتياح والاطمئنان وتجلت لهُ الحياة بمظاهر الفرح والابتهاج مما يبعد عنا تصوّره وبالجملة فانهُ كتاب ألفهُ انكليزي لقوم من الانكليز . وكأني بمترجم هذا الكتاب الى لغتنا وقد أحسن بهذهِ الحقيقة حيث قال (لقد شرح هذا الكتاب أجمل صفات الانكليز العقلية فهو انكليزي بما أودع فيهِ من الاستبشار وحسن الحظ بالمآل وكمال الرضا والارتياح) وهو استنباط صحيح لان المؤلف يلقب انكلترة بانكلترة المبتهجة ويقول (اذا أردت ان تعرف الحزن الصحيح فول وجهك قبل المشرق اذ ليس شيء أشد حزناً من شعر عمر الخيام او شعر ديواس[1] قالا

(الزمن الذي يقضيه المرء في هذهِ الحياة الدنيا قصير وهو لا ينال منها غير حزن وآلام ولا يدرك من حقائق الاشياء الا اليسير وقد اصبحت مسائل الحياة بغير حل ولات حين النظر فيها فقد انقضى الاجل ووجب الرحيل)

(الحياة اشبه برياح ضلّت وجهتها ونحن اشبه بصوت تلك الريح نطلب الراحة فلا نلاقي الا ما يوجب التحسُّر والانتحاب وانهمال العبرات ولا نلاقي الا عواصف تهددنا وحرباً تقتتل فيهِ)

ثم اتفق رأي المؤلف ورأينا فقال (واذا صح هذا وكانت الحياة

---

(١) قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعثر لاولهما على منظوم بهذا المعنى ولذلك سقنا الترجمة نثراً

الانسانية على قدر ما قالوا من الايلام والشدة فلا غرابة في ان العدم اي انقضاء الاكدار يكون من اقصى الاماني ولو اضاع الناس في سبيله وجدانهم وما يشعرون) وفي هذا كما قلنا بيان لوجود مذهب التطير في كتب الجرمانيين والسلتيين أي في الامم التي لم تتعوّد العمل ولم تترب على الاجتهاد كما هو موجود في فلسفة الشرقيين واشمارهم

كذلك اتفق معنا في القول بان الانكليزي السكسوني لا يهاب الكد ولا يرهب العمل ولا يخشى الصعاب وايد قوله باقوى الحجج قال في اول الفصل العاشر الذي عنوانه (الراحة والعمل) ما ترجمتهُ (انني بالطبع لا اعد ضرورة العمل بين متاعب الحياة) وهذه جملة لا اظنها تصدر من قلم كاتب نشأ في امة اتكالية لانهُ من غير شك كان يعد العمل في مقدمة تلك المتاعب اما السير (جون لوبوك) فانهُ يستثني منها العمل بلطف وصدر رحيب حيث يقول (بالطبع) لان ذلك امر طبيعي عندهُ وفي اعتقادي ان قرآئي لن يوافقوهُ كما اني اشهد على نفسي انني من صفهم . ولا غرابة فانني اقيم هذه الدعوى على نفسي كما اقيمها على قومي . ثم ترقى السير جون لوبوك في فكره فقال (ان العمل وان شق منبع من منابع السعادة متى ابتعد المرء فيهِ عن حدي التفريط والافراط فكلنا يعلم كيف ان الزمان يمر سريعاً على الانسان المشتغل وان الاوقات تثقل على الكسالى ثم الاشتغال يذهب الهم ويسري احزان المعيشة اليومية ولا يجد المشتغل من زمانه وقتاً يقتلهُ في التخيل او الاضطراب ونحن معاشر الانكليز انما نجحنا وصرنا امة حية نامية لاننا قوم نحب الشغل ونهوى العمل)

وقد مدح علماء الاخلاق عندنا العمل واجتهد اساتذة المدارس في غرس محبته في قلوب الاطفال ولكنا نمدحهُ ونوصي بهِ ونعلم محبته باعتباره احد الواجبات وكأنهُ ضرورة لا مفر منها فوجب الرضوخ لحكمها وحمل النفس على القيام بما اقتضتهُ اما عندهم فصيغة الكلام غير ذلك فهم انما يشيرون الى ان الامر يجري كذلك في العالم بطبيعة الحال ولا يعدون العمل متعباً بل يقولون انهُ (منبع من منابع السعادة) وما من احد يخالف قولهم حتى اني سألت فتاة من الانكليز فوجدتها على رأي السير جون لوبوك ترى الراحة في العمل والكد والتغلب على الصعوبة وتقول ان كل الناس في بلدها على رأيها وكنت اثناء كلامها اظهر الاستنكار فقالت ولا بد للانكليزي من عمل فان لم يكن لديهِ من الاشغال الاعتيادية ما يعمل فيهِ عمد الى التجذيف في النهر أو الى لعب الكرة والرياضة الجسمية أو قصد قمة جبل شاهق يصل اليها ولو كان في الامر خطر تلذذاً باجتياز صعب من الصعاب . ولا شك في ان الانكليز لا ينظرون الى الشغل بهذهِ العين الراضية الا لانهم متعوّدون عليهِ حتى صار في جبلتهم امراً مقضياً قال موسيو جون لوبوك (وقد شاهد أحد السوّاح الشرقيين جماعة في اوروبا يلعبون لعبة شاقة ورأى بينهم كثيراً من الاغنياء فعجب وسأل لم انهم لا يستعملون غيرهم فيما شق من هذهِ اللعبة بأجرة يدفعونها) والسائل انما جرى في سؤالهِ على حسب تربيتهِ لان الامم الاتكالية لا تنظر الى العمل الا من حيث كونه امراً متعباً . وقد جاء في المثل التركي (اولى للمرء ان يكون جالساً من ان يكون قائماً وان يكون نائماً من ان يكون جالساً وان يموت من ان يكون نائماً)

ومعلوم ان تلك الاماني بعيدة المنال لذلك كانت الامم التي تودها اتعس الامم في الحياة الدنيا وهي لذلك اشدها حزناً وكدراً . أما الامم التي تعتقد ان الاولى للانسان ان يكون قائماً من ان يكون جالساً فهي بالطبع اوفر حظاً وأوفى سعادة اذ يلزم للفوز في الدنيا ان لا يجلس المرء ما استطاع الى الوقوف سبيلاً

لكن ليس من السهل ادخال هذا الروح في الاذهان فلا يكفي لذلك ان ينادي على منابر الخطابة او في المدارس بان السعادة في العمل لان هذه الصيغة بهذا التركيب (السعادة في العمل) غير صحيحة حتى عند الذين ينطقون بها ولا يعملون بها الا قليلاً ولو كانت صحيحة لاصبح الناس اجمعون لا تنثني لهم عزيمة عن العمل ابداً اذ ما من احد الا وهو يحب السعادة حباً كثيراً والحقيقة ان معظم البشر لا يجد السعادة في العمل

والواقع ان السعادة ليست في العمل بل هي في القدرة عليه وفرق بين الحالتين فمن الناس من يقولون ليتنا نحب العمل ولكنهم لا يحبونهُ ولن يحبوهُ مع ما يقرأون في كتب الاخلاق من الحض عليه والنصح به ومع ما جاءت بهِ الفلسفة وامر بهِ الدين من وجوبهِ واسناد النجاح اليه . ولن يصل المرء الى اجتياز هذهِ العقبة الا بعد ان يكون من وسط تعود حب العمل زماناً طويلاً وذلك يقتضي ان الابوين لا يريان من واجبهما بالنظر الى ابنائهما الاَّ تربيتهم تربية صحيحة . وان الابناء يرون ان لا ملجأ لهم في الحياة الاَّ انفسهم . وان الزوجة انما يقصد بها الرفيق لا المال الكثير . وان الحكومة لا تأخذ من السلطة الا ما احتاجت اليه . ولا تتوسع في الوظائف

الا بقدر الضرورة لتشجع الناس بذلك على اعتناق الحرف والاشتغال بالصنائع التي تقتضي العمل وتستلزم الجهد وتطلب الهمم الذاتية

وبالاختصار ينبغي ان يقل اعتبار الموظف والسياسي والبطال الذي لاعمل لهُ عن اعتبار الزراع وذي الصناعة والتاجر وظاهر ان ذلك كلهُ ليس بالامر البسيط غير انهُ كلهُ لازم في تحصيل السعادة للناس وكلهُ لازم في استمالة الرجل الى العمل اولاً وغرس محبتهِ في قلبهِ ثانياً

ومهما بحثنا عن حل صحيح للمسئلة الاجتماعية لا نجد الا هذا

الفصل السادس

﴿ في ضعف المؤثر الادبي ﴾
﴿ وفي امارات نهوض الهيئة الاجتماعية ﴾

ظهر في هذه الاوقات فريق من الناس يطلب من علم الاخلاق الاخذ بناصر بني الانسان للنهوض مما آلوا اليهِ من الانحطاط ويسمى ورآه (تطمين السرائر وتهدئة الضمائر بمعيشة احسن وارضى) كما هو اللفظ الذي اصطلحوا عليه ويقولون ان الطريق الى غرضهم هذا هو تربية الانسان على تحمل الحرمان ومحبة الغير وان حالة الناس التي هم فيها اليوم ليست (مسببة عن احوالهم الاجتماعية او السياسية) بل (مرجعها الى الاخلاق والدين) . ومن هنا كان انجح الوسائل في تغيير تلك الحالة هو ان يبدأ كل واحد بتغيير نفسه وان (يولد من جديد) كما هو قولهم وقول انجيل يوحنا

وان (اول عمل يدخل به المرء باب هذا الاصلاح هو العزم على ترك محبة الذات والخضوع الى التعاليم المأثورة) وبالجملة يريد اولئك القوم لاصلاح حال البشر ان يبيدوا (زمان الاخيار) واهل التحقيق والابرار) ويقولون ان منهم من هو الآن بيننا (ولكنها الينابيع الرائقة والعيون الصافية تذهب سدى واحداً فواحداً في الاراضي المجدبة والرمال المتربة والناس لاهون فيتركونها تضيع ولا يستقون منها ومن استقى فقليل غير ظاهر) ثم يشيرون بالمحافظة على تلك الينابيع والاكثار منها

وهم مع هذا يتبرأون من الميل الى ايجاد دين جديد او اضافة شيعة على التي وجدت من قبل وينادون بانه (ليس من الغرض بناء مرسى جديد ترسو اليه الارواح وانما المراد اطلاق الينبوع في المراسي الموجودة ليملأها الماء فتتصل ببعضها)

والواقع انهم لا يأتون بدين جديد لانهم لا يقولون بمذهب مخصوص بل تلك فكرة دينية اي ميل ديني مخصوص الغرض منه مقاومة مذهب الماديين وأهل اليأس لذلك مدوا زراعيهم الى جميع الطوائف والنحل المسيحية وغيرها ممن يشعرون بحاجتهم الى مساعد اجنبي في محاربة الشهوات والتغلب على الاهواء جاء في كتابهم المسمى (عقلنا) (انا وان اعتبرنا جميع التابعين للكنائس على اختلافها من المساعدين المحبوبين لدينا نرى ايضاً في المنشقين أو المتفرقين ابناء لنا لانهم في عزلة شديدة) اعني انهم يدعون اليهم كل من آلمته الحياة ادبياً ومادياً حتى يكوّنو هيئة جديدة اساسها تضحية المنفعة الذاتية وترك محبة الذات واماتة الشهوات واغفال الاميال.

الشخصية ومحبة الغير ويقولون (ان الانسان يؤثر بارادته في نفوس الغير بمجرد اقدامه بشجاعته على العيشة الروحانية) .

لكن هل تضحية الذاتيات وتذليل النفس وحب الغير وهي التي يجمعها قولهم (المؤثر الادبي) تؤدي كما يؤكدون لزوماً الى رفع شأن العالم الانساني وايجاد النظام الاجتماعي المطلوب

هذا هو محل البحث وموضع النظر . وانا اجوز بمخالفتهم واقول بان المؤثر الادبي مهما عظم فعله لا يكفي للقيام بحاجة الهيئة الاجتماعية ولا أبالي اذا اخجلتهم بشذوذي عنهم واخجلت معهم قوماً آخرين . على اني لست من اليائسين الذين خرجوا عن جميع الاديان ولكني من المؤمنين التابعين لمذهب مقرر في الدين ولي كنيسة اركن اليها فقولي هذا ليس ناشئاً عن بغض او مجافاة بل العلم هو الذي املاه عليّ . واذا اردتم ايها القراء فابحثوا معي فيه

لنا في البحث طريق سهل حقيق وهو ان نقيس مرادهم في المستقبل بما كان في الماضي . وقد نبغ في بعض الازمان الماضية رجال من الاولياء لبررة الاخيار اعتقد الناس بحق فيهم انهم بلغوا من كمال الصفات وتهذيب لاخلاق حد الاعجاز وبرهنوا على تضحية الذاتيات ورد جماح الشهوات وحب الغير أي برهان . ولا شك في أن اصحابنا يرضون كمال الرضى ويصبحون آمنين على صلاح النوع البشري اذا تيسر العود الى مثل تلك لاوقات وظهور مثل أولئك الاقطاب ورجوع ذلك الينبوع الى مجاريه

ولننظر ماذا نتج عن ذلك في الايام الاولى لظهور الدين المسيحي

جرى ذلك الينبوع وفاض حتى فار الماء واستوى على جانبيه وكان بجانبه ايضاً ينبوع آخر يساعدهُ ماؤهُ يتكوَّن من دماء ألوف المستقلين حباً في ذلك الدين وأهله فما ازهرت رياض الاولياء في زمن اكثر من تلك الازمان وما بلغ الانسان في الادب والكمال درجة أعلى من التي بلغها فيها. ومع هذا يخال لي ان الناس لم ينحطوا الى دركٍ أسفل مما هبطوا اليه في تلك الايام بذاتها . زمان كان الحكم فيه حكم القياصرة أعني ان حكومته كانت أردأ الحكومات التي تولت زمام الناس في جميع الازمان وافظعها وهي التي سبقت غيرها في اساليب المظالم وافانين المغارم وليس لما استولى على الانسان من الذل والهوان والخسف والحرمان وفساد التربية العامة وسوء التربية الخاصة اذ ذاك نظيرا لا شذوذاً . قال القس (سلڤيان) (لسنا نجد مثل تلك المظالم في جميع الامم الا عند الرومانيين فما بلغ الفرنك من الشره هذا المبلغ وما عرف (الهونس) وأمم (الفندال) و (الجوط) مثل هاتيك الفظائع والآثام بل ان الرومانيين انفسهم الذين يعيشون بين المتبربرين لا يطيقون تلك الفعال ولا يتمنون الا انهم لا يعودون الى حكم الرومان مرة أخرى وهذا هو السبب في ان اخواننا هجروا الاوطان وفضلوا الاقامة بين المتبربرين ومن لم يقدر على الرحيل لكثرة عائلته أو ثقل بيته لم يرَ بدًّا في الحياة من الالتجاء الى الاغنياء فاسلموا انفسهم اليهم ومع ذلك لم يحمهم الموسرون من ظلم الظالمين بل زادوهم بلاءً وشقاءً)

وهذا الشقاء قديم تكلم عنه (لاكتانس) فقال (مسحت الاطيان حتى قيست الذرات منها وجرى تعداد قوائم مكعبات الكروم وأصول

الاشجار وسجلت انواع الحيوانات على اختلافها في الدفاتر والاوراق ولم تغب نفس واحدة عن الحاسبين وقد حشدت الخلائق في المدن من جميع الجهات وسارت قوافل الرقيق تروح وتغدو في الخلاء وسمعت اصوات السياط وضربات التعذيب صاعدة من كل جهة ومكان وكان الرجل يدفع الضرائب عن ارض لا يملكها ولا هي في يده حتى العجزة حتى المرضى حتى الاموات سجلوا في دفاتر الصيارف وضربت عليهم الجزية أي على الاحياء من أجلهم)

ولم تترك تلك المظالم بغير طعن ولا تنديد بل قام الالوف من القسس والرهبان والاولياء لنصرة المظلوم ورفعوا اصواتهم بالتنديد على المعتدين وجعلوا يعظون الناس باتباع اسلم المسالك وكانوا لهم في ذلك قدوة حسنة . ولكن الانحطاط استمر في هبوطه وسار سيراً حثيثاً ولم تجدِ الاقوال ولا نجحت التعاليم ولم يقف الدمار برهة واحدة من الزمان بل ظل يتقدم حتى استحكم الفشل وتم التمزق والانحلال

هنالك اقبل المتبربرون واتوا بتلك المعجزات التي عجز عنها اولئك الافاضل والاولياء بسهولة لا مزيد عليها ومن دون ان يلتفتوا الى ما يصنعون ورغماً عن توحشهم ومعائبهم وما ارتكبوا من الجرائم والآثام فبرزت من بينهم الامم الحاضرة التي تخالف الامم الغابرة كل المخالفة وتفوقها من حيث الاخلاق والاحوال الاجتماعية

ربما يعترض بان المتبربرين انما نجحوا في تغيير الاحوال الاجتماعية لانهم نشروا في الامة الرومانية بساطتهم في المعيشة ولانهم كانوا اقل فساداً

في الاخلاق لقلة المال عندهم الا ان هذا الاعتراض يسقط اذا لوحظ ان الامم المتبربرة ليست كلها هي التي احتلت البلاد وان الذين جاؤا منهم اليها لم يكونوا من ابسطهم معيشة واقلهم مالاً (راجع في شرح هذا الدليل ما كتبه موسيو دي نورفيل) في مجلة العلم الاجتماعي تحت عنوان (تاريخ النشأة الاستقلالية)

على اني لا انسب نجاح المتبربرين الى توحشهم ورذائلهم وجرائمهم وسأبين فيما بعد سبب هذا التحول واكتفي الآن ببيان انهم قاموا بما عجز عنه غيرهم وان ذلك يدل على انهم كانوا يحملون معهم روحاً اشد بأساً واكبر قوة من فعل المؤثر الادبي

ولنا في ارلنده مثال آخر على ضعف ذلك المؤثر الادبي فقد سميت تلك الجزيرة في القرن السادس بجزيرة الاولياء والقديسين وكانت مشحونة بالمعابد والاديرة ومنها ذهب المرسلون لنشر الدين المسيحي في الامم الجرمانية وكان في امكان جمعية الاخلاق ان تجد فيهم انصاراً بقدر ما تريد لان كل الناس في جميع الاقطار كانوا مشتغلين بتلك (الحياة الحقيقية) وكانت تلك البلاد غاصة بالرجال الذين اتصفوا بما تسمى اليه من الاخلاق كحب الخير والعقل والتقى وما كان اعتقادهم كنار القش لا تكاد توقد حتى تصير رماداً بل هو اعتقاد متين لان ارلنده لا تزال الى اليوم مهد الحمية الدينية وكان من اللازم ان هذه الحياة الادبية توجد في تلك الامة حالة اجتماع من احسن الحالات واكثرها دواماً وارضاها ولكنها لسوء الحظ ما جنت الا دوام التقهقر وكان مبدأ ظهوره وهي في اشد حالاتها تمسكاً

بتلك الاخلاق ولا تزال هاوية حتى الآن

وهنا ايضاً لا انسب تأخرها الى نموّ الاخلاق والدين فيها لانني اقع بذلك فيما وقعوا فيه من الخطأ اذ قالوا ان بين حركة الاخلاق وحركة الامم نسبة كما بين العلة والمعلول وهو خطأ انا اجتهد في نفيه والتحذير منه وسأوفي هذا المقام حقه لانهُ مفتاح الموضوع الذي ابحث فيه

بلغت حركة الاخلاق والدين في ايتاليا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر مبلغاً عظيماً وظهر فيها من القائمين بتلك الحركة كبار من اهل الدين كالقديسين (فرنسوا داسيز) و (كلير) و (انطوان دي بادو) والسعيد (يواقيم دي فلور) و (حنادي پارم) و (فراسا لامبو) و (يعقوبين دي تودي) و (سليستان) و (كترين دي ستين) وغيرهم وظهرت طوائف الفرنسيكان و (كلاريس) التي ادهشت الدنيا بفقرها وخضوعها وهما الفضيلتان اللتان يحلهما اصحاب المؤثر الادبي اعلى مقام لقولهم انه لا صلاح للناس (الا اذا تجردوا عن التعلق بكل امر لا يكون ضرورياً) ولقولهم (عجباً لقوم يأتون لينصحوا الامة وهم في العربات راكبون مع انها لا فائدة لها من اقتنائهم تلك العربات وهم بذلك انما يزرعون الحسد في القلوب بما يظهرون من التأنق والترفه ويؤكدون بهذا وجود طبقات بعضها فوق بعض مع انهم يقولون ان ذلك وهم وخيال وعليه فاذا اردنا ان نشفق حقيقة على الامة ونتأسى لما هي فيه من الآلام ينبغي لنا ان نتجرد عن كل شيء من شأنه ان يجعل الحياة في الظاهر حياة تفاخر وتنعم ولا محيص لنا عن العمل بهذا الواجب وان كان شاقاً كما قدمنا اذ يجب علينا ان نعكس سلم احكام العقل فنجعل الفوقي

تحتياً والتحتي فوقياً وبالجملة لا بد لنا من قلب المقول قلباً تاماً فاذا لم تتهيأ النفوس الى هذا الانقلاب فلا بد لها من الانتحاب على مفاسد الناس كما يبكي الاطفال) ولو ان هذا الخطاب قرئ على القديس (فرنسوا داسيز) لامضى عليه باليدين لانه كان يريد ايضاً (ان يتجرد المرء عن كل ما ليس ضروريا) قال (اذهبوا ولا تلبسوا فضة ولا ذهباً ولا تأخذوا مالاً في جيوبكم ولا وطاباً ولا بردين ولا نعلين ولا عصا) ونحن نعلم ما كان لمذهبه من سرعة الانتشار وكثرة اقبال الناس عليه فلم يمض على تأسيسه تسع سنوات حتى تمكن من ارسال خمسة آلاف مريد الى الجمعية العمومية في (آسيز) وبلغ عدد اصحابه مائة وخمسة عشر الف نسمة يقيمون في سبعة آلاف دير وذلك غير اديرة النساء وعامة القوم الذين مالوا الى ذلك المذهب وجروا عليه

ولو ان تلك الجماهير اصغت الى هذا النداء لاصبح اصحاب المؤتمر الادبي آمنين على تحسين حال الامة الفرنساوية لكن الحوادث دلتنا على ان انتشار الاخلاق والدين ذلك الانتشار لم يؤثر باكثر مما كان لهُ من النتائج في الدولة الرومانية وايرلنده التعيسة . وظلت عوامل التقهقر تنهك الامة التليانية بين فوضى سياسية وفساد اخلاق تحمر منهما امة الرومان ايام عبادة الاصنام . ولم تقتصر النهضة الجديدة على ارجاع التليان الى ما كانت عليه الامم الغابرة من الاخلاق والفنون بل اعادت اليها ايضاً رذائلهم الاولى . وانتهى الحال في ذلك البلد بتقويض اركان نظامه الاجتماعي والسياسي ولم يغن عن ذلك سعي القديسين والاخيار وما كان لهم من النفوذ ولم يقتد الناس بهم فيما كانوا به يتظاهرون

لست ابني الاكثار من ايراد الامثلة فتاريخ تلك الازمان محشوٌ بها ولكني استميح القراء في ذكر شاهد واحد

ذهب الناس في هذهِ الايام الى تعظيم آداب الديانة البودية واحلوها مكاناً علياً وهي في الواقع شديدة الاشفاق على الضعفاء والبائسين كثيرة الحنان على المظلومين غير ان هذا ليس المراد بل المدار على معرفة ما اذا كانت تعاليم تلك الديانة اوجدت حلاً للمسئلة الاجتماعية ونهضت بامم الهند والشرق الاقصى التي كان لها عليها التأثير العظيم من وهاد الانحطاط الى أوج السعادة والهناء

بلى ان انحطاط تلك الامم غير محتاج الى دليل وما على الباحث الا ان ينظر بعينهِ ليعلم كيف الحال وليوقن بان آداب تلك الديانة لم تنتشل تلك الامم من الحضيض الذي هم فيهِ

ومن اظهر البراهين على عدم نجاح المؤثر الادبي في تحسين حال الامم ان الذين ينكرون قولنا لا يسعهم ان ينكروا ما يشاهدون في احوال الامم مثلنا بل ان الحق يخرج من افواههم بالرغم عن ارادتهم مدفوعاً بقوّة الحوادث والمشاهدات وهي اكبر الدوافع وألزمها بياناً

اليك ما جاء في منشور الحزب المشار اليه قالوا (ثم نحن نعلم ان العائلات والمدارس تقول للاطفال انه يجب على الانسان ان يكون صادقاً اميناً من اهل الخير وان يكون صدقه وامانته قائمين باخلاصه ونزاهته . ولو كان مجرد قول الشيء وسماعه من المخاطب كافياً للعمل به لاصبح فتح

الضمائر واجتذاب القلوب الى الدين امراً يسيراً • كذلك قد انتشرت الكنائس والمعابد والهياكل انتشاراً عظيماً ويدخلها الكثير من الاطفال ليتلقوا تعاليمها والعدد العديد من الناس ليسمعوا الوعظ والنصائح وتشاهد اعينهم بما يمثل امامها من المناظر والاحتفالات كيف ينتقل المرء من حالتهِ الاعتيادية فيصير من اهل الخير تقياً • وللوعظ والارشاد رهبان وقسس يعدون بالآلاف وهم لا يفترون عن اداء ذلك الواجب • فلو كان هذا كله مما يوصل الى الغاية وحده وان عز نوالها لاصبحنا بها ظافرين لكنا مع ما نقول لا نرى الانجيل سائداً في النـاس ولاهم يعملون بمقتضى قواعد الحكمة الصحيحة التي أسسها عظماء الفلاسفة في الاعصر الاخيرة والتي تطابق تعاليم الانجيل ومبادئهِ • والجلي الواضح ان الفرق عظيم بين درجة الكمال التي يشعر بها الوجدان بعد هذا العناء وبين ما تجري عليهِ فعلاً من الاخلاق والآداب) (راجع كتاب عقلنا صحيفة ١١)

ولو اني القائل لمـا أجدت كما أجادوا والعجب من كون الذين كتبوا ما نقلنا لم يدركوا مكان الضعف في مذهبهم الذي أسسوه على المؤثر الادبي دون سواهُ • يعترفون بان (ألوفاً من القسس والرهبان يعملون على الدوام لانجاح مقصدهم) في الاخذ بناصر الامم من وهدتها وأولئك القسس والرهبان هم من جميع المذاهب والاديان فنهم الكاثوليكي والبروتستانتي واليهودي ويا ليتهم كانوا وحدهم بل اضافوا اليهم (عظماء فلاسفة العصر) وخرجوا من هذا كلهُ يعترفون والحزن ملء قلوبهم بانهم كلهم امسوا خائبين وبان (الناس لا يعملون بما قضي بهِ الانجيل وما قرره الحكماء) واعجبه

منهُ انهم بعد ذلك يقولون وهم مطمئنون هادئون بوجوب (الابتداء في العمل من جديد) ويؤملون النجاح حيث لم تنجح الكنائس والمعابد على اختلاف مذاهبها مع ما كان لها من قوّة السلطان ونفوذ الكلمة وعلوّ الشان كانهم لم يعرفوا ان عدم نجاح تلك المساعي مع ما سوعدت بهِ من الاعمال والاخلاص والتجرد عن الذات وفعل الخيرات وتضحية النفوس والارواح وحب الجار دليل على انهُ لا شيء ينفع ولا مريد ينجح ان دام يسلك من ذلك الطريق . وكل عالم خابت تجربته لا يغيب عنهُ هذا الخاطر البديهي البسيط ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن ان المؤثر الادبي لا يكفي لتحقيق سعادة الامم ودوام نعيمها وتحصيل مجدها الاجتماعي وانهُ ينقصه شيء آخر فقدانه هو السبب في تخلف الغرض المراد

فلنبحث حينئذٍ عن ذلك الشيء الذي يعوزنا

وليسمح لي القراء ان اضرب في البيان مثلاً استعيرهُ من الانجيل واظن انني بهذا التشبيه لا اغضب اصحاب المؤثر الادبي

يمكن تشبيه المؤثر الادبي ببزرة تنبت ان غرست في ارض صالحة ولا تنبت ان خبث مغرسها . وعليه فلجودة الارض وفسادها تأثير عظيم . ولست بهذا اقول قولاً جديداً وانما هو قول متفق عليه اجماعاً بالتقريب وقد قررهُ الوعاظ وعلماء الاخلاق والمتكلمون من كل مذهب ودين الف الف مرة من يوم ان ظهر الانجيل وصار من العاديات لصحتهِ وبداهتهِ

غير انهم لسوء الحظ اقاموا بجانب هذهِ الحقيقة خطأً ألبسها من الظلام ثوباً فاخفاها اذ حسبوا ان جودة البزرة تولد جودة الارض وتقتضي

الانبات وقالوا (ليس من ارض غير صالحة وما الفساد الاَّ في البزور) وظاهر انهُ لم يبقَ بين هذا القول وبين اهمال النظر في طبيعة الارض التي يراد الغرس فيها الاَّ مرحلة قصيرة وقد اجتازوها باسهل ما يكون فانتقلوا من قضية الى قضية حتى قالوا ما نصه بالحرف الواحد (ليس محل البحث معرفة ما اذا كان الزمن الحاضر أردأ من الزمن الماضي لانه ليس في استطاعة احد ان يحقق شيئاً في هذا الباب فمن العبث ان يسأل عنه) ومعناه ان من العبث البحث عن طبيعة الارض المراد غرسها . ادعوا هذا بغير دليل وملأوا اليدين من بزور الاخلاق ثم بزروها في كل صوب ومع كل ريح تهب وعجبوا بعد ذلك من تخلف نبتها او انهم اخفوا عجبهم بما ذهبوا اليه من انتظار النبت يوماً لا يعرفون لهُ وقتاً فقالوا (ان المقصد خطير والعمل جليل فلا يطمعن احد منا في ان يدرك بوادر تحققهِ غير ان هذا لا يغير من واجبنا لان النجاح ليس من اعمالنا (راجع كتاب عقلنا صحيفة ٣٦)

اجل انما النجاح هو الذي من عملنا وهو كل العمل بل لا عمل لنا الا هو . ومن المستغربات ايها الناس ان تدعوا القيام بذاك المقصد الامجد الرفيع الشأن وهو النهوض بالامم من حضيضها من حيث الاخلاق والاحوال الاجتماعية ثم انتم تدعون مع هذا ان النجاح أي نهوض الامم ليس من عملكم . انكم اذن قوم تحبون الفنون لذاتها ومكارم الاخلاق لمكارم الاخلاق

ما عدم نجاح اصحاب المؤثر الادبي وحده ممن خلوا من قبلكم الاَّ مسبب عن ذلك الاعتقاد الفاسد بانه لا تأثير لطبيعة الارض التي تلق

البزور فيها وبانه من (العبث) الالتفات اليها. اما طبيعة الارض للاجتماعية سبب من الاسباب الجوهرية التي لها التأثير الاعظم في نجاح المؤثر الادبي وخيبتهِ . ولا اريد الاستدلال على ما اقول الا بتجارب موسيو (بول دي جاردان) صاحب الدعوة الى تأليف القلوب حول المؤثر الادبي فقد التقينا في ايدنبورج ايام قصدناها لالقاء بعض الخطب هناك هو في مؤثره الادبي وانا في العلم الاجتماعي ورأيته متعجباً من اقبال الناس على مذهبهِ ويرى كما اخبرني (ان الارض صالحة جداً والواقع انهُ لقي من اهل تلك المدينة قوماً يصغون اليه بكمال الالتفات ويسمعون حديثهُ بجد واهتمام وعلى افكار تليق كل اللياقة بمذهبهِ ونشر مباديه وكان مندهشاً من الفرق بين استمداد الافكار في هذه المدينة وبين حالة الافكار في فرنسا اذ يوجد بين اصحابه انفسهم عندنا من يتبعهُ لمجرد الانضمام اليهِ حباً في التقليد والتمسك بكل شيء جديد جرياً على اميال الفرنساويين في هذه الايام الى علوم الادب والاخلاق فان الرجل منا اليوم يتمذهب بمذهب كذا أو كذا ليقال كما جرى على ألسنتهم ذلك أظرف واحلى ذلك احكم وادق ذلك هو الرأي الاخير ذلك ميل من الاميال وهكذا من الالفاظ الغريبة التي درجت بينهم . فاذا تبدل الحال أو جد جديد رأيتهم يتسارعون الى ترك ما تعشقوا وذهبوا يتفرجون على الرأي المطل كما يترك الرجل رداً الصيف ليلبس ثوب الشتاء . وفي كل هذهِ الادوار ترى عامة القوم يقلبون ذلك الجد هزلاً كما هي عادة الفرنساويين في قلب كل شيء تهكماً

تلك ارض ليست صالحة لوضع البزور فيها والنشأة الاجتماعية الحاضرة

ليست مستمدة لقبول فعل المؤثر الادبي كما قامت في وجهه عند الامة الرومانية وفي ايرلنده وايتاليا وفي الشرق حيث لم يأت بما كان ينتظر منه من المزايا ولا بما أرادوا ان يكون لهُ منها

وجب اذن ان يبدأ بتغيير النشأة الاجتماعية ذاتها ان كان المراد الوصول الى فائدة صحيحة اعني انه ينبغي البدء في الاصلاح باوله

واول ما يجب البدء فيهِ عندنا حتى يكون المؤثر الادبي صالحاً للغرض المطلوب تربية الرجال واعدادهم للحياة الحقيقية . ونحن اليوم نعلم ابناءنا ان منتهى الامل ومنتهى الحكمة هو الخلاص بما في الجهد من متاعب الحياة وتقلباتها . يقول الوالد لولدهِ (يابني توكل اولاً علينا في دنياك فانك ترى كيف نقتصد وندخر لنجمع لك مالاً جزيلاً نقدمهُ لك مهراً يوم زواجك . ولقد بلغ حبنا لك مبلغاً لا نستطيع معهُ ان نترك امامك عقبة من عقبات الحياة الا ذللناها ما استطعنا . ثم توكل بعدنا على اقاربنا واصدقائنا في معونتك والتوصية بك حتى تنال مرتزقاً . وتوكل ايضاً على الحكومة فلديها من الوظائف عدد لا يحصى وهناك يبيت المرء مطمئن البال آمناً من التقلبات يقبض راتبه في آخر كل شهر على التوالي ويترقى بطبيعة الحال لمجرد وجود المعاش وحق التقاعد والوفاة حتى انك لتعرف راتبك متى بلغت سن كذا وكذا ومتى تنال المعاش فتقعد عن العمل آمناً مستريحاً بحيث انك بعد ان تكون قضيت زمناً من حياتك وكأنك لم تأت عملاً يمكنك ان تعيش بقية عمرك من غير ان تأتي عملاً ابداً وان كنت لا تزال في سن يكد فيه المرء ويتعب . ولما كان ايها الولد العزيز راتب الوظائف زهيداً وما كل

ما يتمنى المرء يدركه ينبغي لك ان تتوكل ايضاً على المهر الذي تأتي به لك زوجتك وعليه فمن واجبك قبل كل شيء ان تبحث عن زوجة غنية وليطمئن بالك من هذه الجهة فسنبحث لك نحن عليها وسنجدها ان شاء الله . تلك ايها الولد العزيز هي النصيحة التي يعليها علينا حبنا لك وميلنا اليك)

هذا هو القول الذي يسمعهُ الولد كل يوم في بيت أبيه ومن جيرانيه ومخالطيه واني ذهب ولا شك في انه يعوّده من غير شعوره على الاعتماد على غيره اكثر من نفسه ويبعده عن حب المرتزقات التي تقتضي الجد وتستلزم الهمة والاقدام وقد يصيب فيها او يخيب كالزراعة والصناعة والتجارة ويجعله ميالاً الى الحياة المستريحة

ومتى صار هذا نظره في الحياة جمدت ارادته وخمدت همتهُ وارتخت منه العزيمة وصار غير قادر على الكد والعمل ميالاً الى الهرب من الصعاب لا راغباً في مغالبتها يبحث عما في الحياة من المسليات لا عن الجديات ويمسي غير قابل لتأثير ذلك المؤثر الادبي الذي يطلب الكد ويوجب على الانسان ان يقهر نفسه ليملكها

هذا هو المانع الاكبر للعمل بمقتضى الارشاد الادبي وحده ولا يمكن ازالته بالمؤثر الادبي وحده لان الوسط الاجتماعي كله متضافر عليه فالمؤثر الادبي يقول (يجب على المرء ان يكون مستعداً لاجراء ما فيه كلفة عليه) ووسطنا الاجتماعي كله يصيح بضد هذا ويغشي بصوته كل صوت عداه . وجب اذن تغيير هذا الوسط قبل كل شيء وان يكون تغييره على النحو الذي يوجب نموّ همم الافراد الذاتية وبعبارة أخرى توجيه الناس الى اعتناق

(الحياة الحقيقية)

يقولون ان هذا امد بعيد ولكن اقرب الطرق هو الذي يؤدي الى الغرض المقصود والمؤثر الادبي باعتراف اهله لا يؤدي اليه

على ان الطريق ليس بعيداً كما يظنون لان الزمان يدفعنا نحوه ودافع الزمان اشد البواعث كلها والواجب علينا ان نوجه اعمالنا ونلفت هممنا الى معرفة هذه الحركة ونساعدها في فعلها ونستبطئها لا ان نقاومها ونعيقها ونوخرها

وها انا اذكر بوجه الاختصار علامات تلك الحركة وبوادرها

العلامة الاولى اختلاط الجنس الانكليزي السكسوني ومنافسته انا لا يمكننا ان نتخلص من تلك المزاحمة والمنافسة فانا نلتقي مع ذلك الجنس المقدام المغير في جميع الاقطار التي يمتد اليها نفوذنا . نجده على ابوابنا في اوروبا ونجده انى ذهبنا في البلاد الاجنبية وهو الذي نجدهُ في كل مكان نتخذهُ مستعمرة لنا او نضع فيهِ اي عمل كان . ينافسنا حيث وجدنا بزرّاعه ومستعمريه وصنّاعه وتجاره . وانتم تعلمون ما في منافسته من الخطر علينا لما امتازت به من عزم القائمين بها وثباتهم وخبرتهم بالمسائل العملية وتعودهم الاعتماد على انفسهم . فيجب ان يكون لنا مشجع من هذه المزاحمة وتلك المنافسة لان المرء ينبعث الى العمل اذا ضاق الفضاء امامه وخاف التقهقر من المواقع التي يحتلها ويستفيد من التمثل بخصمه ويتأثر به في احواله واعماله

ونحن انما نحث الشبان الذين يحضرون درسنا في العلم الاجتماعي على الذهاب الى لندره لكي يتلقوا ذلك الدرس المفيد بالخبر والعيان فيها اذ

يجتمعون هنالك باهل تلك الامة ويتعلمون منها المزايا التي تفضل بها من عداها

غير ان هذه العلامة لا تكفي للدلالة على ان الترقي بدأ فينا اذا لم تقترن بغيرها مما هو كائن في الامة نفسها

العلامة الثانية خيبة طريقة التعليم عندنا كما اجمع الناس على تحقيقه خيبة التعليم ظاهرة لجميع الناس لذلك يزداد عدد المنددين يوماً فيوماً كما يزدادون جرأة في التنديد واقداماً وفيهم من كل صنف حتى من المدرسين ووزراء المعارف العمومية وجميع الاحزاب السياسية والكل متفق تقريباً على ان المدارس لم تأت بما كان يرجى منها . والمشتغلون بالتعليم يشاهدون سقوطه وانحطاط درجته على وجه العموم . نعم تعلم المدارس شباناً يخرجون منها حائزين للشهادة الثانوية (بكالوريا) أو موظفين ومستخدمين ولكنها لا تربي رجالاً قادرين على تحصيل عيشهم بانفسهم

ودليلنا على وجوب ادخال التحوير في طريقة التعليم عندنا ما قرأناه ضمن خطاب ألقاه في هذا الموضوع على احد النوادي موسيو (لا ڤيس) رئيس فريق من رجال التعليم عندنا يسعون في الوصول الى تلك الغاية حتى يكون التعليم صالحاً لاستثمار ما اودع في المرء من القوى والملكات وهو (اني أذكر كلمة قالها لي احد الشبان الانكليز) وهي (ارجوك ان لا تظنني من العلماء فان المدرسة لا تعلمنا شيئاً كبيراً اللهم فيما اظن الا كيف نسير في الحياة (وما اجمل هذا الفخار الانكليزي الذي اندرج طي هذا التواضع في المقال ولا شك عندي في ان زائري ما كان ليرضى ان يستعيض عن علم

السير في الحياة بمعارفنا المدرسية ولو اني عرضت المعاوضة عليه لاجابني انه انكلتره محتاجة الى رجال تعوّدوا الاعتماد على انفسهم وشبوا على الاستقلال والاقدام ليكونوا لها تجاراً وساسة وصناعاً)

وليس بيسير انا قد عرفنا حاجة طريقة التعليم عندنا الى التغيير والاصلاح وانها لا تعلمنا (كيف نسير في الحياة) ولا تعوّدنا على (الاعتماد على انفسنا) فان ادراك الخطأ اول خطوة نحو الحقيقة

العلامة الثالثة تقدم التمرينات الجسمية عند الشبان

كفانا ما احتقرنا من التربية الجسمية فقد جهلنا منها حتى اسمها . وكلنا يعرف مدارسنا وطول دروسها وقصر اوقات الاستراحة منها وعدم وجود تمرين من اي نوع كان ونزهتها التي تشبه نزهة المسجونين حيث يروح التلامذة ويغدون بين اربع حيطان مرتفعة تحزن النفوس ثم فسحة يوم الخميس ويوم الاحد على النظام العسكري اذ يخرج الطلبة صفاً صفاً كما يتريض الشيوخ لا الشبان . ولا شك في ان البقاء تحت هذا النظام يطفئ همة الجسم ويجعله عائقاً لصاحبه لا مساعداً له . وعليه فلا يتأتى نمو القدرة والاقدام وحب العمل والميل الى الاستقلال . والرجل اذا كان متمكناً من آلة طبيعية جيدة يكون أشد وثوقاً من نفسه . واقدر على مغالبة الحياة واقتحام متاعبها واكثر ميلاً الى العمل لا الى البطالة والبقاء تابعاً كما لو كان موظفاً ويشعر من نفسه شعوراً اعظم برجوليته وهو كذلك في الحقيقة . وقد انتشرت التمرينات الجسمية انتشاراً عظيماً منذ بضع سنين كما هو المعلوم وذارت اسماء الالعاب المختلفة الانكليزية على ألسنة الفرنساويين ودخلت

في لغتهم وخصصت كل جريدة قسماً من صفحاتها لنشر ما يتعلق بتلك الألعاب وأنشئت فيها جرائد مخصوصة تطبع بعضها ما يزيد على عشرة آلاف نسخة في كل مرة وصار يجتمع للتفرج على تلك الالعاب في بعض الاماكن ما ينوف على العشرين الف نسمة وقد يغص المكان فيرد الزائرون • ولا شبهة في ان الشبان الذين جذبتهم تلك التمرينات الى هذا الحد هم اقدر من غيرهم على تحمل اتعاب الحياة واكبر همة واشد عزماً لانهم تعلموا كيف يتغلبون على تكاسل اجسامهم ويحكمون على حركاتها وتلك احسن الوسائل للنجاح في ما تقتضيه الحياة من الاعمال واصبحت هذه الشبيبة محل الامل وموضع الرجاء

العلامة الرابعة كثرة التزاحم على الوظائف الادارية والحرف الادبية

غصت وظائف الحكومة والحرف الادبية باهلها حتى ضج الناس كلهم وامسى على باب الوظيفة او الحرفة الواحدة عشرة طلاب وعشرون ومائة لان كل الناس راغب فيها وزاد عددهم حتى ملئت بهم دهاليز المصالح الادارية وضاقت رحابها وتهافتوا على حمل كتب التوصية وباتوا حيارى • ولما اشتد الامر ظهر في الوجود فكر جديد وهو ان الناس صاروا يشعرون بصعوبة نوال تلك الوظائف وقل الامل فيها وهي لا تجزي عن الاتعاب التي يقاسونها للوصول اليها وبدأت العيون تشخص الى الحرف المستقلة التي هي ايضاً اكثر ربحاً واوفر كسباً الا انهم لا يزالون مترددين ولكن الشخوص موجود فلنترك الامر لفعل الزمان اذ لا بد لهذه الحركة من الظهور تماماً وقد ظهرت من قبل في الشبان الذين هم اكبر استعداداً وابعد نظرا

العلامة الخامسة　هبوط فائدة المال

بعد ان كانت فائدة النقود خمسة في المائة نزلت الى اربعة ثم صارت ثلاثة في هذهِ الايام بل ان فائدة احسن القراطيس اقل من ذلك ووجب حينئذٍ ان لا يعتمد الانسان على ايرادهِ أو مهر زوجتهِ وصار من الصعب كفاية الحاجات برواتب الوظائف لقلتها واضبحت معيشة الرجل من ايرادهِ الخاص أصعب واشد حرجاً اذا اكتفى بهِ وركن الى البطالة وتلك حال من اقوى البواعث في حمل المرء على العمل بنفسه وان لا يعتمد الاَّ على نفسه . وليس في قدرة الناس ان يستعصوا زماناً طويلاً على اجابة هذا النداء لانهم بعد ان يطرقوا ابواب الاقتصاد كلها لا بد لهم من دخول ذلك الباب

العلامة السادسة　فداحة الضرائب الى الحد الاقصى

الفرنساويون هم الامة التي كثرت ضرائبها عن غيرها وهم يحتملون وقرها بقوّة التوفير والاقتصاد لا بقوّة العمل والاجتهاد لان الناس اذا ارتقوا في الامة عندنا تركوا الزراعة والصناعة والتجارة مع ان الذين يرتقون هم الذين كان في قدرتهم ان يصلوا بها الى الغاية القصوى من التحسين والاتقان بما أُوتوا من العقل وما جمعوا من الاموال . ومن هنا نقص ايراد هذهِ المصادر الثلاثة التي عليها مدار الثروة العامة سنة بعد أُخرى واصبح من المتعسر الاعتماد على الضرائب لانها تصعب حيناً بعد حين اللهم الاَّ اذا عرفنا طريق الاعتماد على انفسنا لنقوّم ما اعوج من حال الزراعة والصناعة والتجارة ونوجهها نحو النمو المستمر فهي المنبع الذي تستقي منه جميع الحرف

الدخيلة التي اتخذت لها موطناً مختاراً في الميزانية

العلامة السابعة ميل الناس ثانية الى المعيشة الخلوية والاحتراف بالمهن المستقلة

والسبب في هذا الميل هو الازدحام على ابواب الوظائف وهبوط فائدة المال وعدم كفاية الميزانية بحاجة الامة وقد بدأ الناس يقللون من احتقارهم لتلك المهن التي هجروها لمجرد الاستحسان لا بالبرهان ولتوهم انها دون الرتبة وللنفور من كل عمل يقتضي الكد ويطلب الهمة ويكون صاحبه فيه مسئولاً عنه وسيعودون اليها خاضعين لحكم الزمان . ظهرت هذه الحركة على الخصوص في الزراعة فقد التجأ اليها اضطراراً عدد من ارباب الاملاك الذين خسروا بانحطاط الزراعة وهبوط فائدة الاموال والتزاحم حول الوظائف الادارية وهم مع ذلك يودون اطالة مدة اقامتهم في المدن ولكن طبيعة الحال تدفعهم الى الريف وقد انتهى بهم الحال ـ وكان لا بد من ذلك ـ فتعوّدوا على الاشتغال باستغلال اراضيهم التي هجرها المستأجرون او اضروا بها وصار بعضهم يسكن وسط املاكه ويقضي القسم الاكبر من السنة فيها ومنهم من اقام فيها نهائياً طلباً للاقتصاد . ومما يدل على تلك الحركة ايضاً انتشار الشركات الزراعية وكثرة الجرائد الزراعية والجمعيات الزراعية فقد ظهرت هذه الجمعيات مئآت مئآت في كل ناحية وكان تأليفها بسعي اصحاب الاملاك الواسعة الذين كانوا في مبدأ الامر يستخدمونها في اغراضهم السياسية وتأييد نفوذهم ولكنهم صاروا يتأثرون شيئاً فشيئاً بذلك الوسط الجديد واصبحوا يتعرفون مسائل السماد والآلات الزراعية

التي احتقروها الى هذا الحين وانقلبت الجمعية زراعية محضة بحكم الضرورة . ومن جهة ثانية فطن بعض اصحاب الاموال الى هبوط اسعار الاطيان لانحطاط الزراعة فسكفوا على مشترى الاراضي لان غلة الاطيان ما ئلة الى التقرب من فائدة النقود .

العلامة الثامنة التشجيعات على الاستعمار

ان قوة الامة في الاستعمار من ادل الدلائل على قوتها الاجتماعية لانها تدل على ما لاهلها من الهمة والاقدام والقدرة على الانتشار في الدنيا وهذه الصفة هي التي اصبحت بها الامة الانكليزية السكسونية تهدد من سواها . ثم لا يسعنا ان نقول بان فرنسا دخلت في هذا الطريق حقيقة لانا لا نزال نبعث بالعساكر والموظفين اكثر من المستعمرين غير ان من المشاهد حصول التشجيع على الاستعمار والاجتهاد في بيان مزاياه وقد أسست لهذا الغرض شركات وأنشئت جرائد ونظمت بعثات الاكتشاف وصار عدد الذين يهتمون بعلم تقويم البلدان يكثر في كل يوم كأن الفرنساوي الذي ألِفَ بيته اخذ يلتفت الى انه يوجد خارج فرنسا بلاد تمكن الاقامة والمعيشة فيها . ومع اعترافنا بان ذلك كله لا يزال في عالم القوة نرى ان العلامات التي سبق ذكرها تبعث الهمم ايضاً الى الاستعمار وتساعد على نمو تلك الحركة

العلامة التاسعة سقوط منزلة السياسة والذين اتخذوها حرفة سقوطاً مستمراً

كما ان قوة الامة في الاستعمار دليل على قوتها الاجتماعية كذلك ثقتها

بالسياسة والمحترفين بها برهان على ضعفها وانحطاطها لما في ذلك من الدلالة على ان الناس يستمدون على الحكومة اكثر من اعتمادهم على انفسهم وانهم ميالون الى الارتزاق من الوظائف اكثر من ميلهم الى الكسب من المهن الحرة المستقلة . والذي تطمع فيه الاحزاب بعد انتصارها انما هو التهام الغنيمة أعني الوظائف في الحكومة فالاسلاب لمن ظفر . ومتى رسخت هذه الافكار في العقول ابعدت أهلها عن الحرف المستقلة والحرف المستقلة هي التي فيها قوة الامة الحيوية كما ان تلك الافكار تثبط العزائم وتثني الهمم . وعندنا اليوم من العلامات الصحيحة ما يشير الى ان الفرنساويين بدأوا ينفضون عن افكارهم غبار هذا الخيال فصرنا نعقل ان السياسة لم تأتِ لنا بما كنا نرجوه منها وان املنا قد خاب في كل صوب فلم ننل حظنا من الحرية والمساواة والاخاء ولم نحظ بحكومة قل مصرفها ولم تخفف عنا ضرائبنا ولم تحصل المسالمة والاحتمال في الآراء السياسية والمعتقدات الدينية ولم ولم بل رجعنا من اليأس الى قلب الحكومات واسقاط الوزارات واكثر من ذلك تنقيح القوانين وتعديل النظام واصبحنا وقد اختبرنا كل شيء وصرنا عالمين بما في جوف السياسة كلها . ومن اجل ذلك تولد هذا الروح الجديد الذي نشاهدهُ وهو زيادة عدد الذين يقل اهتمامهم يوماً بعد يوم بالجرائد السياسية المحضة . ارجع الى زمن (الاصلاح) أو زمن (حكومة شهر يوليه) اوزمن (الامبراطورية الثانية) نفسها ترَ ان كل جريدة سياسية كانت قوة بذاتها يحترمها الناس ويسمعون قولها وكان لصاحب الجريدة قوة كبرى حتى كان اعظم رجال العصر من اصحاب الجرائد ومنهم

من امسك عليه جريدته في منصبهِ وكانت جرائد (ناسيونال) و (جلوب) و (كونستيتيسيونيل) و (الديبا) تقلب الرأي العام كيفما شاءت وتوقد نار الثورة في بضعة اشهر ان ارادت ولم يكن في الامة من الجرائد الا السياسية وكانت كل جريدة تشخص فريقاً مستقلاً من اقسام الرأي العام . ولكن ما أعظم تقلبات الزمان فقد اضاعت الجرائد السياسية قسماً كبيراً من سلطانها وقسماً اكبر من قرائها وانتقل الرواج الى الجرائد المسماة جرائد الطريق التي ازوت السياسة الى ركن صغير واعتبرتها تشد الخناق على الناس . والى الجرائد الاخبارية التي تنقل الحوادث البرقية من غير ان يكون لها رأي في السياسة والى النشرات الموضوعية التي تكتب في الاعمال وتترجم عن حال المهن والصنائع أو تخدم المنافع المحلية وكان هذا الصنف مجهولاً تماماً قبل اربعين او خمسين عاماً . ومن علامات ذلك السقوط ايضاً ان المراتب السياسية لم تعد وحدها صاحبة المنزلة الرفيعة والمكانة العالية في نظر الناس . ولم يعد للموظفين من الاعتبار ما كان لهم ايام الحكومات السابقة بل الفرق بين الحالتين عظيم . أين ذلك المدير ايام الامبراطورية الذي ما كان يقع بصر احد عليه الا وارتعدت فرائصه وتولاه الفزع والاضطراب . أين تلك المحاكم التي عرفناها منذ اربعين عاماً حيث كانت كل محكمة اقليم منها اشبه بقديسين تحصنوا في الوظائف وامتنعوا في حصون القضاء . لقد اصبحنا شاعرين بان تلك الوظائف اقل ثباتاً واضعف مكانة مما كنا نظنه من قبل . وبانها تقيد استقلال صاحبها بسلاسل واغلال وبانها قليلة الراتب عديمة المكاسب . هذا ولست اذكر في بياني حوادث (بناما) التي تشمئز لاجلها

من السياسة نفوس الذين هم اقل الناس نفوراً منها

اليوم انكشف غطاء الابهة والجلال الذي كان يغشي الدولة ووزراءها وموظفيها ونم الحال فالذي تخسره الحكومة يكسبه الافراد والحياة الخصوصية والحياة المحلية وتلك هي الدعائم الحقيقية المتينة التي يشاد عليها بناء الهيئة الاجتماعية وعلى هذا في الحال تقدم من تلك الجهة ايضاً

العلامة العاشرة قيام الرأي العام حقيقة ضد سيادة الجندية

ان انتشار الجندية عقبة في طريق الاصلاح الاجتماعي فانه يضر بثروة الامة ويدفع الشبان الى المدارس العالية فيثنيهم عن الاشتغال بالفنون الجارية والمهن النافعة والذين لا ينجحون في سبيل الجندية لا يكونون اهلاً لاعتناق الحرف المستقلة التي تقتضي الهمة والاقدام الذاتي لان تلك التربية أضرت بهذه الملكات . غير انه يمكننا ان نبشر قومنا بان الجندية اصبحت في انزواء منذ الآن اذ لم يعد للامة قدرة على تحمل اثقالها زمناً طويلاً ولان السلم بهذا الثمن اشد ضرراً من حرب تكون وبالاً . وقد فرغت خزائن ايتاليا بما انفقته حكومتها في هذا السبيل ولا بد لها من الاقتصاد في حربيتها . ولا تزال المانيا وفرانسا تقومان باعباء جيوشها بغاية الصعوبة وان دام الحال زمناً فانه يضر بحياة الامتين . ولا بد لهذا البرهان المالي من الفوز على ادلة الجندية كلها . على ان انصار الجندية اصبحوا اليوم يذمون ما آلت اليه واصبحت اعمالهم تكذب اقوالهم وعلموا ان طول الاقامة في الثكنات يجعل الاحتراف بغير الجندية صعباً بعيد الامكان ومن اجل ذلك تراهم اسرع الناس الى تخليص اولادهم منها والفائز من وجد له

مهرباً من ذلك النظام الذي يقولون امام الناس بضرورته وفوائده . هذا هو السبب في اقبال الناس على المدارس التي يعفى طلبتها من سنتين في الخدمة العسكرية منذ صدر القانون الجديد اقبالاً حتى صار القاصدون يدوسون بعضهم على ابوابها وفي ذلك من الادلة اظهرها على النفور من الخدمة العسكرية لانها حالة شعرت بها الامة من غير منبه اليها وليس امام الآباء والامهات في العائلات الكبيرة من المعضلات التي لا ينفكون يلتمسون لها حلاً الا كيف ينجون باولادهم من الخدمة المشار اليها وهي مع ذلك أبهى النظامات عندنا . واما اهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزجرون ويحسدون اهل الطبقات الرفيعة على تخلصهم منها ومتى هرب الناس من نظام وهجره ألصقهم به وأشدهم دفاعاً عنه فقد ادركه الضعف وصار منحطاً ولا اظن ان نمو الجندية الى هذا الحد يدوم دوام اعمارنا فان لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفينا مؤنته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم

العلامة الحادية عشرة سقوط منزلة المشروعات الخيرية

نعم ان المقصد الذي توجد لاجله جمعيات البر والاحسان وجمعيات الاعانة وجمعيات الخير العام من اجل المقاصد واسماها لكنها مضرة من جهة كونها تجعل الناس يعتقدون بانها كافية لحل المسئلة الاجتماعية مع انها من قبيل المسكنات لا الادواء فهي تخدر الالم كالمورفين ولا تشفيه . والمساعدة الحقيقية انما تكون بجعل المساعد قادراً على الترقي لا تقديم المعونة اليه ومن هذه الجهة كان البحث على حل المسئلة الاجتماعية بتلك

الوسائل لا يخلو من الخطر

ومن المحقق ان اقبال الناس على هذه الاعمال وتعظيمهم للقائمين بها أخذ في التناقص لان المساعي التي بذلت في سبيل ذلك ذهبت ادراج الرياح ودام خزلانها زمناً طويلاً وفقد الناس ما كان لهم فيها من الثقة الحسنى وتيسر لهم ان يقفوا على ضعف تلك المساعي المجتمعة مع ما هي عليه من مظاهر القوّة والنجاح لانها ليست في الحقيقة الا برهاناً على ضعف الانسان وايقن الكل بان رئيس المعمل أو صاحب الاطيان أو مدير المتجر اذا اهتم بامر رجاله أتى بفائدة اكبر مما يأتيه خمسون رجلاً من رجال تلك المشروعات في تحسين حال قوم تشتتوا في كل صوب وهم لا يعرفونهم وليس بينهم وبينهم اقل رابطة طبيعية فعلية

العلامة الثانية عشرة تدفق المذاهب الاشتراكية

ان العلامات التي سبق ذكرها تدفعنا بلا شك في طريق غير طريق الاشتراكيين لانها تساعد على نمو الهمة الذاتية وحصر السلطة العمومية . ومن جهة ثانية نرى اعظم الامم تقدماً على البقية وهي الامة الانكليزية السكسونية انما حازت هذا التقدم بهمة افرادها فمذهب الاشتراكيين يناقض حينئذٍ مجرى الاحوال الحاضرة . اما سبب ظهور هذا المذهب من جهة وكوننا اتخذناه دليلاً على تقدم الامم نحو الترقي من جهة أخرى فظاهر وبيانه ان التحول الذي قدمنا ذكر علاماته لا يحصل في امة بالسهولة من دون ان يضر ببعض المصالح فيها وايلامها بعض الالم . كان الرجل متعوّداً على مساعدة اهلهِ واصحابه والحزب السياسي الذي انتمى اليه

والحكومة وكانت الامة التي يعيش فيها مائلة الى المحافظة على حالتها لا متجهة نحو الترقي وكان التسابق فيها قليلاً لضعف وسائل النقل وكل ذلك يؤدي الى بقاء التقاليد كما كانت ودوام وسائل الارتزاق على ما هي عليه . غير ان تسهيل وسائل النقل واتساع نطاق معامل الصناعة على اثر اكتشاف الفحم حطمت جميع تلك الحواجز ومزقت دائرة ذلك الوسط الضيق الذي كان يحتضن الانسان بين جوانبه واصبح الزارع والصانع والتاجر عرضة لمنافسة جميع الزرّاع وكل الصنّاع والتجّار في الدنيا فمن كان من القوم ذا عزيمة وهمة واقدام رأى في ذلك الحال الجديد تغيراً لا بد منه في الدنيا واتخذ له منه حظاً فاندفع يطلب الزيادة في الهمة والاكثار من الاقدام ووصل الى درجة من الغنى والقوّة لم تكن لاحد في حساب . ذلك شأن الامة الانكليزية السكسونية لانها كانت في مقدمة الكل من حيث همة افرادها واقدامهم ومن ذلك الحين اخذت تنتشر في ارجاء المسكونة وتهدد جميع الامم الاخرى . ومن كان منهم اقل عزماً واضعف اقداماً تولاه الاندهاش وأنّ تحت اثقال الحياة الجديدة ولم يتخذ لنفسه سلاحاً من عزمه ولم يتدارك قواه ليقاوم ما اقبل عليه من المتاعب واحتفه من الصعاب بل استسهل النحيب اولاً وعمد بعد ذلك الى مناجاة وسطه المتمزق البالي من اهل واصحاب وحكومة وامة جرياً على سنة اسلافه الاولين ثم التفت تلك الجموع الضالة ببعضها وتداعى المتأخرون والضعفاء وفاقدوا الاهلية الى صعيد واحد فاحتشدوا تحت لواء مذهب الاشتراكيين وما مذهب الاشتراكيين الا صورة من صور روكية الشرق التي أدت بامم الى الضعف والانحلال .

هكذا لما رأت طوائف العمال في القرن الماضي ان منيّتها قد حانت باتساع نطاق المعامل جمعت ما بقي فيها من القوى وقامت تقاوم التقدم الجديد جهدها فاكثرت من اللوائح وشددت القيود والاحكام التي كانت تحفظ لها احتكار العمل وتحميها من منافسة الاجنبي ولكن ذهبت اتعابها ادراج الرياح كما يعلمه كل واحد منا ونسف التيار الجديد تلك النظامات العتيقة فجعلها نسياً منسياً

اخطأ الاشتراكيون اذ جهلوا التاريخ فجاؤا بمذهب درجت عليه الاعوام وجعلوا يصادمون الحوادث الطبيعية التي تدفع العالم الانساني في طريق جديد . ومهما اجتهدوا وشددوا العزائم فانهم انما يزيدون في قوة البرهان على هذا المصير الجديد الذي تألبوا لمغالبته بما بقي فيهم من القوة كما فعلت الطوائف التي ذكرناها من قبل واصبحوا على فعلهم نادمين . وليس لمذهب الاشتراكيين فائدة تنتظر الا زيادة الضعف في نفوس اولئك الذين عميت بصائرهم فاصبحوا يرجون السلامة من منجٍ لا وجود له الا في الخيال

ما مذهب الاشتراكيين بجديد يبدو ولكنه قديم يتفانى وعليه فمهما قلبنا الحوادث وغيرنا وجهة البحث فيها لا نستفيد منها غير ان العالم متقدم ونحن معه نحو انماء الهمة الذاتية في الانسان ولا سبيل للنجاح في هذه الايام الا بهذا

والآن اسأل ان كان واجبنا اليوم هو في الاكتفاء بفعل المؤثر الادبي وابتداء به نداء مبهماً أوفي اننا نقف على حقيقة احوال المعيشة الجديدة التي

يتوقف عليها رغد الامة لانه ثبت ان المؤثر الادبي وحده لا يقوم بحاجتنا في هذه الازمان وفي اننا ننشر تلك الفضائل الاجتماعية وندافع عنها لانها دار السلام

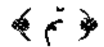
ولا خوف من هذا على المؤثر الادبي ان ينسى وتثقل عليه وطأة نمو الهمة الذاتية واعتماد كل امرئ في الحياة على نفسه كما انه لا يخشى من حط درجة الانسان وجعله محباً لذاته واماتة الامل وقتل روح الاحتمال وعاطفة الاحسان وحب الجار فيه فاني لن افرغ من كتابي الا اذا اسكنت روع القراء مما يخافون

اقول لهم ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى ان الامم التي بلغت فيها همة الانسان منتهاها هي ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق وتبقى المحامد . وبيانه ان المؤثر الادبي انما يجعل المرء قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها اشد فعلاً من الحياة الملية التي يتعلم فيها انه لا اعتماد له الا على نفسه . وليس من مرب يأخذ بمجامع القلوب اكثر من تلك الحياة فهي التي تقود المرء الى (الحياة الحقيقية) وهي المدرسة الطبيعية التي تريه كيف يحتمل المتاعب والرزايا وهي الاسهل تناولاً والاكثر شيوعاً وطلاباً . تلك ضرورة أشد فعلاً في النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الاخرى ذلك لان الاعمال تدعو الى العمل اكثر من الاقوال

جاء في الكتاب (انك لتنال عيشك من عرق جبينك) حكمة هي

اسّ القوة الاجتماعية ومبنى الآداب وبها تمكن الاخلاق وما من امة هربت من حكم تلك الحكمة التي تقضي على المرء بالكد والعمل بما تلتمسُ من الجبل الا انحطت اخلاقها وتأخرت الآداب بين قومها . كذا اهل الجلود الحمر امام الشرقيين . كذا الشرقيون امام الغربيين . كذا أمم الغرب اللاتينيون والجرمانيون امام الانكليز السكسونيين

﴿ تم ﴾



فهرست

صحيفة

الباب الأول

الباب الثاني

صحيفة

الباب الثالث

الفصل الثاني

صحيفة

(الفصل الثالث)

(الفصل الرابع)

(الفصل الخامس)

(الفصل السادس)